كرسي الملك عبدالله بن عبدالعزيز للقرآن الكريم
King Abdullah bin AbdulAziz Chair For The Holy Quran
كرسي الهدايات القرآنية
DSR.UQU
عمادة البحث العلمي
جامعة أم القرى
UMM AL-QURA UNIVERSITY

الهدايات القرآنية في سورة

الفاتحة

[دراسة تطبيقية]

بحث علمي محكَّم في المؤتمر القرآني الدولي السنوي (مقدس ٨)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ
صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ

إعداد: عادل بن سليمان بن أحمد ضحوي

إشراف: أ.د/ يحيى بن محمد زمزمي

تم تحكيم البحث ونشره بالتعاون بين كرسي الملك عبدالله بن عبدالعزيز للقرآن الكريم - وكرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى

بسم الله الرحمن الرحيم


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الرحمن، علَّم القرآن، خلق الإنسان، علّمه البيان ..

والصلاة والسلام على النبي المصطفى والرسول المجتبى، نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، **أما بعد:** فقد أودع الله تعالى كتابه الكريم أصنافًا من الهدايات المرشدة، وأنواعًا من الدلالات المتجددة؛ ليتحقق به موعود الله لعباده المؤمنين: ﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٦].

ولقد أكرمنا الله في أم القرى بجامعة عريقة، جمعت بين شرف المكان وشرف العلم وشرف خدمة القرآن ، فأنشأت كرسيين قرآنيين هما: كرسي الملك عبدالله بن عبدالعزيز للقرآن الكريم و كرسي الهدايات القرآنية، وأطلقت مشروعاً قرآنياً نوعياً وهو: (الموسوعة العالمية للهدايات القرآنية) والذي يتم تنفيذه من خلال إعداد (٦٠) رسالة دكتوراه بمشاركة عدد من الجامعات في أنحاء العالم، وبتمويل من مؤسسة النبأ العظيم الوقفية بمشاركة مؤسسة عبداللطيف العيسى الأهلية ومؤسسة أوقاف والدة بدر بن صالح الراجحي وأولادها.

وهذا البحث (الهدايات القرآنية في سورة الفاتحة – دراسة تطبيقية) هو باكورة الإنتاج العلمي لكرسي الهدايات القرآنية، ويعد نموذجاً تطبيقياً للخطة العلمية الموحدة للموسوعة، وقد أحسن الباحث فضيلة الشيخ: عادل بن سليمان ضحوي فبذل جهداً جيداً في إعداده وتحريره وحظي البحث بمراجعة وتحكيم اللجنة العلمية بالكرسي، وقد أذنت إدارة الكرسي بنشره ضمن الأبحاث المشاركة في المؤتمر القرآني الدولي السنوي (مقدس ٨) الذي ينظمه مركز بحوث القرآن بجامعة ملايا بالشراكة مع كرسي الملك عبدالله بن عبدالعزيز للقرآن الكريم بجامعة أم القرى.

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا العمل القرآني، وأن يتقبله بقبول حسن، إنه سميع مجيب.

أستاذ الكرسي

أ.د/ يحيى بن محمد زمزمي

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن، هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان، والصلاة والسلام على من أرسله الله هاديًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، **أما بعد:**

فإنَّ القرآن الكريم هو النور والهدى، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦]، ولن تستقيم الحياة إلا باتباع نوره وهداه.

والقرآن الكريم لا تنقضي عجائبه، ولا تحصى معانيه وفوائده، فقد نهلت منه أمة الإسلام منذ أن أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيه ﷺ، ولا يزال المجال مفتوحًا لاستخراج الهدايات والفوائد من معينه الصافي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ ولا عجب في ذلك فهو المعجزة الخالدة التي تخاطب القلوب والعقول، وإعجازه باقٍ ما بقيت الدنيا.

وإنَّ سورة الفاتحة التي جعلها الله تعالى مفتتح تنزيله هي أعظم سورة في هذا القرآن، وحقٌّ على كلّ مؤمن وهو يتلوها ليل نهار أن يتدبر معانيها وأن يهتدي بهداها، وهذا البحث هو دراسة تطبيقية في مجال الهدايات القرآنية على هذه السورة المباركة، وهو باكورة العمل في الدراسة التطبيقية ضمن مشروع موسوعة الهدايات القرآنية، الذي يشرف عليه كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى، تقدمتُ للمشاركة به في المؤتمر القرآني الدولي السنوي (مقدس ٨)، بناء على موافقة كرسي الهدايات القرآنية.

ومما يميز هذا البحث إضافة إلى ما سبق من أنه يعنى بأعظم سورة في كتاب ربنا أنَّ فيه جمعًا لما تفرق في كتب التفسير مما سطره جهابذة العلماء في هدايات هذه السورة، وضمًّا لشتاتها في موضع واحد للاستفادة المثلى منها، وبعد الاستعانة بالله جلَّ جلاله، ثم الاستنارة بما دونه مفسرو القرآن وعلماء الأمة أضاف الباحث بعض ما ظهر له في هذا الشأن.

وكذلك فإنّ هذا البحث يعنى بقضايا الواقع، وفق هدايات سورة الفاتحة، مع بيان أبرز الآثار على واقع الأمة إذا هي طبقت تلك الهدايات، ومعلومٌ أنّ الحاجة ماسة في عصرنا هذا لربط واقعه بمعاني القرآن وهداياته؛ حتى تعود الأمة لمجدها وعزتها كما كانت عليه يوم أن كان القرآن هاديًا وشافيًا لعللها وأمراضها.

وقد احتوى البحث على بابين، بيانها في الآتي:

الباب الأول: مقدمات تفسيرية لدراسة هدايات السورة، ويتكون من فصلين:

الفصل الأول: اسم السورة، وفضلها، وأحوال نزولها.

المبحث الأول: اسم السورة.

المبحث الثاني: فضائل السورة.

المبحث الثالث: أحوال نزول السورة.

الفصل الثاني: مقاصد السورة ومعانيها العامة.

المبحث الأول: مقاصد السورة العامة.

المبحث الثاني: معاني مفردات السورة.

المبحث الثالث: المعنى الإجمالي للسورة.

الباب الثاني: دراسات تطبيقية في هدايات السورة، وربط ذلك بواقع الأمة، ويتكون من ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الهدايات الجزئية والكلية في السورة.

المبحث الأول: الهدايات الخاصة بآيات السورة.

المبحث الثاني: الهدايات الكلية في السورة.

الفصل الثاني: مناسبات السورة وخصائصها وأساليبها في عرض هداياتها.

المبحث الأول: المناسبات المتعلقة بهدايات السورة.

المبحث الثاني: خصائص هدايات السورة.

المبحث الثالث: أساليب السورة في عرض هداياتها.

الفصل الثالث: واقع الأمة في ضوء هدايات السورة، وأثر ذلك عليها.

المبحث الأول: واقع الأمة من هدايات السورة.

المبحث الثاني: سبل تحقيق هدايات السورة في واقع الأمة.

المبحث الثالث: أثر تطبيق هدايات السورة على واقع الأمة.

وذُيّل البحث بخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع، وآخر للموضوعات.

وفي ختام هذه المقدمة أحمد الله تعالى وأشكره سبحانه على إعانته وتوفيقه لي بإتمام هذا البحث، وأسأله سبحانه أن ينفع به، وأن يتقبله خالصًا لوجهه، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم لقائه.

ثم الشكر لفضيلة الأستاذ الدكتور: يحيى بن محمد حسن زمزمي، أستاذ كرسي الملك عبد الله بن عبد العزيز للقرآن وعلومه بكلية الدعوة وأصول الدين – جامعة أم القرى، وأستاذ كرسي الهدايات القرآنية بالجامعة، الذي كان له دور كبير في تقويم هذا البحث والسعي لإخراجه ونشره حتى يستفاد منه، ويكون نموذجًا يُحتذى به في موسوعة الهدايات القرآنية، والشكر كذلك للأستاذ الدكتور: طه عابدين طه، رئيس الفريق العلمي لموسوعة الهدايات القرآنية، والذي كان له دور كبير أيضًا في تقويم البحث والتشجيع على نشره وإخراجه، وكذلك لبقية أعضاء الفريق العلمي الذين كان لهم دور أيضًا في تقويم البحث وتوجيه الباحث، وهما الدكتور: ياسين حافظ قاري، والدكتور: فخر الدين الزبير.

والشكر موصول لكل من قدّم لي نصحًا أو توجيهًا، من الأساتذة الأفاضل والزملاء الأكارم، فأسأل الله تعالى لهم ولجميع من وجهني أو أعانني الرعاية والتوفيق، والهداية لأقوم طريق، وأن يجعل ما أسدوه إليَّ من معروف في موازين حسناتهم يوم القيامة، إنه جواد كريم.

هذا وقد بذلت وسعي وجهدي، وهو جهد المقلّ المعترف بالقصور والتقصير والخلل، ولا أدعي الإحاطة والإلمام، فإن أصبت فالفضل لله وحده، وإن أخطأت أو قصَّرت فهذا

من شأن الإنسان، وأسأل الله الغفران، وحسبي أني حاولت وبذلت ما بوسعي، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

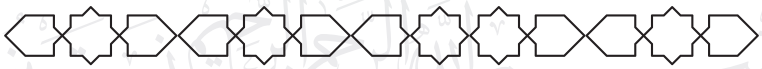

الباب الأول

١ مقدمات تفسيرية لدراسة هدايات السورة ١

ويتكون من فصلين:

الفصل الأول:

اسم السورة، وفضلها، وأحوال نزولها.

- **المبحث الأول:** اسم السورة.
- **المبحث الثاني:** فضائل السورة.
- **المبحث الثالث:** أحوال نزول السورة.

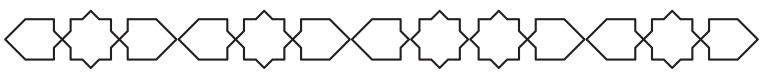

اسم السورة

قال الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «اعلم أنَّ هذه السورة لها أسماء كثيرة، وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى»[2]، وقال الآلوسي رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «لهذه السورة الكريمة أسماء أوصلها البعض إلى نيف وعشرين[4]»[5].

ومعظم هذه الأسماء اجتهادية اشتهرت بين علماء السلف، وسيتم هنا الاقتصار على بيان الأسماء التي ورد بها القرآن الكريم والسنة الصحيحة، وهي: فاتحة الكتاب، وأم القرآن، أو أم الكتاب، والسبع المثاني، والقرآن العظيم، والصلاة[6].

الأول: فاتحة الكتاب[7]: ومما ورد في تسميتها بهذا الاسم حديث عبادة بن

---

(١) أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين، فخر الدين الرازي القرشي، الفقيه الشافعي المفسر، إمام وقته في العلوم العقلية، من أشهر مصنفاته (التفسير الكبير) المعروف بتفسير الرازي، أو بتفسير مفاتيح الغيب، و(المحصول) في أصول الفقه، توفي – رحمه الله – سنة (٦٠٦هـ). ينظر: طبقات الشافعية، ابن قاضي شهبة، ٨١/٢؛ وطبقات المفسرين، الداوودي، ٢١٥/٢.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٥٦/١.

(٣) أبو الثناء محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي، شهاب الدين، مفسِّر محدِّث أديب، من أهل بغداد، مولده ووفاته فيها، له تصانيف كثيرة، منها تفسيره المشهور: (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني)، توفي – رحمه الله – سنة (١٢٧٠هـ). ينظر: الأعلام، الزركلي، ١٧٦/٧؛ ومعجم المؤلفين، كحالة، ٨١٥/٣.

(٤) عدَّها السيوطي في الإتقان، وأوصلها إلى خمسة وعشرين اسمًا، وقال: «فهذا ما وقفت عليه من أسمائها، ولم تجتمع في كتاب قبل هذا». الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ١٩١/١.

(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، ٣٤/١.

(٦) ذكر ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ سورة الفاتحة لها أسماء كثيرة جرت على ألسنة القراء من عهد السلف، وأنَّ الذي ثبت منها بالسنة الصحيحة فاتحة الكتاب، والسبع المثاني، وأم القرآن، أو أم الكتاب. (ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٣١/١)؛ وقد أضفت إلى ما ذكره من أسماء (القرآن العظيم، والصلاة)؛ لأن لهما دلائل صحيحة أيضًا كما سيأتي بإذن الله تعالى. وينظر كذلك: دراسات في هدايات سورة الفاتحة في ضوء وحدتها الموضوعية، د. طه عابدين، ص١٥.

(٧) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقال لها: **الفاتحة**، أي: فاتحة الكتاب خطًّا». تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٠١/١، وقال الشريف الجرجاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «فاتحة الكتاب صارت علمًا بالغلبة لسورة الحمد، وقد يطلق عليها (**الفاتحة**) وحدها، فإما أن يكون علمًا آخر بالغلبة أيضًا؛ لكون اللام لازمة، وإما أن يكون اختصارًا، واللام كالعوض عن الإضافة إلى الكتاب، مع لمح الوصفية الأصلية». محاسن التأويل، القاسمي، ٢٢٣/١.

الصامت ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال: ((لا صلاة لمن لم يقرأ **بفاتحة الكتاب**))[1].

وحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضًا من فوقه، فرفع رأسه، فقال: ((هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلّم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: **فاتحة الكتاب**، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته))[2].

وسمّيت بذلك لأنها يُفتتح بكتابتها المصاحف، ويُقرأ بها في الصلوات، فهي فواتح لما يتلوها من سور القرآن في الكتابة والقراءة[3].

«ولا ضيرَ في اشتهار السورة الكريمة بهذا الاسم في أوائل عهد النبوة قبل تحصل المجموع بنزول الكل؛ لما أنَّ التسمية من جهةِ الله عزَّ اسمه، أو من جهة الرسول ﷺ بالإذن، فيكفي فيها تحصُّله باعتبار تحققه في علمه عزَّ وجل، أو في اللَّوح، أو باعتبار أنه أُنزل جملةً إلى السماءِ الدُّنيا، وأملاه جبريل على السّفرة، ثمَّ كان ينزله على النبيِّ ﷺ نجومًا في ثلاثٍ وعشرين سنة كما هو المشهور»[4].

ومعنى فتحها الكتاب أنها جعلت أول القرآن لمن يريد أن يقرأ القرآن من أوله فتكون فاتحة بالجعل النبوي في ترتيب السور[5].

الثاني: أم القرآن أو أم الكتاب: ومما ورد في تسميتها بهذا الاسم حديث عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا صلاة لمن لم يقرأ **بأم القرآن**))[6].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: صفة الصلاة، باب: وجوب القراءة للإمام والمأموم، ١٥١/١، رقم [٧٥٦]؛ ومسلم في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، ٢٩٥/١، رقم [٣٩٤].

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، ٥٥٤/١، رقم [٨٠٦].

(٣) ينظر: جامع البيان، الطبري، ١٠٧/١.

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/١.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٣٢/١.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، ٢٩٥/١، رقم [٣٩٤]. [٣٩٤].

وحديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((**أمُّ القرآن** هي السبع المثاني، والقرآن العظيم))[1].

وحديث أبي هريرة ﷺ أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: ((﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **أم القرآن، وأم الكتاب**، والسبع المثاني))[2].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله[3] في توجيه هذه التسمية: «وسميت (أمّ القرآن) لتقدمها على سائر سور القرآن غيرها، وتأخر ما سواها خلفها في القراءة والكتابة، وذلك من معناها شبيه بمعنى فاتحة الكتاب، وإنما قيل لها - بكونها كذلك - أمّ القرآن لتسمية العرب كل جامع أمرًا أو مقدم لأمر إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع؛ أمًّا، فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ: (أمّ الرأس)، وتسمى لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها للجيش أمًّا»[4].

ومن وجوه تسمية الفاتحة بأم القرآن وأم الكتاب أيضًا أنها مبدؤه ومفتتحه فكأنها أصله ومنشؤه، يعني أنَّ افتتاحه الذي هو وجود أول أجزاء القرآن قد ظهر فيها؛ فجعلت كالأم للولد في أنها الأصل والمنشأ، فيكون أم القرآن تشبيهًا بالأم التي هي منشأ الولد لمشابهتها بالمنشأ من حيث ابتداء الظهور والوجود، **ولأنها تشتمل** محتوياتها على أنواع مقاصد القرآن، وهي ثلاثة أنواع: الثناء على الله تعالى ثناءً جامعًا لوصفه بجميع المحامد

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾، ٨١/٦، رقم [٤٧٠٤].

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الصلاة، باب: فاتحة الكتاب، ٧١/٢، رقم [١٤٥٧]؛ والترمذي في سننه، كتاب: تفسير القرآن، سورة الحجر، ٢٩٧/٥، رقم [٣١٢٤]، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني. ينظر: صحيح سنن الترمذي، الألباني، ٢٦٥/٣.

(٣) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، رأس المفسرين، ولد بآمل طبرستان، جمع كثيرًا من العلوم، وبرع في التفسير والفقه والتاريخ، له تصانيف كثيرة، منها تفسيره المشهور (جامع البيان)، وهو من أجلّ التفاسير، ومنها (تاريخ الأمم والملوك)، توفي - رحمه الله - في شوال سنة (٣١٠هـ). ينظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي، ٧١٠/٢؛ وطبقات المفسرين، السيوطي، ص٩٥.

(٤) جامع البيان، الطبري، ١٠٧/١.

وتنزيهه من جميع النقائص، والأوامر والنواهي، والوعد والوعيد، **ولأنها تشتمل** معانيها على جملة معاني القرآن من الحكم النظرية والأحكام العملية[1].

الثالث: السبع المثاني: ومما ورد في تسميتها بهذا الاسم الحديث السابق عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((أم القرآن هي **السبع المثاني**، والقرآن العظيم))[2].

وحديث أبي سعيد بن المعلى ﷺ[3]، قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ثم قال لي: ((لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن، قبل أن تخرج من المسجد))، ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج، قلت له: ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هي **السبع المثاني**، والقرآن العظيم الذي أوتيته))[4].

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أنَّ سورة الفاتحة هي المقصودة بالسبع المثاني في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧][5].

ووجه تسمية سورة الفاتحة بهذا الاسم أنها تُثْنَى قراءتها في كل صلاة تطوُّع ومكتوبة[6]، وأنها سبع آيات باتفاق القراء والمفسرين[7].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ١/١٣٣، ١٣٤.

(٢) سبق تخريجه ص ١٢.

(٣) أبو سعيد بن المعلى الأنصاري، قيل اسمه رافع، وقيل اسمه: الحارث بن نفيع بن المعلى، وهو الأصح، أخرج له البخاري وغيره، توفي ﷺ سنة (٧٤هـ)، وقيل: سنة (٧٣هـ). ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، ٥/١٤٢؛ والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، ٧/١٤٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فاتحة الكتاب، ٦/١٧، رقم [٤٤٧٤].

(٥) ينظر: جامع البيان، الطبري، ١٧/١٣٧؛ والتفسير البسيط، الواحدي، ١٢/٦٤٦؛ وفتح القدير، الشوكاني، ٣/١٧٠.

(٦) ينظر: جامع البيان، الطبري، ١/١٠٩.

(٧) ينظر: روح المعاني، الآلوسي، ١/٣٨؛ والتحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٣٥.

الرابع: القرآن العظيم: ومما ورد في تسميتها بهذا الاسم الحديث السابق عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((أم القرآن هي السبع المثاني، **والقرآن العظيم**))[(١)].

والحديث السابق أيضًا عن أبي سعيد بن المعلى ﷺ، وفيه أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي السبع المثاني، **والقرآن العظيم** الذي أوتيته))[(٢)].

ووجه تسمية الفاتحة بذلك أنها تتضمن جميع علوم القرآن؛ فهي تشتمل على الثناء على الله عزَّ وجلَّ بأوصاف كماله وجلاله، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها والاعتراف بالعجز عن القيام بشيء منها إلا بإعانته تعالى، وعلى الابتهال إليه في الهداية إلى الصراط المستقيم وكفاية أحوال الناكثين، وعلى بيانه عاقبة الجاحدين[(٣)].

الخامس: الصلاة: ومما ورد في تسميتها بهذا الاسم حديث أبي هريرة ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال: ((قال الله تعالى: قسمت **الصلاة** بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، يقول الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قال: مجدني عبدي – وقال مرة: فوض إليَّ عبدي –، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل))[(٤)].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٥)]: «قال العلماء المراد بالصلاة هنا الفاتحة، سميت بذلك لأنها لا تصح إلا بها»[(٦)].

---

(١) سبق تخريجه ص ١٢.

(٢) سبق تخريجه ص ١٢.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/١١٢.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ، كتاب: الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، ١/٢٩٦، رقم [٣٩٥].

(٥) أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي، أحد العلماء الأعلام، ومن كبار فقهاء المذهب الشافعي، له المصنفات العديدة التي رُزقت القبول، من أشهرها: (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، و(رياض الصالحين)، توفي – رحمه الله – سنة (٦٧٦هـ). ينظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي، ٤/١٧٤؛ وشذرات الذهب، ابن العماد، ١/٥٥.

(٦) شرح صحيح مسلم، النووي، ٤/١٠٣.

وقد دلَّ الحديث على عظم قراءة الفاتحة في الصلاة، وأنها من أكبر أركانها؛ إذ أطلقت العبادة وأريد بها جزء واحد منها وهو القراءة، كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨][1].

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/١٠٨.

المبحث الثاني:

فضائل السورة

لسورة الفاتحة فضائل عديدة، وهي من السور التي صحَّ في فضلها الشيء الكثير، ومن تلك الفضائل[1]:

الأولى: امتنان الله تعالى على رسوله ﷺ بها: قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]؛ فقد جعلها الله سبحانه وتعالى في سياق المنِّ موازية لكل القرآن العظيم؛ بما ثنى فيها من جميع حقائق القرآن، حتى كأنها هي كل القرآن[2].

وقد ورد التصريح بذلك في حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((أم القرآن هي السبع المثاني، والقرآن العظيم))[3].

الثانية: أنها أعظم سورة في القرآن: فعن أبي سعيد بن المعلى ﷺ، قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ثم قال لي: ((لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن، قبل أن تخرج من المسجد))، ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج، قلت له: ألم تقل لأعلمنك سورة هي **أعظم سورة في القرآن؟** قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته))[4].

---

(١) ممن توسع في ذكر فضائل هذه السورة ابن رجب الحنبلي، وللاستزادة ينظر: تفسير الفاتحة، ابن رجب، ص٣٥ - ٤٨.

(٢) ينظر: مجالس القرآن، د. فريد الأنصاري، ص١١٦.

(٣) سبق تخريجه ص ١٢.

(٤) سبق تخريجه ص ١٣.

الثالثة: أنَّه لم ينزل مثلُها: فعن أبي هريرة ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال: ((والذي نفسي بيده ما أنزلت في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، وإنها سبع من المثاني، والقرآن العظيم الذي أعطيته))[1].

الرابعة: أنها مختصة بمناجاة الرب تعالى: ولهذا اختصت الصلاة بها، فإن المصلي يناجي ربه، وإنما يناجي العبد ربه بأفضل الكلام وأشرفه، وهي مقسومة بين العبد والرب نصفين، فنصفها الأول ثناء على الرب جلَّ وعلا، والرب تعالى يسمع مناجاة العبد له، ويرد على المناجي جوابه، ويسمع دعاء العبد بعد الثناء، ويجيبه إلى سؤاله، وهذه الخصوصية ليست لغيرها من السور[2].

ومما يؤيد ذلك حديث أبي هريرة ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال: ((قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، يقول الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قال: مجدني عبدي - وقال مرة: فوض إليَّ عبدي -، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل))[3].

ومن هنا فالفاتحة باب ليس كأيّ باب، فهي تنفتح بالمسلم مباشرة على الملأ الأعلى، وهي معراج الروح إلى الله، وذلك سرٌّ من أسرار جعلها هي الصلاة، وجعلها

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل فاتحة الكتاب، ١٥٥/٥، رقم [٢٨٧٥]، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح؛ والحاكم في مستدركه، كتاب: فضائل القرآن، أخبار في فضائل القرآن جملة، ٢٨٣/٢، رقم [٣٠١٩]، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، والحديث صححه أيضًا الألباني. ينظر: صحيح سنن الترمذي، الألباني، ١٥١/٣.

(٢) ينظر: تفسير الفاتحة، ابن رجب، ص٤٠.

(٣) سبق تخريجه ص ١٤.

مناط الصلة اليومية بالله لملايين المسلمين إلى يوم الدين، ثم جعلها مقسومة بين الرب الكريم وبين عبده المطيع نصفين[1].

الخامسة: أنها نور اختص الله به نبيه ﷺ: فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضًا من فوقه، فرفع رأسه، فقال: ((هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم، وقال: **أبشر بنورين** أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته))[2].

السادسة: اختصاصها بالتأمين: فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: إنَّ رسول الله ﷺ خطبنا فبين لنا سنتنا وعلمنا صلاتنا، فقال: ((إذا صليتم فأقيموا صفوفكم، ثم ليؤمكم أحدكم، فإذا كبر فكبروا، وإذ قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ **فقولوا: آمين،** يجبكم الله))[3].

وعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((إذا قال الإمام: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ **فقولوا: آمين،** فإنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه))[4].

وهذه الخصوصية لها من بين سائر سور القرآن دليل على فضل هذه السورة الكريمة؛ لما يتحقق بتلاوتها والاستماع إليها من الإجابة والمغفرة[5].

السابعة: أنَّها شفاء من كل داء: فهي شفاء من الأمراض القلبية، وشفاء من الأسقام البدنية، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

---

(١) ينظر: مجالس القرآن، د. فريد الأنصاري، ص١١٦، ١١٧.

(٢) سبق تخريجه ص ١١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: التشهد في الصلاة، ١/٣٠٣، رقم [٤٠٤].

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأذان، باب: جهر المأموم بالتأمين، ١/١٥٦، رقم [٧٨٢]؛ ومسلم في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: التسميع والتحميد والتأمين، ١/٣٠٦، رقم [٤١٠].

(٥) ينظر: دراسات في هدايات سورة الفاتحة في ضوء وحدتها الموضوعية، د. طه عابدين، ص٣١.

[الإسراء: ٨٢]؛ فالقرآن كله شفاء، والفاتحة أعظم سورة فيه، فلها من خصوصية الشفاء ما ليس لغيرها[١].

ومن الأسماء التي سميت بها هذه السورة المباركة الشافية أو الشفاء[٢]؛ فهي شفاء لأمراض القلوب وشفاء لأمراض الأبدان، والتحقق بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] علمًا ومعرفة، وعملًا وحالًا يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد، وقد ثبت في السنة شفاؤها للأمراض الحسية[٣].

ومما يؤيد ذلك حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أنَّ ناسًا من أصحاب النبي ﷺ أتوا على حي من أحياء العرب فلم يُقروهم، فبينما هم كذلك، إذ لدغ سيد أولئك، فقالوا: هل معكم من دواء أو راق؟ فقالوا: إنكم لم تقرونا، ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلا، فجعلوا لهم قطيعًا من الشاء، فجعل يقرأ بأم القرآن، ويجمع بزاقه ويتفل، فبرأ فأتوا بالشاء، فقالوا: لا نأخذه حتى نسأل النبي ﷺ، فسألوه فضحك وقال: ((وما أدراك أنها رقية، خذوها واضربوا لي بسهم))[٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[٥]: «فاتحة الكتاب، وأم القرآن، والسبع المثاني، والشفاء التام، والدواء النافع، والرقية التامة، ومفتاح الغنى والفلاح، وحافظة القوة، ودافعة الهم والغم والخوف والحزن لمن عرف مقدارها وأعطاها حقها، وأحسن تنزيلها على دائه، وعرف وجه الاستشفاء والتداوي بها، والسر الذي لأجله كانت كذلك»[٦].

---

(١) ينظر: تفسير الفاتحة، ابن رجب، ص٤٤.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٥٩/١؛ وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٠١/١.

(٣) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٧٦/١ – ٧٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الطب، باب: الرقى بفاتحة الكتاب، ١٣١/٧، رقم [٥٧٣٦]؛ ومسلم في صحيحه، كتاب: السلام، باب: جواز أخذ الأجر على الرقية بالقرآن والأذكار، ١٧٢٧/٤، رقم [٢٢٠١].

(٥) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي، ابن القيم الجوزية، كان واسع العلم، من أبرز تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية، صنف كثيرًا من المؤلفات المفيدة، منها: (زاد المعاد في هدي خير العباد)، و(بدائع الفوائد)، توفي – رحمه الله – سنة (٧٥١هـ). ينظر: الدرر الكامنة، ابن حجر، ٢٤٣/٣؛ وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد، ٢٨٧/٨.

(٦) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم، ٣١٨/٤.

أحوال نزول السورة

نزلت سورة الفاتحة بمكة المكرمة قبل الهجرة على أرجح الأقوال، وقيل: نزلت بالمدينة، وقيل: تكرر نزولها بمكة والمدينة.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «وهي مكية، قاله ابن عباس وقتادة[2] وأبو العالية[3]، وقيل مدنية، قاله أبو هريرة ومجاهد[4] وعطاء بن يسار[5] والزهري[6]، ويقال: نزلت مرتين: مرة

---

(١) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، القرشي الدمشقي، الحافظ المفسر المؤرخ، من فقهاء الشافعية، سارت تصانيفه في البلاد في حياته، وانتفع بها الناس بعد وفاته، من أشهر مصنفاته: (تفسير القرآن العظيم)، و(البداية والنهاية)، توفي – رحمه الله – سنة (٧٧٤هـ). ينظر: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ابن حجر، ٢١٨/١؛ وطبقات المفسرين، الداوودي، ١١١/١.

(٢) أبو الخطاب قتادة بن دعامة بن عزيز السدوسي البصري، أحد أجلاء التابعين وأعلامهم، روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه وغيره من الصحابة رضي الله عنهم، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، توفي – رحمه الله – سنة (١١٧هـ)، وقيل: (١١٨هـ). ينظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان، ٨٥/٤؛ وتهذيب التهذيب، ابن حجر، ٣٥١/٨.

(٣) أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي البصري، أحد أعلام التابعين، سمع من عمر وعلي وعائشة وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، توفي – رحمه الله – سنة (٩٠هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، ٢٠٧/٤؛ وتهذيب التهذيب، ابن حجر، ٢٨٤/٣.

(٤) أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي، المقرئ المفسر الإمام، أحد أعلام التابعين، وأحد أصحاب ابن عباس رضي الله عنهما الآخذين عنه التفسير، أخرج له أصحاب الكتب الستة، توفي – رحمه الله – سنة (١٠١هـ)، وقيل في وفاته غير ذلك. ينظر: تهذيب التهذيب، ابن حجر، ٤٢/١٠؛ وطبقات المفسرين، الداوودي، ٣٠٥/٢.

(٥) أبو محمد عطاء بن يسار الهلالي المدني، مولى أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها، الفقيه الواعظ، وأحد علماء علماء التابعين، روى عن زيد بن ثابت وأبي أيوب وعائشة رضي الله عنهم، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، توفي – رحمه الله – سنة (١٠٣هـ)، وقيل في وفاته غير ذلك. ينظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي، ٧٠/١؛ وتهذيب التهذيب، ابن حجر، ٢١٧/٧.

(٦) أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري، من أكابر حفاظ الحديث ورواته، ومن علماء التابعين، روى عن ابن عمر وأنس وسهل بن سعد وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، توفي – رحمه الله – سنة (١٢٤هـ). ينظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي، ٨٣/١؛ وتهذيب التهذيب، ابن حجر، ٤٤٥/٩.

مرة بمكة، ومرة بالمدينة[1]، **والأول أشبه** لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧]»[2].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «**والأول أصح** لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾، والحجر مكية بإجماع، ولا خلاف أنَّ فرض الصلاة كان بمكة، وما حفظ أنه كان في الإسلام قط صلاة بغير ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، يدل على هذا قوله عليه السلام: ((لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب))[4]»[5].

والذي يظهر أنَّ هذه السورة نزلت في مرحلة متقدمة من العهد المكي، قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ[6]: «وهذه السورة مكية باتفاق الجمهور، وقال كثير: إنها أول سورة نزلت[7]، والصحيح أنه نزل قبلها: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ [العلق: ١]، وسورة المدثر، ثم الفاتحة، وقيل نزل قبلها أيضا: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ ﴾ [القلم: ١]، وسورة المزمل، وقال بعضهم هي أول سورة نزلت كاملة، أي غير منجمة، بخلاف سورة القلم، وقد حقق بعض العلماء أنها

---

(١) ويمكن أن يوجَّه تكرر النزول بما قاله ابن عرفة: «ولعلهم يعنون بنزولها مرتين أنَّ جبريل نزل حين حولت القبلة فأخبره عليه الصلاة والسلام أنَّ الفاتحة ركن في الصلاة كما كانت بمكة، وأقرأه فيها قراءة لم يكن أقرأه بها في مكة، فظنّوا ذلك إنزالًا، وهو ضعيف». تفسير ابن عرفة، ابن عرفة المالكي، ٩٢/١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٠١/١.

(٣) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، من أشهر المفسرين، كان من الزاهدين في الدنيا، له تصانيف مفيدة منها: تفسيره المشهور (الجامع لأحكام القرآن)، و(التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة)، توفي – رحمه الله – سنة (٦٧١هـ). ينظر: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ابن فرحون، ٣٠٨/٢؛ وطبقات المفسرين، السيوطي، ص٩٢.

(٤) سبق تخريجه ص ١١.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١١٥/١.

(٦) محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر ابن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، مولده ووفاته ودراسته بها، له الكثير من المصنفات، منها: تفسيره المشهور باسم (التحرير والتنوير)، و(مقاصد الشريعة الإسلامية)، توفي – رحمه الله – سنة (١٣٩٣هـ). ينظر: الأعلام، الزركلي، ١٧٤/٦؛ وتراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ، ٣٠٤/٣.

(٧) ذكر هذا القول السيوطي وغيره، لكن الأحاديث الصحيحة التي تذكر أنَّ أول ما نزل صدر سورة العلق تردُّ هذا القول. ينظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ٩٤/١؛ تفسير الفاتحة، ابن رجب، ص١٨.

نزلت عند فرض الصلاة، فقرأ المسلمون بها في الصلاة عند فرضها، وقد عدت في رواية عن جابر بن زيد[1] السورة الخامسة في ترتيب النزول[2]»[3].

ومن خلال ما سبق يتضح أنَّ سورة الفاتحة نزلت في بداية الدعوة في عهدها المكي، هذا العهد الذي امتلأ بالصعوبات والمشاق التي تعرض لها الرسول ﷺ وأتباعه في سبيل الدعوة، ولم يكن النبي ﷺ قد نزل عليه كثير من القرآن.

نزل جبريل عليه السلام في هذه الفترة بهذه السورة الكريمة المشتملة على المنهج الأكمل رغم قصرها ووجازتها؛ حيث اشتملت على مقاصد القرآن العظيم، ففيها التوحيد، وفيها الثناء على الله وتقرير ربوبيته العامة، وفيها العبادة لله والاستعانة به، وفيها إشارة إلى اليوم الآخر، وإشارة إلى الأمم على اختلافها من مهتدين ومغضوب عليهم وضالين، وفيها إشارة إلى ملكوت الله وما فيه من عوالم، وفيها من أجل ذلك كله براعة استهلال رائعة للقرآن وعنوانًا لمواضيعه، ولعلَّ هذا من حكمة جعلها في ترتيب المصحف فاتحة القرآن، وفي الصلاة مفتتح التلاوة وتكرارها في كل ركعة، ولعل في كل هذا تدعيمًا لأولية نزولها سورة تامة، لا سيما أنَّ ما فيها هو تعليم وتلقين عامان مما يصح أن يكون طابع الآيات والسور التي هي من أوائل ما نزل على الرسول ﷺ في العهد المكي[4].

---

(١) أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي البصري، أحد أعلام التابعين، روى عن ابن عباس وابن عمر وغيرهم من الصحابة ﷺ، وروى عنه قتادة وأيوب وعمرو بن دينار وغيرهم، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، توفي – رحمه الله – سنة (٩٣هـ). ينظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي، ٥٨/١؛ وتهذيب التهذيب، ابن حجر، ٣٨/٢.

(٢) ساق السيوطي رحمه الله رواية جابر بن زيد رحمه الله في ترتيب النزول وقال عقبها: «قلت: هذا سياق غريب، وفي هذا الترتيب نظر». الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ٩٧/١.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٣٥/١.

(٤) ينظر: التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، ٢٩٠/١.

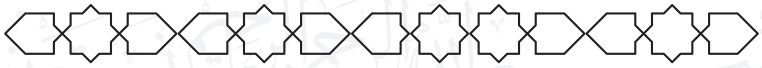

الباب الأول

١ مقدمات تفسيرية لدراسة هدايات السورة ١

ويتكون من فصلين:

الفصل الثاني:
مقاصد السورة ومعانيها العامة

- **المبحث الأول:** مقاصد السورة العامة.
- **المبحث الثاني:** معاني مفردات السورة.
- **المبحث الثالث:** المعنى الإجمالي للسورة.

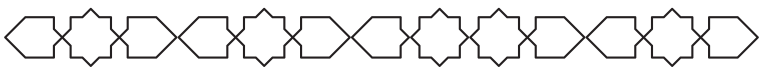

تمهيد

سورة الفاتحة سبع آيات، لا خلاف في ذلك بين القراء والمفسرين[(١)]، وإنما اختلفوا في الآية التي صارت بها سبع آيات، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنما اختلفوا في البسملة: هل هي آية مستقلة من أولها كما هو عند جمهور قراء الكوفة وقول الجماعة من الصحابة والتابعين وخلق من الخلف؟ أو بعض آية؟ أو لا تعد من أولها بالكلية، كما هو قول أهل المدينة من القراء والفقهاء؟»[(٢)]، والذين لم يعدوا البسملة آية من أولها عدوا قول الله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾ آية[(٣)].

والراجح – والله أعلم – الجمع بين ما سبق بصحة القولين كليهما[(٤)]؛ فالبسملة آية من الفاتحة في بعض القراءات الصحيحة المتواترة، وفي بعضها ليست آية[(٥)].

---

(١) نقل الاتفاق على ذلك كثير من المفسرين، وذكر بعضهم أقوالًا أخرى في عدِّ آيات السورة، وهي: ست آيات، ثمان آيات، تسع آيات، ووُصفت هذه الأقوال بالشذوذ. ينظر: جامع البيان، الطبري، ١٠٩/١؛ والمحرر الوجيز، ابن عطية، ٦٠/١؛ ومفاتيح الغيب، الرازي، ١٧٥/١؛ والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١١٤/١؛ والبحر المحيط، أبو حيان، ١٥٣/١؛ وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٠١/١؛ وفتح القدير، الشوكاني، ١٨/١؛ والتحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٣٥/١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٠١/١.

(٣) الخلاف في هذه المسألة طويل وقديم، وقد أُلِّفت في ذلك المؤلفات؛ وسأقتصر هنا على القول الذي يظهر لي أنه الراجح، والمقام ليس مقام ذكر الأقوال وبسط الأدلة والخلاف.

(٤) قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد كان كثير من السلف يقول: البسملة آية منها ويقرؤها، وكثير من السلف لا يجعلها منها، ويجعل الآية السابعة ﴿أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾، كما دل على ذلك حديث أبي هريرة الصحيح، **وكلا القولين حق**، فهي منها من وجه، وليست منها من وجه، والفاتحة سبع آيات». مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ٣٥١/٢٢.

(٥) القول بأنها ليست آية من الفاتحة مروي عن نافع المدني. ينظر: جمال القراء وكمال الإقراء، السخاوي، ص٥٨١؛ وقال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقال عُظْمُ أهل الكوفة: صارت سبع آيات بـ ﴿بِسمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ورُوي ذلك عن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين، وقال آخرون: هي سبع آيات، وليس منهن ﴿بِسمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ولكن السابعة ﴿أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾، وذلك قول عُظْم قَرَأَةِ أهل المدينة ومُتْقنيهم». جامع البيان، الطبري، ١٠٩/١.

ولا غرابة في هذا، ففي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الحديد: ٢٤] لفظة ﴿هُوَ﴾ من القرآن على إحدى القراءات المتواترة، وليست من القرآن على القراءة المتواترة أيضًا[١]، وبعض المصاحف فيه لفظة ﴿هُوَ﴾، وبعضها ليست فيه، ومثل ذلك الواو في قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ [البقرة: ١١٦][٢]، وقول الله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٣٣][٣]، وعلى هذا فلا إشكال في كون البسملة آية في بعض الحروف دون بعض، وبذلك تتفق أقوال العلماء[٤].

(١) قرأ المدنيان (نافع وأبو جعفر) وابن عامر بغير ﴿هُوَ﴾، وكذلك هو في مصاحف المدينة والشام، وقرأ الباقون بزيادة هو، وكذلك في مصاحفهم. ينظر: التيسير في القراءات السبع، الداني، ص٢٠٨؛ والنشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ٣٨٤/٢.

(٢) قرأ ابن عامر بغير واو، وكذا هو في المصحف الشامي، وقرأ الباقون ﴿وَقَالُواْ﴾ بالواو كما هو في مصاحفهم. ينظر: التيسير في القراءات السبع، الداني، ص٧٦؛ والنشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ٢٢٠/٢.

(٣) قرأ المدنيان (نافع وأبو جعفر) وابن عامر بغير واو قبل السين، وكذلك هي في مصاحف المدينة والشام، وقرأ الباقون بالواو، وكذلك هي في مصاحفهم. ينظر: التيسير في القراءات السبع، الداني، ص٩٠؛ والنشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ٢٤٢/٢.

(٤) ينظر: مذكرة أصول الفقه، الشنقيطي، ص٦٦، ٦٧.

مقاصد السورة العامة

مدخـل

المقاصد: جمع مقصد، من (قصد)، وأصل هذه المادة التوجه والنهوض نحو الشيء[١]، ومقصد الكلام مضمونه ومدلوله[٢].

وبناء على ما سبق يمكن أن يُعرَّف مقصد السورة بأنه: مغزى السورة الذي ترجع إليه معانيها ومضمونها[٣].

قال البقاعي رَحِمَهُ اللَّهُ[٤] في تعريف علم المقاصد: «علم يعرف منه مقاصد السور، وموضوعه آيات السور، كل سورة على حيالها»[٥].

وقد برز الاعتناء بهذا العلم في عصرنا، ويوجد من العلماء السابقين من أشار إليه، وكتب فيه، ويُعدّ البقاعي رَحِمَهُ اللَّهُ من أوائل من كتب وأصَّل لعلم (مقاصد السور)، وذلك في كتابه: (مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور).

وعلم مقاصد السور من علوم القرآن المهمة، وهو راجع إلى تحقيق المقصد من إنزال هذا القرآن كله، وهو التدبر والهداية، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، فالله تعالى أمرنا بالتدبر، وليس المقصود بالتدبر هو النظر في عباراته وألفاظه دون النظر لمقاصده وما تهدي إليه سوره وآياته من الهدايات والدلالات التي بها يتحقق الفهم والعمل، ومن هنا تتبين أهمية علم المقاصد؛ إذ إنه يركز

---

(١) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣/٣٥٥.

(٢) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، ٢/١٦١٧.

(٣) ينظر: علم مقاصد السور، د. محمد الربيعة، ص٧.

(٤) أبو الحسن برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي، مؤرخ أديب محدث مفسر، له تصانيف عديدة، منها: (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، و(مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور)، توفي – رحمه الله – سنة (٨٨٥هـ). ينظر: شذرات الذهب ، ابن العماد، ٩/٥٠٩؛ والأعلام، الزركلي، ١/٥٦.

(٥) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي، ١/١٥٥.

على معرفة مراد الله تعالى من كلامه بالنظر إلى مجمل السورة وبيان مجمع معانيها، كما أنه يعين على فهم كتاب الله تعالى فهمًا صحيحًا، ويساعد على التبحر في دلالاته وهداياته ودقائق معانيه[1].

(١) ينظر: علم مقاصد السور، د. محمد الربيعة، ص١١.

المقاصد العامة لسورة الفاتحة

سورة الفاتحة سميت على لسان رسول الله ﷺ أمّ القرآن، وأمّ الكتاب[١]، واختيرت هذه السورة لتكرارها في كل صلاة، بل في كل ركعة؛ وما ذاك إلا لأنَّها أَجملت كلَّ ما في القرآن الكريم وجمعت مقاصده؛ فهي «مشتملةٌ على مجمل ما في القرآن، وكلُّ ما فيه تفصيلٌ للأصول التي وضعت فيها»[٢].

وهي واقعة في مطلع التنزيل، والبلاغة في ذلك أن تتضمن ما سيق الكلام لأجله؛ ولذا فإنها بنيت على إجمال ما يحويه القرآن مفصَّلًا[٣].

وهذه السورة العظيمة فيها من كليات العقيدة الإسلامية، وكليات التصور الإسلامي، وكليات المشاعر والتوجهات ما يشير إلى طرف من حكمة اختيارها للتكرار في كل ركعة، وحكمة بطلان كل صلاة لا تذكر فيها[٤].

وقد تكلم العلماء حول مقاصد سورة الفاتحة، فمن ذلك قول البقاعي رحمه الله: «فالغرض الذي سيقت له الفاتحة، وهو إثبات استحقاق الله تعالى لجميع المحامد وصفات الكمال، واختصاصه بملك الدنيا والآخرة، وباستحقاق العبادة والاستعانة، بالسؤال في المنّ بإلزام صراط الفائزين والإنقاذ من طريق الهالكين مختصًّا بذلك كله، **ومدار ذلك كله مراقبة العباد لربهم لإفراده بالعبادة، فهو مقصود الفاتحة بالذات، وغيره وسائل إليه**»[٥].

وقال السيوطي رحمه الله[٦]: «قال بعض الأئمة: وسورة الفاتحة تضمنت الإقرار بالرّبوبية، والالتجاء إليه في دين الإسلام، والصيانة عن دين اليهودية والنصرانية»[٧].

---

(١) صحت بذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ، وقد سبق بيان ذلك في مبحث اسم السورة.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ١/٣٠.

(٣) ينظر: حاشية الطيبي على الكشاف، ١/٧١٨؛ وتناسق الدرر في تناسب السور، السيوطي، ص٦٢.

(٤) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/٢١.

(٥) نظم الدرر، البقاعي، ١/٢٠.

(٦) أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيري السيوطي، جلال الدين، إمام حافظ مؤرخ أديب، له نحو (٦٠٠) مصنف، من أشهرها (الإتقان في علوم القرآن)، و(الدر المنثور في التفسير بالمأثور)، توفي – رحمه الله – سنة (٩١١هـ). ينظر: البدر الطالع، الشوكاني، ١/٣٢٨؛ والأعلام، الزركلي، ٣/٣٠١.

(٧) معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي، ١/٥٣.

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «تشتمل محتوياتها على أنواع مقاصد القرآن، وهي ثلاثة أنواع: الثناء على الله ثناء جامعًا لوصفه بجميع المحامد وتنزيهه عن جميع النقائص، ولإثبات تفرده بالإلهية وإثبات البعث والجزاء، وذلك من قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، والأوامر والنواهي من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، والوعد والوعيد من قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ﴾ إلى آخرها، فهذه هي أنواع مقاصد القرآن كله، وغيرها تكملات لها لأنَّ القصد من القرآن إبلاغ مقاصده الأصلية وهي صلاح الدارين وذلك يحصل بالأوامر والنواهي، ولما توقفت الأوامر والنواهي على معرفة الآمر، وأنه الله الواجب وجوده خالق الخلق لزم تحقيق معنى الصفات، ولما توقف تمام الامتثال على الرجاء في الثواب والخوف من العقاب لزم تحقق الوعد والوعيد.

والفاتحة مشتملة على هاته الأنواع فإنَّ قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ حمد وثناء، وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ من نوع الأوامر والنواهي، وقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ﴾ إلى آخرها من نوع الوعد والوعيد، مع أن ذكر المغضوب عليهم والضالين يشير أيضا إلى نوع قصص القرآن»[1].

ولعلَّ الأظهر في بيان المقصد الرئيس لهذه السورة المباركة أنه (تحقيق العبودية الخالصة لله تعالى).

وهذه العبودية لله تعالى ما خلق الله الخلق إلا لأجل تحقيقها، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ومن أجلها كذلك أرسل الله الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ومن أجلها أنزل الكتب، قال الله تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ١ - ٢][2].

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٣٣.

(٢) ينظر: دراسات في هدايات سورة الفاتحة، د. طه عابدين، ص٤٨.

بل إنَّ سورة الفاتحة مشتملة على مقاصد الكتب السماوية كلها، فما أرسل الله الرسل وما أنزل الكتب إلا لدعائه الخلق إلى معرفته وتوحيده، وعبادته ومحبته والقرب منه والإنابة إليه، وهذا هو مقصود الرسالة ولبها وقطب رحاها الذي تدور عليه، وما وراء ذلك فإنها مكملات ومتممات ولواحق[١].

والفاتحة بجملتها تنفخ روح العبادة في المتدبر لها، وروح العبادة هي إشراب القلوب خشية الله وهيبته، والرجاء لفضله[٢]؛ فمن أراد السعادة الأبدية، فليلزم عتبة العبودية[٣].

ويمكن أن يُفصَّل المقصد الرئيس لهذه السورة – تحقيق العبودية الخالصة لله تعالى – في ثلاثة محاور أو موضوعات أساسية، هي:

الأول: التعريف بالمعبود الحق جلَّ جلاله[٤]، وذلك بالثناء عليه سبحانه وتعالى ثناءً جامعًا لوصفه بجميع المحامد وتنزيهه عن جميع النقائص[٥].

في قول الله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ثناءٌ على المعبود سبحانه وتعالى، وتعريفٌ به بأسمائه وصفاته وأفعاله، وقد جمعت مقدمة هذه السورة خلاصة التوحيد والعقيدة، ووصف فيها الاسم الجليل بأوصاف عظيمة.

وهي شاملة لكل معنى تضمنته الأسماء الحسنى والصفات العلى؛ فكلُّ ما في القرآن من ذلك مفصَّلٌ من جوامعها[٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أنَّ هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال، وتضمنتها أكمل تضمن، فاشتملت على التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة

---

(١) ينظر: تفسير الفاتحة، ابن رجب، ص٤٢.

(٢) ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٣١/١.

(٣) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٤٢٩/١.

(٤) ينظر: دراسات في هدايات سورة الفاتحة، د. طه عابدين، ص٥١.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٣٣/١.

(٦) ينظر: نظم الدرر، البقاعي، ٥٢/١.

أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها، وهي: الله، والرب، والرحمن، وبنيت السورة على الإلهية، والربوبية، والرحمة، فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مبني على الإلهية، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على الربوبية، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة، والحمد يتضمن الأمور الثلاثة، فهو المحمود في إلهيته، وربوبيته، ورحمته، والثناء والمجد كمالان لجدّه.

وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، حسنها وسيئها، وتفرد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكون حكمه بالعدل، وكل هذا تحت قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾»[1].

الثاني: التعريف بطريق العبودية.

قولُ الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يرسم طريق العبودية القائم على إخلاص العبادة لله وحده، والاستعانة به في عبوديته وسائر الأحوال، والاستقامة على نهجه القويم[2].

وقول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تعريفٌ بالطريق إلى الخالق جلَّ وعلا، وذلك لا يكون إلا بعبادته، وعبادته لا تكون إلا بشرعه.

والعبادة ذُكرت في مقام التوحيد بقول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ومن تمام إيضاحها قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فهو سبحانه وتعالى قد وضع لنا صراطًا بيَّنه وحدَّده، وتكون السعادة في الاستقامة عليه، والشقاوة في الانحراف عنه، والاستقامة عليه هي روح العبادة[3].

---

(١) مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٣١.

(٢) ينظر: دراسات في هدايات سورة الفاتحة، د. طه عابدين، ص٥٥.

(٣) ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ١/٣١.

الثالث: مواقف الناس من تحقيق العبودية لله تعالى.

في قول الله تعالى ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ بيان لانقسام الناس تجاه تحقيق العبودية الخالصة لله تعالى القائمة على معرفة الحق والعمل به.

قال الله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾: «وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله، وإلى جنته، وهو معرفة الحق والعمل به»[(١)]، ولن يصل العبد إلى ذلك إلا بتحقيق العبودية الخالصة لله تعالى[(٢)]؛ ولهذا قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾ [يس: ٦١]، وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾ [الزخرف: ٦٤].

ثم في قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ تقسيم للناس إلى ثلاثة أقسام: منعمٍ عليهم، ومغضوبٍ عليهم، وضالين، وهذا الانقسام ضروري بحسب انقسامهم في معرفة الحق والعمل به إلى عالم به، عامل بموجبه، وهم أهل النعمة، وعالم به معاند له، وهم أهل الغضب، وجاهل به وهم الضالون[(٣)].

وبناء على هذا التقسيم يدخل هنا الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد؛ لأنَّ صفة الإنعام تقتضي ترتب الوعد، وصفتي الغضب والضلال تقتضيان ترتب الوعيد عليهما، ويدخل كذلك الإخبار عن الناجين والهالكين وأحوالهم وما أدى إليه حاصل أعمالهم في الدنيا والآخرة، وهذا يشمل كل قصص القرآن الكريم[(٤)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٩.

(٢) والعبودية معنى جامع لكل الدين، وهذه العبودية تقتضيها العبادة المدلول عليها بقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، والعبادة: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة». مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ١٤٩/١٠.

(٣) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٩١/١، ٩٢.

(٤) ينظر: إيضاح البيان عن معنى أم القرآن، الطوفي، ص١٨، ١٩؛ ودراسات في هدايات سورة الفاتحة، د. طه عابدين، ص٥٨.

المبحث الثاني :

معاني مفردات السورة

• ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾: أصل الكلمة (سمو)، ويدل على العُلو، يقال سَمَوت، إذا علوت، وسما بصره: علا[1]، والاسم: ما يعرف به ذات الشيء، وأصله من السُّمُوّ، وهو الذي به رفع ذكر الْمُسَمَّى فيعرف به[2].

ولفظ الجلالة ﴿الله﴾: عَلَمٌ على المعبود بحق سبحانه وتعالى، وهو اسم مرتجل غير مشتق عند الأكثرين[3]، وقيل: أصله (إله) فحذفت همزته، وأدخل عليها الألف واللام، فخص بالباري تعالى، ولتخصصه به قال تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥]، وإله جعلوه اسمًا لكل معبود لهم، وكذا اللات، وسمّوا الشمس إِلَاهَة لاتخاذهم إياها معبودًا، وأَلَهَ فلان يَأْلُهُ الآلهة: عبد، ويقال: تَأَلَّهَ بمعنى تعبَّد، فالإله على هذا هو المعبود[4].

و﴿الله﴾ سبحانه وتعالى «اسمٌ للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي، لا إله إلا هو سبحانه»[5].

• ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: وصفان مشتقان من (رَحِمَ)، والرحمة: مأخوذة من الرحم؛ وذلك لأنَّ الرحم منعطفة على ما فيها، و(الرحمن) أبلغ من (الرحيم)؛ ولذلك قيل: رحمن الدنيا ورحيم الآخرة؛ لأنه في الدنيا يرحم المؤمن والكافر لإنعامه بالرزق والإفضال عليهم مؤمنهم وكافرهم، وفي الآخرة رحمته مختصة بالمؤمنين، و(الرحمن) مختص بالله تعالى، وأما (رحيم) فيطلق على غيره، قال تعالى في صفة نبيه ﷺ: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨][6].

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٩٨/٣.

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب، ص٤٢٨.

(٣) ينظر: البحر المحيط، أبو حيان، ١٢٤/١.

(٤) ينظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب، ص٨٢.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠٢/١.

(٦) ينظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٨١/٢.

• ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾: مأخوذ من (حَمِدَ)، والحمد: نقيض الذم، تقول: حَمِدت الرجل أحمَدُه حمدًا ومَحْمَدة، فهو حَمِيد ومحمود، والحمد أعم من الشكر[1]، ويقال: رجل محمود ومحمَّد، إذا كثرت خصاله المحمودة غير المذمومة[2].

والحمدُ لله: الثناء عليه بجميل الأوصاف، ولا يكون إلا باللسان، سواء على نعمة مسداة، أم على صفة في المحمود قاصرة عليه، بخلاف الشكر؛ فإنه لا يكون إلا على نعمة مسداة، ويكون باللسان والجوارح والجنان[3][4].

• ﴿رَبِّ﴾: الرب: المالك، والخالق، والصاحب، والمصلح للشيء، والله جل ثناؤه الرب؛ لأنه مصلح أحوال خلقه[5]، والرب: السيد المطاع، قال تعالى: ﴿فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗا﴾ [يوسف: ٤١][6]، والرب بمعنى التربية، وهو إنشاء الشيء حالًا فحالًا إلى حد التمام، ولا يقال (الرب) مطلقًا إلا لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات[7].

والأظهر أنه هنا بمعنى التربية، وهي تبليغ الشيء إلى كماله تدريجًا، وأنه مشتق من ربَّه بمعنى رباه وساسه، لا من ربَّه بمعنى ملكه؛ لأنَّ الأول الأنسب بالمقام هنا؛ إذ المراد أنه مدبر الخلائق وسائس أمورها ومبلغها غاية كمالها، ولأنه لو حمل على معنى المالك لكان

---

(١) ينظر: الصحاح، الجوهري، ٤٦٦/٢.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١٠٠/٢.

(٣) ينظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤٥٠/١.

(٤) وقيل: بين الحمد والشكر عموم وخصوص من وجه؛ فالحمد هو الثناء على الجميل، سواء كان نعمة مسداة إلى أحد أم لا، يقال: حمدت الرجل على ما أنعم به علي، وحمدته على شجاعته، ويكون باللسان وحده دون عمل الجوارح، إذ لا يقال: حمدت زيدًا، أي: عملت له بيدي عملًا حسنًا، بخلاف الشكر فإنه لا يكون إلا على نعمة مسداة إلى الغير، يقال: شكرته على ما أعطاني، ولا يقال: شكرته على شجاعته، ويكون بالقلب واللسان والجوارح، قال الله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: ١٣]، وقيل: الحمد هو الشكر. ينظر: الدر المصون في علم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، ٣٦/١.

(٥) ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣٨١/٢.

(٦) ينظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ١٢٨/١٥.

(٧) ينظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب، ص٣٣٦.

قول الله تعالى بعد ذلك: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ كالتأكيد، والتأكيد خلاف الأصل، ولا داعي إليه هنا[١].

● ﴿ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾: جمع عالَم، وهو جمع لا واحد له من لفظه، وهو كل ما خلق الله تعالى[٢]، وهو على هذا مشتق من (العلامة)، بمعنى أن كل موجود دال على صانعه وموجده، فتطلق على العاقل وغيره من حيوان وجماد، وقيل إنه مشتق من (العِلم) فلا يطلق إلا على ذوي العلم، والأول هو المشهور[٣].

والمراد من ﴿ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ هنا كلُّ موجود سوى الله سبحانه وتعالى، يقال لجملته عالَم، ولأجزائه من الإنس والجن وغير ذلك عالَم، وبحسب ذلك يجمع على ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٤].

● ﴿ مَٰلِكِ ﴾: أصل مادة (ملك) يرجع إلى قوة في الشيء[٥]، و﴿ مَٰلِكِ ﴾ من المِلْك – بكسر الميم – ما ملكت اليد من مال وغيره[٦]، و﴿مَلِكِ﴾: من المُلْك – بضم الميم – وهو التصرف بالأمر والنهي في الجمهور[٧]؛ فالفرق بينهما من حيث اللغة أنَّ المُلْك هو السلطان والقدرة، والمِلْك ما حوته اليد[٨].

والقراءتان في الآية ثابتتان صحيحتان[٩]، والحجة لمن أثبت الألف أنَّ الملك داخل تحت المالك، والدّليل له قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ ﴾ [آل عمران: ٢٦]، والحجة لمن

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٦٦/١.

(٢) ينظر: معاني القرآن، الزجاج، ٤٦/١.

(٣) ينظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ١١٤/٣.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٦٧/١.

(٥) ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣٥١/٥.

(٦) ينظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ١٤٩/١٠.

(٧) ينظر: المفردات، الراغب، ص٧٧٤.

(٨) ينظر: معاني القرآن، الزجاج، ٣٧١/٣.

(٩) قرأ عاصم والكسائي ويعقوب وخلف: ﴿ مَٰلِكِ ﴾ بالألف، وقرأ الباقون: ﴿مَلِكِ﴾ بدون ألف. ينظر: التيسير التيسير في القراءات السبع، الداني، ص١٨؛ والنشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ٢٧١/١.

طرحها أنَّ الملك أخص من المالك وأمدح؛ لأنه قد يكون المالك غير ملك، ولا يكون الملك إلا مالكًا[1].

ومعنى القراءتين ثابت لله جلَّ في علاه؛ والإضافة إلى ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ تفيد استواء القراءتين في إفادة أنه سبحانه وتعالى المتصرف في شؤون ذلك اليوم دون شبهة مشارك[2]، والجمع بين القراءتين يفيد أنَّ ملكه جلّ وعلا ملك حقيقي؛ لأن مِن الخلق مَن يكون ملكًا، ولكن ليس بمالك، يسمى ملكًا اسمًا وليس له من التدبير شيء، ومِن الناس مَن يكون مالكًا، ولا يكون ملكًا كعامة الناس، ولكن الرب عزّ وجلّ مالكٌ ملِك[3].

● ﴿ٱلدِّينِ﴾: (دين) أصل واحد إليه ترجع فروع كثيرة، وهو جنس من الانقياد، والذُّل، فالدِّين: الطاعة، يقال دان له يدين دينًا، إذا انقاد وطاع، والمدِينة سميت بذلك لأنها تقام فيها طاعة ذوي الأمر، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦]، أي: في طاعته، وقيل: في حكمه، ومنه: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، أي يوم الحكم، وقيل: الحساب والجزاء، وأي ذلك كان فهو أمر ينقاد له، ومن هذا الباب الدَّين؛ لأن فيه كلّ الذُّل، يقال: داينت فلانًا، إذا عاملته دينًا[4].

والدِّينُ استعير للشريعة كلها، والدِّينُ كالملّة، لكنّه يقال اعتبارًا بالطاعة والانقياد للشريعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩][5].

والمراد من ﴿ٱلدِّينِ﴾ هنا الجزاء والحساب[6].

---

(١) ينظر: الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه، ص٦٢.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٧٥.

(٣) ينظر: تفسير القرآن الكريم (الفاتحة – البقرة)، ابن عثيمين، ١/١٢.

(٤) ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/٣١٩، ٣٢٠.

(٥) ينظر: المفردات، الراغب، ص٣٢٣.

(٦) ينظر: غريب القرآن، ابن قتيبة، ص٣٨؛ وجامع البيان، الطبري، ١/١٥٥؛ وقيل الدين هنا بمعنى الطاعة. ينظر: معالم التنزيل، البغوي، ١/٥٣؛ وأنوار التنزيل، البيضاوي، ١/٢٨، والأقرب – والله أعلم – أنه بمعنى الحساب والجزاء.

● ﴿ نَعۡبُدُ ﴾: العبادة: الطاعة مع تذلل وخضوع، يقال هذا طريق معبَّد إذا كان مذللًا بكثرة الوطء[1]، ويقال: بعير مُعَبَّدٌ: مذلّل بالقطران، وعَبَّدتُ فلانًا: إذا ذلّلته، وإذا اتّخذته عَبْدًا، قال تعالى: ﴿أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢]، والعُبُودِيَّةُ: إظهار التّذلّل، والعِبَادَةُ أبلغُ منها، لأنها غاية التّذلّل، ولا يستحقّها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى، ولهذا قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

والعَبْدُ يقع على أنواع: الأوّل: عَبْدٌ بحكم الشّرع، وهو الإنسان الذي يصحّ بيعه وابتياعه، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا﴾ [النحل: ٧٥]، والثاني: عَبْدٌ بالإيجاد، وذلك ليس إلّا لله، وإيّاه قصد بقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣]، والثالث: عَبْدٌ بالعِبَادَةِ والخدمة، ومِن الناس مَن هو مخلص لله فيها، وهو مذكور في كثير من الآيات كقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، ومِن الناس مَن هو عَبْدٌ للدّنيا وأعراضها، وهو المعتكف على خدمتها ومراعاتها[2].

والمعنى المراد هنا: لك اللهم نخشع ونذل ونستكين، إقرارًا لك يا ربنا بالربوبية لا لغيرك[3]، والعبادة: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف[4]، وهي أقصى غاية الخضوع والتذلل؛ ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى لأنه مُولي أعظم النعم؛ فكان حقيقًا بأقصى الخضوع سبحانه وتعالى[5].

● ﴿ نَسۡتَعِينُ ﴾: الْعَوْنُ: المُعَاوَنَةُ والمظاهرة، يقال: فلان عَوْنِي، أي: مُعِينِي، وقد أَعَنْتُهُ، قال تعالى: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف: ٩٥]، والاستِعَانَةُ: طلب العَوْنِ، قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥][6].

---

(١) ينظر: معاني القرآن، النحاس، ١/٦٤.

(٢) ينظر: المفردات، الراغب، ص٥٤٢، ٥٤٣.

(٣) ينظر: جامع البيان، الطبري، ١/١٥٧؛ والهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، ١/١٠٧.

(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/١٣٤.

(٥) ينظر: الكشاف، الزمخشري، ١/١٣.

(٦) ينظر: المفردات، الراغب، ص٥٩٨.

والمعنى هنا: وإياك ربنا نستعين على عبادتنا إياك، وطاعتنا لك، وفي أمورنا كلها لا أحدًا سواك[1].

● ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾: أصله: (هدى)[2]، والهُدى بضم الهاء وفتح الدال: الرشاد، والدلالة، يذكر ويؤنث، يقال: هداه هُدى، وهَديًا وهِداية، وهِدية: أرشده، وهناك وجوه أخرى لمعنى الهُدى، كالدلالة والبيان والتعريف بالشيء، وعند التأمل فيها يلاحظ أنها ترجع لمعنى الإرشاد[3].

والمراد بالهداية هنا الدلالة والإرشاد، ويجوز أن يراد بها هنا التوفيق والتثبيت[4].

● ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ﴾: أصل الكلمة (سرط) بالسين، والسِّراط هو الطريق المسلوك، وقيل: هو الطريق المستسهل، واشتقاقه من سرط الطعام واسترطه أي ابتلعه، فسمي الطريق سراطًا إما لأنهم تصوروا منه أن يبتلع سالكيه، أو أنهم يبتلعونه، ويجمع على سُرُط في الكثرة، وأسرطة في القلة، ويذكر ويؤنث كالسبيل، وتبديل سينه صادًا لأجل الطاء، وزايًا لمقاربتها، وبين الصاد والزاي[5][6].

---

(١) ينظر: جامع البيان، الطبري، ١/١٦١؛ ومعالم التنزيل، البغوي، ١/٥٤.

(٢) سبق تعريف لفظ الهدى بتوسع في المبحث الأول من مباحث التمهيد، وسيُشار هنا إلى شيء من ذلك.

(٣) ينظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/٣١٢.

(٤) ينظر: جامع البيان، الطبري، ١/١٦٦؛ والبحر المحيط، أبو حيان، ١/١٤٦.

(٥) ﴿ٱلصِّرَٰطَ ﴾: تقرأ بالصاد والسّين وإشمام الزّاي؛ فقد قرأ قنبل عن ابن كثير، ورويس عن يعقوب بالسين بدل بدل الصاد، وقرأ خلف وخلاد عن حمزة بإشمام الصاد الزاي، وقرأ الباقون بالصاد. ينظر: التيسير في القراءات السبع، الداني، ص١٨، ١٩؛ والنشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ١/٢٧١، ٢٧٢.

والحجة لمن قرأ بالسّين: أنه جاء به على أصل الكلمة، والحجة لمن قرأ بالصّاد: أنه أبدلها من السّين لتؤاخي السّين في الهمس والصّفير، وتؤاخي الطاء في الإطباق؛ لأن السين مهموسة والطاء مجهورة، والحجة لمن أشمّ الزّاي: أنها تؤاخي السّين في الصفير، وتؤاخي الطّاء في الجهر. ينظر: الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه، ص٦٢.

(٦) ينظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٢/١٩١، ١٩٢.

وأصل الصراط الطريق المحسوس الذي يُمشى، ثم استعير للطريق التي يكون الإنسان عليها من الخير والشر[1]، والمراد هنا الدين الحق، وهو دين الإسلام؛ ولذا جاء وصفه بالمستقيم.

● ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: مادة الكلمة (قوم)، ولها أصلان صحيحان، يدل أحدهما على جماعة ناس، والآخر على انتصاب أو عزم، فمن الأول: القوم، يقولون: جمع امرئ، ولا يكون ذلك إلا للرجال قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾، ثم قال: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [الحجرات: ١١].

وأما الآخر فقولهم: قام قيامًا، والقَومة المرة الواحدة، إذا انتصب، ويكون قام بمعنى العزيمة، كما يقال: قام بهذا الأمر، إذا اعتنقه، ومن الباب: قومت الشيء تقويمًا[2].

ومن ذلك الاستقامة: الاعتدال، يقال: استقام له الأمر، وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٦] أي: في التوجُّه إليه دون الآلهة، وقوَّمت الشئ فهو قَويمٌ، أي مُستَقيمٌ، والقَوامُ: العَدْلُ، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقِوام الأمر: نظامه وعِماده، يقال: فلانٌ قِوامُ أهل بيته وقِيامُ أهل بيته[3]، ونقيض الاستقامة الاعوجاج، وطريق مستقيم: لا اعوجاج فيه[4].

وجاء عن السلف في المقصود هنا بالصراط المستقيم أكثرُ من تفسير، وهي قريبة من بعض، من ذلك أنه فُسِّر بالقرآن، وبالإسلام، وبدين الله، وبالحق، وبالرسول ﷺ وصاحبيه من بعده أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، «وكلُّ هذه الأقوال صحيحة، وهي متلازمة، فإنَّ من اتبع النبي ﷺ واقتدى باللذين من بعده أبي بكر وعمر فقد اتبع الحق، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن، وهو كتاب الله وحبله المتين، وصراطه المستقيم، فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضًا، ولله الحمد»[5].

---

(١) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ٦٦/١.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤٣/٥.

(٣) ينظر: الصحاح، الجوهري، ٢٠١٧/٥.

(٤) ينظر: الفروق اللغوية، العسكري، ص١٥٦.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٣٩/١.

● ﴿أَنْعَمْتَ﴾: أصل الكلمة (نعم)، وفروعه كثيرة، وهي على كثرتها راجعة إلى أصل واحد يدل على ترفه وطيب عيش وصلاح، ومنه النِّعْمة: ما ينعم الله تعالى على عبده به من مال وعيش، يقال: لله تعالى عليه نعمة، والنَّعْمة: المنة، وكذا النَّعماء، والنِّعمة: التنعم وطيب العيش، قال الله تعالى: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ [الدخان: ٢٧]، والنَّعَمُ: الإبل، لما فيه من الخير والنعمة، والأنعام: البهائم، وهو ذلك القياس، والنَّعامة معروفة، لنعمة ريشها، ومن الباب قولهم: نَعَمْ، جواب الواجب، ضد لا، وهي أيضا من النّعمة(١).

والمرادُ من النعمة هنا النعمةُ التي لم يشبها ما يكدرها، ولا تكون عاقبتها سوأى، فهي شاملة لخيرات الدنيا الخالصة من العواقب السيئة، ولخيرات الآخرة، وهي الأهم؛ فيشمل النعم الدنيوية والنعم الأخروية(٢).

والأظهر أنَّ المنعَم عليهم هم المذكورون في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩](٣).

● ﴿الْمَغْضُوبِ﴾: أصل معنى الغضب الشدة والقوة، ويقال: إن الْغَضْبَةَ: الصخرة الصلبة، قالوا: ومنه اشتق الْغَضَبُ، لأنه اشتداد السخط، يقال: غَضِبَ يَغْضَبُ غَضَبًا، وهو غَضْبَانُ وَغَضُوبٌ(٤).

والغضب في الأصل: ثوران دم القلب إرادة الانتقام، وقد وُصف الله تعالى بالغضب في القرآن، كقوله تعالى: ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [المجادلة: ١٤]، ومعنى إسناد الغضب لله تعالى الانتقام والعقاب(٥).

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤٤٦/٥، ٤٤٧.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٩٣/١.

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١٨/١.

(٤) ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤٢٨/٤.

(٥) ينظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ١٦٥/٣.

وفاعل الغضب في قوله تعالى: ﴿ٱلْمَغْضُوبِ﴾ هو الله تعالى، وهو من باب الانتقام والعدل، ولكن جيء بصيغة المفعول تأدبًا[1]، والمراد هنا مَن غضب الله تعالى عليهم لكفرهم وإفسادهم في الأرض ومخالفتهم للحق عن عمد كاليهود[2].

● ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾: ضَلّ الشيء يَضِل ضَلالًا، أي ضاع وهلَك، والاسم الضُلُّ بالضم، والضَلالُ والضَلالَةَ: ضدُّ الرشاد، وقد ضَلَلْتُ أضِلُّ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ [سبأ: ٥٠]، وأَضَلَّهُ، أي: أَضاعَهُ وأهلكه، ويقال أُضِلَّ الميّتُ، إذا دفن، وضَلَلْت الدارَ، إذا لم تعرف موضعه، وكذلك كل شيء لا يُهْتَدى له[3].

والمراد من الضالين هنا الذين أخطأوا طريق الدين الحق عن سوء فهم؛ فعبدوا الله بما لم يشرعه كالنصارى[4].

(١) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٣٥؛ وبدائع الفوائد، ابن القيم، ٢/١٨.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٩٦.

(٣) ينظر: الصحاح، الجوهري، ٥/١٧٤٨، ١٧٤٩.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٩٦.

المبحث الثالث :

المعنى الإجمالي للسورة

افتتح الله تعالى كتابه الكريم بـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وهذا الافتتاح أدبٌ أدَّبَ الله تعالى به نبيه محمدًا ﷺ، وذلك بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله، ووصفه بها قبل جميع مهماته، وجعل ذلك لجميع خلقه سنة يستنون بها، وسبيلًا يتبعونه عليها(١).

وخُصَّ الاسم الجليل ﴿الله﴾ بتقديم ذكره في هذا الافتتاح العظيم؛ لأنه أصل أسمائه جميعًا، ولأنه جامعٌ لجميع معاني الأسماء الحسنى(٢)، وهذا الاسم لا يطلق إلا على الذات العلية المعبود بحق، ومنشئ الوجود على غير مثال سبق، بديع السماوات والأرض(٣).

ووُصف الاسم الجليل بصفتين ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وهما وصفان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمَّت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله، فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فلهم نصيب منها(٤)، وقد خصَّ الله تعالى برحمته المؤمنين في الدنيا والآخرة، بهدايتهم للإيمان دون من خذله من أهل الكفر به، وبما أعد لهم في الآخرة من النعيم والكرامة التي تقصر عنها الأماني، وهذا يفيده وصفه تعالى بـ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي يدلُّ على خصوص الرحمة لبعض خلقه، بعد وصفه بـ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي يدلُّ على عموم الرحمة جميع خلقه، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣](٥).

ووصفُه سبحانه وتعالى في البدء بـ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يستغرق كل معاني الرحمة، وهو المختص وحده باجتماع هاتين الصفتين، كما أنه المختص وحده بصفة ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾(٦).

---

(١) ينظر: جامع البيان، الطبري، ١/١١٤.
(٢) ينظر: نظم الدرر، البقاعي، ١/٦٢.
(٣) ينظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، ١/٥٠.
(٤) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٩.
(٥) ينظر: جامع البيان، الطبري، ١/١٢٨، ١٢٩.
(٦) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/٢١، ٢٢.

ثم ثنى الحق سبحانه وتعالى بحمده فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وهو الثناء على الله بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، فله الحمد الكامل، وجميع المحامد، بجميع الوجوه[1]، وذلك الوصف بالكمال مقرون بالمحبة، والتعظيم؛ لأنَّ مجرد وصفه بالكمال بدون محبة، ولا تعظيم: لا يسمى حمدًا، وإنما يسمى مدحًا[2].

ولما ذكر تعالى أحقيته بالحمد أجرى على ذاته العلية مجموعة من الصفات العظام، أولها وصفه بـ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فالله هو السيد المالك، وهو المتصرف للإصلاح والتربية، والتصرف للإصلاح والتربية يشمل العالمين – جميع الخلائق –، والله سبحانه لم يخلق الكون ثم يتركه هملًا، إنما هو يتصرف فيه بالإصلاح ويرعاه ويربيه، وكل العوالم والخلائق تُحفظ وتُتعهد برعاية الله رب العالمين[3]؛ فهو المربي لجميع العالمين، بخلقه إياهم، وإعداده لهم الآلات، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة، التي لو فقدوها لم يمكن لهم البقاء، فما بهم من نعمة فمنه تعالى، وهناك نوع خاص من التربية وهي تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكمله لهم، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شر؛ ولهذا كله فإنَّ قوله سبحانه وتعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يدلُّ على انفراده بالخلق والتدبير، والنعم، وكمال غناه، وتمام فقر العالمين إليه، بكل وجه واعتبار[4].

ولما وصف الله سبحانه وتعالى نفسه بالربوبية التي تعني أنه السيد المالك المعبود الذي له مطلق التصرف في عباده، وقد يفهم من ذلك معنى القهر؛ جاء وصفه بالرحمة بعدها ليبين أنّ ربوبيته تعالى ربوبية رحمة وإحسان، لا ربوبية قهر وجبروت[5]؛ و«لينبسط أمل العبد في العفو إن زل، ويقوى رجاؤه إن هفا»[6]، فقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مكررًا

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٩.
(٢) ينظر: تفسير القرآن الكريم (الفاتحة – البقرة)، ابن عثيمين، ٩/١.
(٣) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢٢/١.
(٤) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٩.
(٥) ينظر: تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، ٣١/١.
(٦) البحر المحيط، أبو حيان، ١٣٢/١.

مكررًا لها في صلب السورة في آية مستقلة بعد وصف المولى سبحانه وتعالى بذلك في أول السورة في البسملة، وبعد وصفه بـ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ للدلالة على أنه الحقيق بالحمد، لا أحد أحق به منه، بل لا يستحقه على الحقيقة سواه، ومن لم يتصف بهذه الصفات لا يستأهل أن يحمد فضلًا عن أن يعبد[1].

وأتبع الله سبحانه وتعالى الأوصاف الثلاثة المتقدمة بالوصف بقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، وهذا ليس لمجرد سرد الصفات، بل هو مما أثارته الأوصاف المتقدمة، فقد وصف الله تعالى نفسه بصفة ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وهذا مفيد للتنبيه على كمال رفقه تعالى بالمربوبين في سائر أحوالهم، ومقتضى المقام تعقيبه بذكر أنه صاحب الحكم في يوم الجزاء؛ لئلا يعتمد الناس على ما علموا من الربوبية والرحمة المؤكدة فلا يخشوا عاقبة الإعراض عن التكاليف؛ لأنَّ الجزاء على الفعل سبب في الامتثال والاجتناب لحفظ مصالح العالم، وأحيط ذلك بالوعد والوعيد، وجعل مصداق ذلك الجزاء يوم القيامة؛ ولذلك اختير هنا وصف ﴿مَلِكِ﴾ أو ﴿مَٰلِكِ﴾ مضافًا إلى يوم الدين، فأما ﴿مَلِكِ﴾ فهو مؤذن بإقامة العدل وعدم الهوادة فيه؛ لأنَّ شأن الملك أن يدبر صلاح الرعية ويذب عنهم، وأما ﴿مَٰلِكِ﴾ فمِثل تلك في إشعاره بإقامة الجزاء على أوفق كيفياته بالأفعال المجازى عليها[2].

«وفي الجمع بين القراءتين فائدة عظيمة، وهي أنَّ ملكه جلّ وعلا ملك حقيقي؛ لأن مِن الخلق مَن يكون ملكًا، ولكن ليس بمالك، يسمى ملكًا اسمًا وليس له من التدبير شيء، ومِن الناس مَن يكون مالكًا، ولا يكون ملكًا كعامة الناس، ولكن الرب عزّ وجلّ مالكٌ ملِك»[3].

وأضاف الله سبحانه وتعالى الملك ليوم الدين مع أنه سبحانه يملك كل شيء وفي جميع الأزمنة؛ تهويلًا لهذا اليوم، وتعظيمًا لشأنه، ولتفرُّده سبحانه وتعالى بالمُلك يوم

(١) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، ٢٨/١.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٧٣، ١٧٤.
(٣) تفسير القرآن الكريم (الفاتحة – البقرة)، ابن عثيمين، ١٢/١.

الدين خالصًا دون جميع خلقه[1]، ولأنَّ المخلوقين يوم القيامة مضطرون إلى أن يعرفوا أن الأمر كلَّه لله، فهو اليوم الذي لا يملك فيه أحد لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًّا، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٨ - ١٩][2].

ولما كان قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ دالًا على أنَّ العبد منتقل من دار الدنيا إلى دار الآخرة جاء بعده: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ليبين أنه لا بد لذلك اليوم من زاد واستعداد، وذلك هو العبادة[3].

وهنا تحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب؛ لأنه لما أثنى العبد على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى؛ فلهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[4]، وهذا الانتقال من أسلوب إلى أسلوب يجدد في النفس الإقبال على الاستمتاع بالتلاوة، والاعتبار بما في الكتاب، والإقبال الذي يتولد عنه التدبر والتفكر في آيات الله تعالى[5].

وجاء الخطاب في الآية بهذه الصيغة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بتقديم الضمير ﴿إِيَّاكَ﴾، وهذا فيه تأكيد لاختصاص الله سبحانه وتعالى وحده بالعبادة والاستعانة.

وعبادة الله تعالى جامعة لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة[6]، وتقتضي كمال المحبة والخضوع والخوف، والاستعانةُ به تعالى تقتضي طلب العون منه وحده، والتبرؤ من الحول والقوة، وتفويض الأمر إلى الله تعالى[7].

والقيام بعبادة الله والاستعانة به هو الوسيلة للسعادة الأبدية، والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما[8].

---

(١) ينظر: تفسير الراغب الأصفهاني، ٥٦/١، ٥٧.
(٢) ينظر: معاني القرآن، الزجاج، ٤٧/١.
(٣) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٤٤/١.
(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٣٥/١.
(٥) ينظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٦٣/١.
(٦) ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ١٤٩/١٠.
(٧) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٣٤/١، ١٣٥.
(٨) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ٣٩.

والاستعانة داخلة في معنى العبودية، وهي جزء من العبادة، فكأنه ذكر جملة العبادة أوّلًا، ثم ذكر ما هو من تفاصيلها، وهو الاستعانة، فهو من ذكر الخاص بعد العام اعتناء بهذا الخاص[١]؛ ولاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى، فإنه إن لم يعنه الله لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر، واجتناب النواهي؛ ولذا قدم العبادة على الاستعانة[٢].

وبعد أن تقدم الثناء على المعبود تبارك وتعالى ناسب أن تُختم السورة الكريمة بالتوجه إليه تعالى بالدعاء والسؤال، وهذا أكمل أحوال السائل، أن يمدح مسؤوله، ثم يسأل حاجته: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[٣].

والشيء المسؤول هنا هو الهداية إلى الصراط المستقيم، والمعنى: وفقنا للثبات على ما ارتضيته ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك، من قول وعمل، وذلك هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، وهو الصراط المستقيم[٤]، كما أنَّ طلبهم للهداية وهم مهتدون معناه أيضًا طلب مزيد الهداية؛ فالألطاف والهدايات من الله تعالى لا تتناهى[٥].

تتناهى[٥].

وقد فُسِّر الصراط المستقيم بالقرآن، وبالإسلام، وبدين الله، وبالحق، وبالرسول ﷺ وصاحبيه من بعده أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، «وكلُّ هذه الأقوال صحيحة، وهي متلازمة، فإنَّ من اتبع النبي ﷺ واقتدى باللذين من بعده أبي بكر وعمر فقد اتبع الحق، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن، وهو كتاب الله وحبله المتين، وصراطه المستقيم، فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضا، ولله الحمد»[٦].

---

(١) ينظر: تفسير السمعاني، أبو المظفر السمعاني، ١/٣٧؛ ومدارج السالكين، ابن القيم، ١/٩٧.

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٩.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/١٣٦.

(٤) ينظر: جامع البيان، الطبري، ١/١٦٦، ١٧٠.

(٥) ينظر: تفسير السمعاني، أبو المظفر السمعاني، ١/٣٨؛ ومعالم التنزيل، البغوي، ١/٥٤.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/١٣٩.

ولمزيد الاعتناء بالصراط المستقيم بينه الله تعالى بقوله: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾، وهم الذين علموا الحق وعملوا به، وقد ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩][1]، وأطلق سبحانه وتعالى الإنعام في قوله: ﴿أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾ لقصد الشمول فإنَّ نعمة الإسلام عنوان النعم كلها فمن فاز بها فقد حازها بحذافيرها[2].

ثم وصف الله جلَّ وعلا الذين أنعم عليهم بقوله: ﴿ غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾، والمغضوبُ عليهم هم الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود، والضالون هم الذين تركوا الحق على جهل وضلال كالنصارى[3]؛ «فالشقاء والكفر ينشأ من عدم معرفة الحق تارة، ومن عدم إرادته والعمل به أخرى، ويتركب منهما، فكفر اليهود نشأ من عدم إرادة الحق والعمل به، وإيثار غيره عليه بعد معرفته؛ فلم يكن ضلالًا محضًا، وكفر النصارى نشأ من جهلهم بالحق، وضلالهم فيه، فإذا تبين لهم وآثروا الباطل عليه أشبهوا الأمة الغضبية وبقوا مغضوبًا عليهم ضالين، ثم لما كان الهدى والفلاح والسعادة لا سبيل إلى نيله إلا بمعرفة الحق وإيثاره على غيره، وكان الجهل يمنع العبد من معرفته بالحق والبغي يمنعه من إرادته؛ كان العبد أحوج شيء إلى أن يسأل الله تعالى كل وقت أن يهديه الصراط المستقيم تعريفًا وبيانًا، وإرشادًا وإلهامًا، وتوفيقًا وإعانة، فيعلمه ويعرفه، ثم يجعله مريدًا له قاصدًا لاتباعه فيخرج بذلك عن طريقة المغضوب عليهم الذين عدلوا عنه على عمد وعلم، والضالين الذين عدلوا عنه عن جهل وضلال»[4].

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/١٤٠.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/١٨.

(٣) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٩.

(٤) بدائع الفوائد، ابن القيم، ٢/٣١.

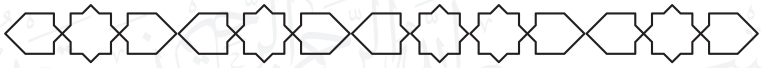

الباب الثاني

٢ دراسات تطبيقية في هدايات السورة ٢

ويتكون من ثلاثة فصول:

الفصل الأول:
الهدايات الجزئية والكلية في السورة

- **المبحث الأول:** الهدايات الخاصة بآيات السورة.
- **المبحث الثاني:** الهدايات الكلية في السورة.

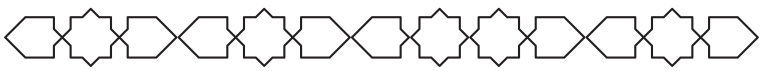

الهدايات الخاصة بآيات السورة

تمهيد

إنَّ القرآن الكريم هو الهدى والنور، لا تنقضي هداياته، ولا تفنى عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، وكل آية منه فيها من الدروس والعبر الشيء الكثير، وهداياته متجددة بتجدد التأمل وإمعان النظر، والهدايات الجزئية والتفصيلية المستنبطة من آي الكتاب لا حصر لها ولا عد؛ فهي عين معينة لا تنضب مهما اغترف منها المغترفون.

ومما ينبغي ذكره في بداية هذا المبحث أنَّ الهدايات الجزئية يمكن أن تؤخذ من المعاني التي تحتملها الآية، ولو تعددت هذه الاحتمالات ما دام التركيب والسياق يسمحان بذلك، قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنك لتمر بالآية الواحدة فتتأملها وتتدبرها فتنهال عليك معانٍ كثيرة يسمح بها التركيب على اختلاف الاعتبارات في أساليب الاستعمال العربي، وقد تتكاثر عليك فلا تك من كثرتها في حصر، ولا تجعل الحمل على بعضها منافيًا للحمل على البعض الآخر إن كان التركيب سمحًا بذلك.

فمختلف المحامل التي تسمح بها كلمات القرآن وتراكيبه وإعرابه ودلالته، من اشتراك وحقيقة ومجاز، وصريح وكناية، وبديع، ووصل، ووقف، إذا لم تفض إلى خلاف المقصود من السياق، يجب حمل الكلام على جميعها كالوصل والوقف في قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، إذا وقف على لا ريب، أو على فيه»[(١)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «المقدمة التاسعة في أن المعاني التي تتحملها جمل القرآن تعتبر مرادة بها: ... فالقرآن من جانب إعجازه يكون أكثر معاني من المعاني المعتادة التي يودعها البلغاء في كلامهم، وهو لكونه كتاب تشريع وتأديب وتعليم كان حقيقًا بأن يودع فيه من المعاني والمقاصد أكثر ما تحتمله الألفاظ، في أقل ما يمكن من المقدار، بحسب ما تسمح به اللغة الوارد هو بها التي هي أسمح اللغات بهذه الاعتبارات، **ليحصل تمام المقصود من الإرشاد الذي جاء لأجله في جميع نواحي الهدى** ...»[(٢)].

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/٩٧.

(٢) المصدر السابق، ١/٩٣.

الآية الأولى[1]: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

من الهدايات التي يمكن أن تؤخذ من هذه الآية ما يأتي:

(١) أهمية البسملة وعظيم مقدارها؛ وذلك لاشتمالها على المعاني العظيمة التي تجعلها جديرة بأن تكون أول آية في كتاب الله.

ومن ذلك تعريف العباد بألوهية الله سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته، ونسبة الأمور كلها إليه سبحانه وتعالى، وأنه هو الإله وحده، المستحق للإفراد بالعبادة، وهذا كله إجمال لتفصيل الفاتحة، كما أنَّ الفاتحة إجمال لتفصيل القرآن كله؛ فهي أم القرآن، ولما كانت نسبة البسملة من الفاتحة نسبة الفاتحة من القرآن صدرت بها الفاتحة كما صدر القرآن بالفاتحة، وهذا براعة استهلال لكلام المولى الجليل سبحانه وتعالى[2].

(٢) بركة هذا القرآن وعظمته؛ وذلك لاقترانه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ تعالى المبارك العظيم في بدايته قراءةً كما في سورة الفاتحة، وكذلك نزولًا كما في صدر سورة العلق ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

(٣) اطمئنان القلب عند ابتداء القرآن؛ وذلك لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وذكر الله تعالى أساس الدين، وأساسه القرآن، وفاتحة القرآن: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[3].

(٤) مراعاة العبد لمقام العبودية في جانب فعله، ومقام الربوبية في جانب سيده سبحانه؛ فكأنه بالبسملة يستأذن على مولاه لينال من بركات وهدي كتابه[4].

(٥) من الأدب تقديم ذكر اسم الله تعالى قبل جميع مهمات أفعال الإنسان؛ تأسيًّا بالقرآن الكريم؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى ابتدأ فاتحة كتابه بالبسملة؛ فالبدء باسمه تعالى

---

(١) تم عدُّ البسملة آية بناء على الترجيح الذي ذكرته سابقًا ص ٢٤.

(٢) ينظر: نظم الدرر، البقاعي، ١/٢٥، ٢٦.

(٣) ينظر: نظام القرآن، الفراهي، ص٧٥.

(٤) ينظر: مجالس القرآن، د. فريد الأنصاري، ص١٢٤.

أمر، وهو قول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ومعناه قولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ومثله ابتداء الخطاب في معنى قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، وقد ورد الأمر بذلك في موضع من القرآن مصرحًا، وهو قول الله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وكذلك فإنه أمر في افتتاح القراءة بالتسمية، كما أمر أمام القراءة بتقديم الاستعاذة، وإذا كان ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ خبرًا فإنه يتضمن معنى الأمر؛ لأنه لما كان معلومًا أنه خبر من الله بأنه يبدأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ ففيه أمر لنا بالابتداء به، والتبرك بافتتاحه؛ لأنه إنما أخبرنا به لنفعل مثله[١].

(٨) أهمية الانقطاع إلى الله تعالى، واللجوء إليه، والأنس به، والفزع إليه[٢]؛ وذلك لأنَّ الباء في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ للاستعانة أو المصاحبة والملابسة[٣]، وفي هذا دلالة على الاعتصام بالله واللجوء إليه وغير ذلك من المعاني المتقدم ذكرها.

(٩) في الآية إشارة إلى إسقاط الحول والقوة، ونفي استقلال قدرة العباد وتأثيرها، من أولّ وهلة، وهذا استفتاح لباب الرحمة، وظفر بكنز (لا حول ولا قوة إلا بالله)[٤]، ومما يؤيد هذا أنَّ من معاني الباء الاستعانة، وألفاظ الاستعانة كقول: أستعين بالله، واللهم أعني، ونحو ذلك كثير، فصار لفظة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ تغني عن جميعها، وتقوم مقامها[٥].

كما أنَّ طلب العون من الله تعالى يؤخذ من الاسم الجليل ﴿الله﴾ في افتتاح العبد بـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ ﴿الله﴾ هو الاسم الجامع لصفات الكمال، والفعل عادة يحتاج إلى صفات متعددة، فالعبد حين يبدأ عملًا يحتاج إلى قدرة الله وإلى عونه وإلى رحمته، وإلى غير ذلك من صفاته تعالى، و﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ جامع لكل هذه الصفات، ويغني عن قول: باسم القوي، وباسم الرازق، وباسم المجيب، وباسم القادر، وباسم النافع، إلى غير

(١) ينظر: أحكام القرآن، الجصاص، ١/٥، ٦.
(٢) ينظر: المصدر السابق، ١/١٩.
(٣) ينظر: السراج المنير، الخطيب الشربيني، ١/١٣.
(٤) ينظر: روح المعاني، الآلوسي، ١/٤٧.
(٥) ينظر: تفسير الراغب الأصفهاني، ١/٤٧.

ذلك من الأسماء والصفات التي يُستعان بها[1]، وإضافة إلى ذلك فإنَّ العبد حينما يفتتح القراءة أو يُنشئ عملًا فإنه يحتاج إلى قدرة تمكنه من هذا الفعل، وهذه القدرة من الله تعالى، وافتتاح العبد بـ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ كأنه يقول: إنني أعمل عملي متبرئًا من أن يكون باسمي، بل هو باسمه تعالى، لأنني استمد القوة والعناية منه وأرجو إحسانه عليه، فلولاه لم أقدر عليه ولم أعمله، كما أنَّ في هذا تعليمًا العباد أن يتوكلوا ويعتمدوا على الله تعالى ويعتصموا به؛ فمعنى أبتدئ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أنني أعمله بأمره وله لا لي، ولا أعمله باسمي مستقلًّا به على أنني فلان، فكأني أقول: إنَّ هذا العمل لله لا لحظ نفسي[2].

وهذا التوكل على الله تعالى والالتجاء والاعتصام به سبحانه بقول: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ عند افتتاح القراءة يدخل تحت الاستعاذة المأمور بها في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨][3]؛ فيكون هذا من الاستعاذة بالله أخذًا من مفهوم عبارة البسملة بعد الاستعاذة بصريح العبارة بقول: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم).

(١٠) إثبات الاسم الجليل ﴿الله﴾، والذي يدل على أنه هو المألوه المعبود، المستحق لإفراده بالعبادة؛ لما اتصف به من صفات الألوهية، وهي صفات الكمال[4].

(١١) الاسم الجليل ﴿الله﴾ أصلُ أسمائه جميعًا وأخصها وأعظمها وأعرفها؛ وهذا مأخوذ من المجيء به مقدمًا قبل الوصف بـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ ولأنَّ التسمية أوّلًا إنما تكون بأشرف الأسماء[5].

وهو الاسم الأكثر استعمالًا، ويوصف ولا يوصف به، ولم يُسمَّ به غيره جلَّ وعلا،

(١) ينظر: تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، ٤٦/١.

(٢) ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٣٦/١.

(٣) ينظر: نظام القرآن، الفراهي، ص٧٣.

(٤) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٩.

(٥) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٢٦/١.

وقد قيل إنه اسم الله الأعظم لأنه يوصف بجميع الصفات، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤][1].

وهو جامعٌ لجميع معاني الأسماء الحسنى؛ ولهذا قُدِّم في الذِّكر[2]، وكأن المستفتح بالبسملة يقول: أبدأ وأستعين بكل اسم لله عز وجل، ومما يُحتجّ به لاشتمال اسم ﴿الله﴾ على جميع معاني الأسماء الحسنى أنَّ لفظة (اسم) مفردة أضيفت إلى المعرفة، وهو لفظ الجلالة ﴿الله﴾؛ فيعم كل اسم لله عز وجل؛ لأن المفرد إذا أضيف فإن ذلك يكسبه العموم[3]، بل إنَّ اسم الجلالة ﴿الله﴾ يدلُّ على الأسماء الحسنى والصفات العليا كلها بذات اللفظ[4]، فهو يدل عليها كلها وعلى لوازمها الكمالية وعلى تنزهه عن أضدادها السلبية، فدل هذا الاسم الأعلى على اتصاف مسماه بجميع صفات الكمال،

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠٢/١؛ وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٢٢/١.

(٢) ينظر: نظم الدرر، البقاعي، ٢٦/١.

(٣) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٩؛ وإرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، الشوكاني، ٣٠٤/١.

(٤) قال ابن القيم رحمه الله: «فصل: اسم الله يدل على الأسماء الحسنى: ... فاسم الله دال على جميع الأسماء الحسنى، والصفات العليا بالدلالات الثلاث، فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له مع نفي أضدادها عنه، وصفات الإلهية: هي صفات الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص، ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ويقال: الرحمن والرحيم، والقدوس، والسلام، والعزيز، والحكيم من أسماء الله، ولا يقال: الله من أسماء الرحمن، ولا من أسماء العزيز، ونحو ذلك؛ فعلم أن اسمه الله مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى، دال عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي اشتق منها اسم الله، واسم الله دال على كونه مألوهًا معبودًا، تؤلهه الخلائق محبة وتعظيمًا وخضوعًا، وفزعًا إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال الملك والحمد، وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله، إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله». مدارج السالكين، ابن القيم، ٥٥/١.

وتنزهه عن جميع النقائص[١].

(١٢) استشعار معية الله تعالى، والأنس بتلك المعية الكريمة؛ وذلك بتقديم اسم الله تعالى في بداية ما يأتيه العبد من أقوال وأفعال، وهذا مما يُشعر بالأمن والطمأنينة، ويزيل الخوف والقلق من النفس[٢].

(١٣) الرفعة والتنويه باسم ﴿الله﴾ سبحانه وتعالى وعظمته في الذكر؛ حيث إنه لم يقل بالله وإنما قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، وهذا يفيد تقديس الاسم في كلمة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، وتقديس المسمى وهو ﴿الله﴾ سبحانه، وهو أبلغ من حيث التبرك بذكره والتيمن به سبحانه وتعالى[٣].

وكذلك فإنَّ الاسم مشتق من السمو[٤]، وفي هذا إظهار للمسمى ورفعة له[٥]، و«كما أنَّ ذات الله تعالى أشرف الذوات فكذلك ذكره أشرف الأذكار، واسمه أشرف الأسماء، فكما أنه في الوجود سابق على كل ما سواه وجب أن يكون ذكره سابقًا على كل الأذكار، وأن يكون اسمه سابقًا على كل الأسماء»[٦].

(١٤) إخلاص التوحيد لله تعالى؛ وهذا مأخوذ من تقدير المعمول متأخرًا في قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ فإن علماء المعاني والبيان ذكروا أنه يقدر المتعلق متأخرًا ليفيد اختصاص البداية باسم الله تعالى لا باسم غيره، وفي هذا المعنى ما لا يخفى من إخلاص التوحيد، وكذلك مأخوذ من الاسم الشريف ﴿الله﴾ عز وجل؛ فإنَّ مفهومه كما حققه علماء هذا الشأن الواجب الوجود المختص بجميع المحامد، وفي هذا المفهوم

---

(١) ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٣٨/١.

(٢) ينظر: رياض القرآن (تفسير في النظم القرآني ونهجه النفسي والتربوي)، د. سمير استيتيه، ٢٢/١.

(٣) ينظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٥٠/١.

(٤) القول بأن اشتقاق الاسم من السمو هو مذهب البصريين، وذهب غيرهم إلى اشتقاقه من الوسم، وقيل غير ذلك. ينظر: الدر المصون، السمين الحلبي، ١٩/١.

(٥) ينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٩/١.

(٦) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٠١/١.

إشارة إلى إخلاص التوحيد[١].

(١٥) الاهتمام باسم الله تعالى ومزيد تعظيم له؛ ولهذا جيء به مقدمًا، وحذف المتعلق به (أقرأ أو أتلو)، إذ التقدير: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ أقرأ أو أتلو، وحق المتعلق به أن يقدر مؤخرًا لأنَّ ذكر اسم الله هو الأهم، فتقديم المعمول الذي هو ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ يدل على الاختصاص والاهتمام بالمقدم[٢].

(١٦) التبرك بتقديم اسم الله عز وجل؛ ولهذا جيء به مقدمًا، وحذف المتعلق به (أقرأ أو أتلو)، إذ التقدير: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ أقرأ أو أتلو[٣].

(١٧) في الآية التنبيه على أنَّ العبد من أول ما شرع في العمل كان مدار أمره على التسهيل والتخفيف والمسامحة، فكأنه تعالى في أول كلمة ذكرها لك جعلها دليلًا على التخفيف والتسهيل والصفح والإحسان؛ لأنَّ قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ معناه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ أبدأ أو أقرأ أو أتلو، فأسقط منه المتعلق به (أبدأ أو أقرأ أو أتلو) تخفيفًا وتسهيلًا[٤].

ويمكن أن يؤخذ التخفيف والتسهيل على العباد أيضًا من حذف الألف من ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾؛ فهي مذكورة في أكثر الأوقات عند أكثر الأفعال، فلأجل التخفيف حُذفت الألف، بخلاف سائر المواضع فإن ذكرها قليل فأثبتت فيها[٥].

(١٨) البسملة صالحة ليبتدئ بها كل شارع في فعل أو قول؛ وذلك لأنَّ المتعلق بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ محذوف، وعندئذٍ فلا يخالف المبتدئ لأي فعل أو قول لفظ القرآن عند اقتباسه[٦]، وبهذا كان الحذف للمتعلق أعم من الذكر فإنَّ أي فعل ذكرته كان المحذوف أعم منه، فيصح الابتداء بالتسمية في كل فعل وقول، وليس فعل أولى بها من فعل[٧].

---

(١) ينظر: فتح البيان في مقاصد القرآن، محمد صديق خان القنوجي، ٥٦/١، ٥٧.

(٢) ينظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢٥/١؛ وتفسير ابن عرفة، ابن عرفة المالكي، ٧٤/١.

(٣) ينظر: تفسير القرآن الكريم (الفاتحة – البقرة)، ابن عثيمين، ٤/١.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٥٢/١.

(٥) بنظر: المصدر السابق، ١٠٣/١.

(٦) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٤٧/١.

(٧) ينظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ٢٥/١.

(١٩) قصد التسمية للتبرك والتيمن والتقبل مشروع في بداية الأعمال[١]؛ إذ إنَّ معنى قول: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾: بدأت بعون الله وتوفيقه وبركته[٢].

وفي هذا تلقين وإرشاد للعباد إلى كيفية التبرك باسمه تعالى عند افتتاح أعمالهم وأقوالهم؛ وذلك لأنَّ مجيء هذه السورة مقولًا على ألسنة العباد فيه الإرشاد إلى ذلك[٣]؛ فالافتتاح يكون ببركة اسم الله تعالى[٤].

(٢٠) الردّ على القدرية وغيرهم ممن يقول: إن العبد يخلق فعل نفسه، وموضع الاحتجاج عليهم أنَّ الله سبحانه أرشدنا عند الابتداء أن نقول: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾، أي: بخلقه وتقديره يوصل إلى ما يوصل إليه[٥]، وهذا من المعاني التي يدلُّ عليها هذا الابتداء.

الابتداء.

وكذلك فإنَّ العبد لو كان مستقلًّا بخلق أفعال نفسه لما احتاج إلى طلب العون من الله تعالى بقوله: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾[٦].

(٢١) الردّ على المشركين الذين كانوا يبدؤون بأسماء آلهتهم كاللات والعزى؛ لأنَّ الله تعالى أرشد عباده إلى الافتتاح باسمه، واختصاص ذلك به دون ما سواه؛ فعلى العبد أن يقصد معنى اختصاص اسم الله عزّ وجلّ بالابتداء، ويؤخذ ذلك من تقديمه وتأخير الفعل المتعلق به (أقرأ أو أتلو)، وهذا الاختصاص كما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، حيث صرح بتقديم الاسم إرادة للاختصاص، ويؤيد هذا أيضًا تقديم ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ على المتعلق في قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ [هود: ٤١][٧].

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/١٢١.

(٢) ينظر: بحر العلوم، أبو الليث السمرقندي، ١/٧٦.

(٣) ينظر: الكشاف، الزمخشري، ١/٤؛ وأنوار التنزيل، البيضاوي، ١/٢٥.

(٤) ينظر: بحر العلوم، أبو الليث السمرقندي، ١/٧٦.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/٩٨.

(٦) ينظر: اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب، د. سليمان اللاحم، ص١٧٢.

(٧) ينظر: الكشاف، الزمخشري، ١/٣.

كما أنَّ في الآية ردًّا على الذين يفتتحون كلامهم أو خطبهم باسم الحرية أو باسم الشعب أو غير ذلك قاصدين به تعظيم غير الله تعالى.

(٢٢) النبي ﷺ مبلغ القرآن عن الله، وجميع ما في القرآن من الأحكام وغيرها هو لله ومنه، ليس لأحد غير الله فيه شيء؛ فكأنَّ النبي ﷺ حينما يفتتح ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ يقول: إنني أقرأ السورة عليكم أيها الناس ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ لا باسمي، وعلى أنها منه لا مني، فإنما أنا مبلغ عنه سبحانه وتعالى[١].

(٢٣) تعريف العباد بالإله المعبود سبحانه وتعالى بأنه (اللهُ الرحمنُ الرحيم)، وفي هذا إشارة إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، وردٌّ على ما يعتقده النصارى من التثليث (الأب والابن وروح القدس)؛ فهو رد عليهم بتغليظ وتبليد؛ حيث جاءت فاتحة كتاب الإسلام بالرد عليهم موقظة لهم بأن الإله الواحد وإن تعددت أسماؤه فإنما هو تعدد الأوصاف دون تعدد المسميات[٢].

(٢٤) في البداءة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ تمكينٌ للمتعلم من حسن التعلم وإقدارٌ له عليه؛ يؤخذ هذا من افتتاح الكتاب العزيز الذي هو خير العلوم بالبسملة، كما يدل عليه قوله تعالى في بداية سورة العلق: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥]؛ فقد اقترن الأمر بالقراءة باسم الله[٣].

(٢٥) إثبات النبوات؛ وذلك مأخوذ من اسم ﴿ٱللَّهِ﴾، وهو المألوه المعبود، ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله، وكذلك مأخوذ من اسمه ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾؛ فإنَّ رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم، فمن أعطى اسم ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه

(١) ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ١/٣٧.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٥١.

(٣) ينظر: رياض القرآن، د. سمير استيتيه، ١/٢٣.

إنزال الغيث وإنبات الكلأ، وإخراج الحب، فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح[1].

(٢٦) إثبات اسمين من أسماء الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وما تضمناه من صفات تليق بجلال ربنا وعظمته.

(٢٧) في وصف الله تعالى بصفتي ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ دليلٌ على أنَّ هذا العالم وهذا الوجود مظهر من مظاهر رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء، وفيض من رحمانية الله تعالى ورحمته[2].

(٢٨) الله تعالى هو المعبود الحقيقي المستحق للعبادة وحده، ولأن يستعان به في جميع الأمور وحده؛ وذلك لأنَّ في وصفه تعالى بـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ دليل على أنه تعالى هو المنعم بجميع النعم أصولها وفروعها، فجميع ما حصل للعبد من أقسام النعم لم يحصل إلا من الله، فثبت أن غاية الإنعام صادرة من الله، والعبادة غاية التعظيم، وغاية التعظيم لا تليق إلا لمن صدرت عنه غاية الإنعام؛ فثبت أنَّ المستحق للعبودية هو الله تعالى[3].

وكذلك فإنَّ الرحمة تقتضي النعمة على المحتاج، وتمام النعمة أن يكون المنعِم بها مستغنيًا عن فعلها، والمنعَم عليه محتاجًا إليه، وذلك المنعم هو الله فحق له العبادة سبحانه[4]؛ فحري بالعبد أن يتوجه إلى جناب الله تعالى، ويتمسك بحبل التوفيق، وأن يشغل نفسه بذكر الله، وأن يستعين به وحده لا غير[5].

(٢٩) في وصف الله تعالى في البدء بـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ما يدل على عظم رحمة الله، فهما اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة، التي وسعت كل شيء،

---

(١) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٣٢/١.

(٢) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ١٧/١.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٤٥/١.

(٤) ينظر: باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن، أبو القاسم الغزنوي، ٥/١.

(٥) ينظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢٧/١.

وعمت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله، فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم، فله نصيب منها[1].

وقد عمَّ برحمته سبحانه الكفار والمؤمنين في الدنيا بالإفضال والإحسان إلى جميعهم، في البسط في الرزق، وتسخير السحاب بالغيث، وإخراج النبات من الأرض، وصحة الأجسام والعقول، وسائر النعم التي لا تحصى، التي يشترك فيها المؤمنون والكافرون.

وخصَّ سبحانه برحمته المؤمنين في الدنيا والآخرة، بهدايتهم للإيمان دون من خذله من أهل الكفر به، وبما أعد لهم في الآخرة من النعيم والكرامة التي تقصر عنها الأماني، وهذا يفيده وصفه تعالى بـ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي يدلُّ على خصوص الرحمة لبعض خلقه، بعد وصفه بـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ الذي يدلُّ على عموم الرحمة جميع خلقه، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣][2].

(٣٠) ما يدل على جلائل النعم وعظائمها وأصولها أحقُّ بالتقديم مما يدل على دقائقها وفروعها؛ يؤخذ ذلك من تقديم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ على ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾[3]؛ لما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ تناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها، أردفه بـ ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ كالتتمة والرديف ليتناول ما دقّ منها ولطف[4].

(٣١) في إثبات صفتي ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في البسملة، مع قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠] في ذلك الرد على المشركين الذين لا يعترفون بـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وكان من المتعارف لديهم كتابة (باسمك اللهم) في افتتاح كتاباتهم، ويدل له ما وقع في قصة صلح الحديبية من امتناعهم عن كتابة ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وقول قائلهم: «أمَّا ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فلا

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٩.
(٢) ينظر: جامع البيان، الطبري، ١/١٢٨، ١٢٩.
(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/١١.
(٤) ينظر: الكشاف، الزمخشري، ١/٤.

ندري ما بـ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ولكن اكتب ما نعرف: باسمك اللهم»[1].

(٣٢) الإقرار بالألوهية والاعتراف بالنعمة[2]؛ وذلك لأنَّ في افتتاح القارئ بـ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ اعترافًا بألوهيته تعالى، لما في هذا الاسم الجليل من معنى الألوهية، وفي تعقيبه بـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اعتراف بفضله وإنعامه وإحسانه لما في هذين الاسمين الجليلين من معاني النعمة والفضل والإحسان.

(٣٣) في الوصف بـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ دلالةٌ على سائر الصفات الحسنى؛ لأنَّ من عمت رحمته وجب أن يوصف بالكمال والجلال في أسمائه وصفاته، وامتنع أن يكون فيه شوب نقص[3].

(٣٤) جميع ما في القرآن الكريم من الآيات والأحكام وتوابعها هو لله تعالى، ومن الله تعالى، لا لغيره، ولا من غيره؛ وذلك لأنَّ إنزاله لهذا الكتاب على ما هو عليه رحمة منه بالغة أقصاها؛ لأنه هو الرحمنُ الرحيم، المنعم لا منعم سواه[4].

(٣٥) رحمة الله تعالى أكثر وأكمل من قهره؛ وذلك لأنَّ اسم ﴿ٱللَّهِ﴾ فيه إشارة إلى القهر والقدرة والعلو، ثم ذكر عقيبه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ فدل على أنَّ رحمة الله تعالى أكثر وأكمل[5].

ويستأنس لهذا بما جاء في الحديث القدسي: ((إن رحمتي غلبت غضبي))[6].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، عن أنس بن مالك ﷺ، ٣٢٨/٢١، رقم [١٣٨٢٧]، وقال محقق المسند: إسناده صحيح، ٣٢٩/٢١.

(٢) ينظر: أحكام القرآن، الجصاص، ٢٠/١.

(٣) ينظر: نظم الدرر، البقاعي، ٢٦/١، ٢٧.

(٤) ينظر: التحقيقات الواضحة في تفسير سورة الفاتحة وأوائل سورة البقرة وآية الكرسي، محمد الظواهري، ص١٤.

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٥٣/١.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ، كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: ٢٧]، ١٠٦/٤، رقم [٣١٩٤].

(٣٦) أهمية الجمع بين أسلوبي الترهيب والترغيب؛ لأنَّ في قوله: ﴿ٱللَّهِ﴾ دلالة على عظمة الله وقهره، وفي قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ دلالة على فضل الله وإحسانه وإنعامه، والأول فيه ترهيب، والثاني فيه ترغيب[١].

(٣٧) تذكير العباد بجلال الله تعالى وعظمته، وبرحمته التي وسعت كل شيء؛ ولذلك جمع الله لعباده في البسملة من أسمائه الشريفة بين ما يقتضى الإجلال والتقديس والعبادة، وهو لفظ الجلالة علم الذات ﴿ٱللَّهِ﴾، وبين ما يقتضى الأنس والأمل في الخير، وهو (الرحمن الرحيم)، ليأْنسوا بربهم، ولا يقنطوا من رحمة الله تعالى[٢].

(٣٨) اسم الله تعالى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ فيه صفة الرحمة التي تختص بالله وحده، ولا تليق إلا به وحده لا شريك له؛ ولذلك جيء به عقب الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾، كما أنَّ بناءه على وزن (فعلان) يدل على ذلك؛ فلا يجوز أن يقال: (الرحمن) إلا لله، وإنما كان ذلك لأنَّ بناء (فعلان) من أبنية ما يبالغ في وصفه، فـ(الرحمن) الذي وسعت رحمته كل شيء[٣].

وكثرة رحمة الله تعالى وكونها واسعة كل شيء مأخوذ من لفظ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، وهو اسم ليس يطلق إلا لله كلفظة ﴿ٱللَّهِ﴾، فإنهما اسمان اختص بهما الباري جل وعلا باتفاق، ولأجل ذلك قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠][٤].

(٣٩) في الآية مع قول الله سبحانه وتعالى في حق نبيه ﷺ: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨] صحةُ إطلاق وصف (الرحيم) على غير الله تعالى.

(٤٠) الاعتناء بشأن الرحم وصلتها؛ وذلك لأنَّ (الرحم) و(الرحمة) مشتق بعضها

---

(١) ينظر: اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب، د. سليمان اللاحم، ص١٧١.

(٢) ينظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ١٧/١.

(٣) ينظر: معاني القرآن، الزجاج، ٤٣/١.

(٤) ينظر: تفسير الراغب الأصفهاني، ٥٠/١.

من بعض، وقد دل على ذلك قوله ﷺ: ((قال الله: أنا الرحمن، وهي الرحم، شققت لها اسمًا من اسمي، من وصلها وصلته، ومن قطعها بتتُّه[1]))[2].

ومعنى ذلك أنَّ الله تعالى جعل بين نفسه وبين عباده سببًا، فهو كما أنه كتب على نفسه الرحمة لعباده، وأوجب عليهم مقابلتها بشكر نعمته لما كان هو السبب الأول في وجودهم وخلق قواهم وسائر خيراتهم، كذا أيضًا جعل بين ذوي اللُّحْمة بعضهم مع بعض سببًا أوجب به التواصل فيما بينهم، فصار بين (الرحم) و(الرحمة) مناسبة معنوية، كما أن بينهما نسبة لفظية؛ ولهذا عظم شكر الوالدين، فقرنه بشكره في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤] تنبيهًا على أنهما السبب الأخير في وجود الولد، كما أن الله تعالى السبب الأول في وجود كل موجود[3].

(٤١) ترغيب العباد في الرحمة؛ لأنَّ رحمة خلق الله من أسباب استجلاب رحمة الله، وقد جاء في الحديث عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، أنَّ النبي ﷺ قال: ((إنما يرحم الله من عباده الرحماء))[4]، وفي الحديث الآخر عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: ((الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء))[5].

فعلى العبد أن يكون رحيمًا بكل من يراه مستحقا للرحمة من خلق الله تعالى حتى

---

(١) أي: قطعته. ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/١٧٠.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الزكاة، باب: في صلة الرحم، ٢/١٣٣، رقم [١٦٩٤]؛ والترمذي في سننه، كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في قطيعة الرحم، ٤/٣١٥، رقم [١٩٠٧]، وقال الترمذي عن الحديث: حديث صحيح، وصححه كذلك الألباني. ينظر: صحيح سنن أبي داود، الألباني، ١/٤٧٠.

(٣) ينظر: تفسير الراغب الأصفهاني، ١/٥١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التوحيد، باب: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، ٩/١٣٣، رقم [٧٤٤٨].

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الأدب، باب: في الرحمة، ٤/٢٨٥، رقم [٤٩٤١]؛ والترمذي في سننه، كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في رحمة المحسنين، ٤/٣٢٣، رقم [١٩٢٤]، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه كذلك الألباني. ينظر: صحيح سنن أبي داود، الألباني، ٣/٢١٢.

الحيوان الأعجم، وأن يتذكر دائمًا أنه يستحق بذلك رحمة الله تعالى[1].

والرحمة لها مظاهر كثيرة، ومن المظاهر التي أكد عليها الإسلام تأكيدًا كبيرًا التراحمُ والتعاطف والتواد والتعاضد بين المسلمين، فالمؤمن أخو المؤمن، ينبغي أن يحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، لكنَّ الواقع الذي تعيشه أمتنا الإسلامية ينقصه الكثير من تلك المظاهر العظيمة لخلق الرحمة، التي يهتم فيها المسلم بأخيه المسلم، بل ويرحم الحيوان الذي لا يعقل، بل ويرحم الكافر فيحب له أن يدخل في دين الله ويجتهد في دعوته[2].

ومع ذلك فإنَّ الواقع أظهر لنا ضدَّ هذا الخلق العظيم في أبشع صوره؛ فبعض

---

(١) ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٤٤/١.

(٢) إذا أراد مجتمعنا أن تتحقق فيه هذه المعاني العظيمة للرحمة فلا بد أن يعود إلى المنهج الرباني في ذلك، وعندئذ سيهتم الفرد بإخوانه المسلمين، سيتفقد أحوالهم، ويطعم جائعهم، ويكسو عاريهم، ويهتم بجميع أمورهم، بل سيسعى لرحمة الحيوان الأعجم؛ فقد قال رسول الله ﷺ: ((ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة)). (أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك ﷺ، كتاب: المزارعة، باب: فضل الزرع والغرس إذا أُكل منه، ١٠٣/٣، رقم [٢٣٢٠]؛ ومسلم في صحيحه، كتاب: المساقاة، باب: فضل الغرس والزرع، ١١٨٩/٣، رقم [١٥٥٣]).

وسيسعى أيضًا لرحمة غير المسلمين بأن يحب لهم الدخول في الإسلام، وبأن يجتهد في دعوتهم، وأن يحسن في ذلك، بكل طريقة يمكن أن تكون مصدرًا للدعوة، بدءًا بنفسه بأن يتمثل الإسلام كما تمثله رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ؛ فيعكس بذلك الصورة الحسنة عن منهج الإسلام العظيم، حتى في حال الحرب والقتال مع الكفار فإنَّ النبي ﷺ أدب أصحابه على آداب عظيمة تُظهر رحمة الإسلام، فقد كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميرًا على جيش، أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: ((اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا ...))، (أخرجه مسلم في صحيحه عن بريدة ﷺ، كتاب: الجهاد والسير، باب: تأمير الإمام الأمراء على البعوث، ١٣٥٧/٣، رقم [١٧٣١])، وفي الحديث الآخر: «نهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان». (أخرجه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود ﷺ، كتاب: الجهاد والسير، باب: قتل الصبيان في الحرب، ٦١/٤، رقم [٣٠١٤]؛ ومسلم في صحيحه، كتاب: الجهاد والسير، باب: تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب، ١٣٦٤/٣، رقم [١٧٤٤]).

أما أن يسعى بعض أبناء المسلمين في أذيتهم وتخويفهم فضلًا عن خراب ديارهم فضلًا عن تقتيلهم – كما قد يحصل من بعض الفئات التي تدعي بذلك نصرة الإسلام وهم أبعد الناس عن مبادئه.

الطوائف والفئات تجتهد في قتل وسفك دماء المسلمين في صور كثيرة، حتى لم تسلم منهم المساجد بعبادها، ولا الدور بساكنيها، ولا الأطفال الرضع، ولا الشيوخ الركع، ثم يدَّعي بعضهم بذلك الجهاد ونصرة الإسلام، ويتأولون تأويلات فاسدة وباطلة، مع أنَّ ذلك كله مخالف لهدي نبي الرحمة، ووضوحه كوضوح الشمس في رابعة النهار، والله المستعان.

(٤٢) الباب مفتوح للاستعانة بالله، فلا يأس ولا قنوط من رحمة الله، حتى في حال حصول الضعف من العبد ووقوعه في المعصية، فالمعصية لا تمنع من الاستعانة في كل عمل ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنه (الرحمنُ الرحيم)، فيكون الله قد أزال وحشة العبد من المعصية بالاستعانة به سبحانه وتعالى[١].

(٤٣) التنبيه على أنَّ المقتضي للاستعانة بالله تعالى هو سعة رحمته تعالى لعباده؛ وذلك للمجيء بـ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في البسملة بعد ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الدال على الاستعانة به تعالى، توكيدًا للاستعانة به تعالى[٢].

(٤٤) انتساب العبد إلى مولاه في عبوديته له بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فلا يصول ولا يجول إلا به، وبذلك تتجلى عليه بركة الرحمن والقوة والمدد منه، ويتولاه الله بالحفظ والرعاية، وبالتسديد والترشيد، وبالنصرة والتمكين؛ وذلك لأنَّ العبد اعتمد على الله الرحمن الرحيم، ولن يخيب معتمد عليه[٣].

(٤٥) الاهتمام بقول البسملة والمواظبة عليها سبيل النجاة؛ وذلك أنَّ نوحًا عليه السلام لما ركب السفينة قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١]، فوجد النجاة ببعض هذه الكلمة، فمن واظب على هذه الكلمة طول عمره كيف يبقى محرومًا من النجاة[٤]؟

(٤٦) الإشارة إلى أنَّ دلالة الحال والمشاهدة أبلغ من دلالة المقال؛ وذلك لأنَّ

---

(١) ينظر: تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، ١/٥٤.

(٢) ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ابن جماعة، ص٨٤.

(٣) ينظر: مجالس القرآن، د. فريد الأنصاري، ص١٢٥، ١٢٦.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١/١٥٣.

المفتتح قراءته بـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ كأنه يدعي الاستغناء بالمشاهدة عن النطق بالفعل؛ لأن المشاهدة والحال دالة على أن هذا وكل فعل فإنما هو باسمه تبارك وتعالى، والحوالة على شاهد الحال أبلغ من الحوالة على شاهد النطق[1]، وحينما يقول القائل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثم يفتتح سورة يقرؤها، فالحال شاهدة على أن معنى كلامه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ أقرأ، فأغنت هذه الحال المشاهدة السامع عن التصريح بما هو محذوف في الكلام، والذي هو الفعل المتعلق به[2].

(٤٧) لا ينبغي أن يتصرف العبد في شيء من الأعمال والأقوال إلا بعد أن يبتدأ بالبسملة التي تعتبر استئذانًا من العبد لسيده ومولاه سبحانه وتعالى، سواء كان ذلك من العبادات أو العادات تعبيرًا عن مطلق التوكل والخضوع الواقعين بالقلب؛ ولذلك شرع النبي ﷺ بسنته القولية والفعلية اعتماد الأذكار عند بداية كل فعل وتصرف تعبدي أو عادي، من صلاة وصيام وحج، أو بيع وشراء، ودخول وخروج، ومباشرة، ونوم واستيقاظ ... إلخ، كل ذلك له في السنة عبارات من الأذكار تدور حول المعنى الاستئذاني التوكلي الذي شرعت له ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[3].

(١) ينظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ١/٢٥.

(٢) ينظر: جامع البيان، الطبري، ١/١١٤؛ والتفسير البسيط، الواحدي، ١/٤٣٨.

(٣) ينظر: مجالس القرآن، د. فريد الأنصاري، ص١٢٤.

الآية الثانية: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

من الهدايات التي يمكن أن تؤخذ من هذه الآية ما يأتي:

(٤٨) عظم مقام الحمد عند الله تعالى؛ فقد افتتح به كتابه الكريم[١]، مما يدل على المنزلة العظيمة لهذه الكلمة الشريفة[٢].

ويؤيد هذا ما ورد في السنة المطهرة، ففي الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال: ((الطّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض))[٣].

وفي الحديث الآخر أنه ﷺ كان يصلي بالصحابة ﷺ، فلما رفع رأسه من الركوع وقال: ((سمع الله لمن حمده))، قال رجل وراءه: ربنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، فلما انصرف، قال: ((من المتكلم؟)) قال: أنا، قال: ((رأيت بضعة وثلاثين ملكًا يبتدرونها أيهم يكتبها أول))[٤].

---

(١) سبق ذكر الخلاف في عدِّ البسملة آية من الفاتحة، وأنَّ ذلك قول صحيح؛ لثبوتها آية في بعض القراءات المتواترة، وأن عدم عدها آية قول صحيح أيضًا بناء على القراءات المتواترة الأخرى التي لم تثبت البسملة آية من الفاتحة، ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلام منصف حول الخلاف في ذلك، حيث ذكر أنَّ كلا القولين حقّ، وأنّ البسملة يمكن اعتبارها في الفاتحة من وجه دون وجه، بناء على اختلاف السلف وقراءاتهم في ذلك. (ينظر: مجموع الفتاوى، ٣٥١/٢٢)، وعلى هذا يكون الافتتاح بـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ افتتاح نسبي، بل إنَّه يمكن جعل البسملة نوعًا من الحمد، يقول البقاعي رحمه الله: «ولما كانت البسملة نوعًا من الحمد ناسب كل المناسبة تعقيبها باسم الحمد الكلي الجامع لجميع أفراده». (نظم الدرر، البقاعي، ٢٧/١)، ومن العلماء من وفق بين الافتتاح بالحمد بعد البسملة، وجعله من باب الافتتاح الحقيقي والإضافي، فيحمل الابتداء بالبسملة على الابتداء الحقيقي بحيث لا يسبقه شيء، ويحمل الابتداء بالحمدلة على الابتداء الإضافي، وهو ما بعد البسملة. (ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الملا علي القاري، ٣/١)، **وبناء على ما سبق** فكلُّ ما سيذكر في الهدايات الآتية مما يخص الافتتاح بـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ فالمقصود ما تمَّ توضيحه هنا، وبالله التوفيق.

(٢) ينظر: حمد الله ذاته الكريمة في آيات كتابه الحكيمة، د. عماد زهير حافظ، ص١٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي مالك الأشعري ﷺ، كتاب: الطهارة، باب: فضل الوضوء، ٢٠٣/١، رقم [٢٢٣].

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن رفاعة بن رافع الزرقي ﷺ، كتاب: الأذان، باب: فضل (اللهم ربنا لك الحمد)، ١٥٩/١، رقم [٧٩٩].

(٤٩) الاهتمام بشأن الحمد؛ وذلك لتقديمه، وقُدم الحمد على اسم الله تعالى مع أنه أهم؛ «لأنَّ المقام هنا مقام الحمد؛ إذ هو ابتداء أولى النعم بالحمد، وهي نعمة تنزيل القرآن الذي فيه صلاح الناس في الدارين، فتلك المنة من أكبر ما يحمد الله عليه من جلائل صفات الكمال، لا سيما وقد اشتمل القرآن على كمال المعنى واللفظ والغاية، فكان خطوره عند ابتداء سماع إنزاله وابتداء تلاوته مذكرًا بما لمنزله تعالى من الصفات الجميلة، وذلك يذكر بوجوب حمده، وأن لا يغفل عنه؛ فكان المقام مقام الحمد لا محالة، فلذلك قُدِّم، وأزيل عنه ما يؤذن بتأخره لمنافاته الاهتمام»[(١)].

(٥٠) افتتاح الكلام المهم بالتحميد سنة الكتاب المجيد؛ وذلك لافتتاح مناجاة الله تعالى في هذه السورة العظيمة بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ وفي الحديث الشريف: «كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه بالحمد أقطع»[(٢)].

ويتأكد الافتتاح بحمد الله تعالى في مقدمة الدعاء والمناجاة؛ اقتداء بهذا الافتتاح العظيم في مناجاة الله تعالى بهذه السورة العظيمة[(٣)].

(٥١) تقديم المقدمة بين يدي المقصود أقرب للإفهام، وأدعى لوعيها؛ وذلك مأخوذ من تقديم الحمد بين يدي مناجاة علام الغيوب في فاتحة كتابه المجيد[(٤)].

(٥٢) لا يستحق الحمد الكامل وجميع المحامد إلا الله تعالى؛ وذلك مأخوذٌ من الألف واللام في لفظ (الحمد) الدالة على الاستغراق[(٥)]، فكل ما كان حمدًا وثناء فهو

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٥٨.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه عن أبي هريرة ﷺ، كتاب: الأدب، باب: الهدي في الكلام، ٤/٢٦١، رقم [٤٨٤٠]؛ وابن ماجه في سننه، واللفظ له، كتاب: النكاح، باب: خطبة النكاح، ١/٦١٠، رقم [١٨٩٤]، والحديث تكلم فيه بعض العلماء، وحسنه بعضهم، وممن حسَّن الحديث الإمام النووي. ينظر: شرح صحيح مسلم، النووي، ١/٤٣.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٥٢.

(٤) ينظر: المصدر السابق، ١/١٥٤.

(٥) ينظر: جامع البيان، الطبري، ١/١٣٨؛ وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/١٣١.

حق لله تعالى وملكه[1]، وكذلك على القول الآخر بأن الألف واللام تفيد الماهية والحقيقة، فمعناه أنَّ ماهية الحمد حقٌّ لله تعالى وملك له[2].

واختصاص الحمد بالله تعالى وانحصاره مأخوذ أيضًا من اللام في لفظ الجلالة وهي لام الاختصاص، فالله سبحانه وتعالى مختص بالحمد من جميع الوجوه.

كما أنه مأخوذ أيضًا من تعريف الجزأين[3]، ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ معرف بالألف واللام، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ أعرف المعارف.

فالحمد الكامل لا يستحقه إلا الله تعالى؛ لأنَّ النعمة الكاملة لا تحصل إلا من الله تبارك وتعالى[4]، وقد ورد في الحديث عنه ﷺ: ((اللهم لك الحمد كله))[5]، واختصاصه تعالى بالحمد الكامل هو من جميع الوجوه، وعلى العبد أن يستشعر أنَّ كل قضاء لله تعالى فهو محمود عليه؛ ولهذا كان النبي ﷺ إذا أصابه ما يسره قال: ((الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات))، وإذا أصابه خلاف ذلك قال: ((الحمد لله على كل حال))[6].

---

(١) وما كان من حمد أو ثناء لغير الله فهو في الحقيقة راجع إلى الله تعالى، فكل من أنعم على غيره بإنعام فالمنعم في الحقيقة هو الله تعالى، لأنه لولا أنه تعالى خلق تلك الداعية في قلب ذلك المنعم لما أقدم على ذلك الإنعام، ولولا أنه تعالى خلق تلك النعمة، وسلَّط ذلك المنعم عليها، ومكن المنعم عليه من الانتفاع، لما حصل الانتفاع بتلك النعمة، فثبت أنَّ المنعم في الحقيقة هو الله تعالى، وكذلك فإنَّ كل من أنعم على الغير فإنه يطلب بذلك الإنعام عوضًا إما ثوابًا أو ثناء أو تحصيل حق أو تخليصا للنفس من خلق البخل، أو غير ذلك، وطالب العوض لا يكون منعمًا، فلا يكون مستحقا للحمد في الحقيقة، أما الله سبحانه وتعالى فإنه كامل لذاته، والكامل لذاته لا يطلب الكمال، فكانت عطاياه جودًا محضًا وإحسانًا محضًا، فثبت أنه تعالى مستحقٌ للحمد، وأنه لا يستحق الحمد سواه. ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١/١٩٢.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١/١٩٢.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٦٠.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١/١٩٣.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٤/٢٤٧، رقم [١٥٤٩٢]، وقال محقق المسند: رجاله ثقات؛ والحاكم في مستدركه عن عبيد بن رفاعة بن رافع الزرقي ﷺ، كتاب: الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، ١/٦٨٦، رقم [١٨٦٨]، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح؛ وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد. ينظر: صحيح الأدب المفرد، الألباني، ص٢٥٩.

(٦) أخرجه ابن ماجه في سننه عن عائشة رضي الله عنها، كتاب: الأدب، باب: فضل الحامدين، ٢/١٢٥٠، رقم [٣٨٠٣]؛ والحاكم في مستدركه، كتاب: الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، ١/٦٧٧، رقم [١٨٤٠]، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، وحسَّن الحديث الألباني. ينظر: صحيح سنن ابن ماجه، الألباني، ٣/٢٤٥.

(٥٣) عموم حمد الله سبحانه وتعالى؛ وذلك مستفاد من (ال) الجنسية المفيدة للعموم[١]، ومجيء الحمد بهذه الصيغة المفيدة للعموم يفيد دخول حمد الحامد وحمد غيره جميعًا من لدن خلق العالم إلى انتهاء دخول أهل الجنّةِ الجنَّةَ[٢]، وهذا الحمد هو اللائق بجلال الله تعالى، فإذا قال العبد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ فكأنه قال: من أنا حتى أحمده؟ لكنه محمود بجميع حمد الحامدين[٣].

(٥٤) الله تعالى متصف بصفات الكمال والجلال، وإنعامه على العباد إنعام كامل؛ إذ إنَّ الحمد المطلق الكامل لا يستحقه إلا من كان كاملًا في وصفه، كاملًا في فعله[٤]؛ ولهذا خص الحمد بالله ولم يقل الحمد للخالق أو نحوه من بقية الصفات لئلا يتوهم اختصاص استحقاق الحمد بوصف دون وصف[٥]، وجاءت صيغة الحمد بالجملة الخبرية الخبرية لتحمل من الخصوصيات ما يناسب جلالة المحمود بها وكماله، كالدلالة على الدوام، والثبات، والاستغراق، والاختصاص، والاهتمام[٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنَّ إثبات الحمد الكامل له يقضي ثبوت كل ما يحمد عليه من صفات كماله، ونعوت جلاله؛ إذ من عدم صفات الكمال فليس بمحمود على الإطلاق، وغايته أنه محمود من وجه دون وجه، ولا يكون محمودًا بكل وجه وبكل اعتبار بجميع أنواع الحمد إلا من استولى على صفات الكمال جميعها، فلو عدم منها صفة واحدة لنقص من حمده بحسبها»[٧].

(٥٥) الأهمية العارضة ينبغي أن تقدم على الأهمية الأصلية؛ وذلك مأخوذ من الاهتمام بتقديم الحمد على ذكر اسم الله تعالى؛ اعتدادًا بأهمية الحمد العارضة في المقام،

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٥٧.

(٢) ينظر: حاشية الطيبي على الكشاف، شرف الدين الطيبي، ١/٧٢٦.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١/١٩١.

(٤) ينظر: أحكام من القرآن، ابن عثيمين، ١/٢٢.

(٥) ينظر: السراج المنير، الخطيب الشربيني، ١/١٦.

(٦) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٦٢.

(٧) مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٨٦.

وإن كان ذكر الله أهم في نفسه؛ لأن الحمد أمر يقتضيه المقام والحال، والآخر يقتضيه الواقع، والبلاغة هي المطابقة لمقتضى الحال والمقام؛ ولأنَّ ما كان الاهتمام به لعارض هو المحتاج للتنبيه على عارضه إذ قد يخفى[1].

(٥٦) إثبات الاسم العلم ﴿الله﴾ سبحانه وتعالى؛ وذلك لأنَّ الله تعالى أثبت الحمد لذاته العلية بذكر اسمه ﴿الله﴾.

(٥٧) حسنُ مدح الله تعالى لنفسه، وأنه يخالف مدح المخلوقين لأنفسهم؛ لأنَّ حمد المخلوقين لا يخلو عن نقص؛ فلا يخلو مدحه نفسه عن كذب؛ فيقبح منه أن يمدح نفسه، وأما الله جل جلاله فإنه بريء عن النقص والعيب؛ فكان مدحه سبحانه وتعالى لنفسه حسنًا[2].

وكذلك فإنَّ مدح النفس إنما نهي عنه لما يدخل عليها من العجب بها، والتكثر على الخلق من أجلها، فاقتضى ذلك الاختصاص بمن يلحقه التغير، ولا يجوز منه التكثر، وهو المخلوق، ووجب ذلك للخالق؛ لأنه أهل الحمد سبحانه وتعالى[3].

(٥٨) حبُّ الله تعالى للحمد؛ ولذلك أثنى سبحانه وتعالى على نفسه بالحمد في مستهل كتابه في أعظم سورة منه، ويؤيد هذا قوله ﷺ: ((ليس شيء أحب إليه الحمد من الله تعالى؛ ولذلك أثنى على نفسه فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾))[4].

(٥٩) الله سبحانه وتعالى أحق بالعبادة من غيره؛ وذلك لأنَّ الله تعالى بدأ بهذا الاسم ﴿الله﴾ في إسناد الحمد له؛ لأنه يتضمن غاية العبد ومصيره ومنتهاه وما خلق له

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٥٩/١.

(٢) ينظر: تفسير السمعاني، أبو المظفر السمعاني، ٣٥/١.

(٣) ينظر: أحكام القرآن، ابن العربي، ٩/١.

(٤) الحديث ذكره الطبري في تفسيره بإسناده عن الأسود بن سريع ﷺ، وصحح إسناده أحمد شاكر في تعليقه على تفسير الطبري. ينظر: جامع البيان، الطبري، ١٣٧/١؛ وأخرجه أحمد في مسنده بمعناه: ((أما إنَّ ربك عزَّ وجلَّ يحب الحمد))، ٣٥٢/٢٤، رقم [١٥٥٨٦]؛ وأخرجه الحاكم في مستدركه بمعناه كذلك، كتاب: معرفة الصحابة، ذكر الأسود بن سريع، ٧١٢/٣، رقم [٦٥٧٥]، وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

وما فيه صلاحه وكماله، وهو عبادة الله تعالى[1].

(٦٠) تعظيم الله تعالى؛ وذلك بقول العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وسواء كان غافلًا أو مستحضرًا لمعنى التعظيم فإنه يكون صادقًا؛ لأنَّ معناه أنَّ الحمد حق لله وملكه، وهذا المعنى حاصل سواء كان العبد مشتغلًا بمعنى التعظيم والإجلال أو لم يكن[2].

(٦١) الحثُّ والتعليم من الله تعالى لعباده في أول كتابه كيف يثنون عليه ويحمدونه؛ ليكتسبوا بقوله وتلاوته أكمل الثواب وأعظم الأجر؛ وذلك لأنَّ قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وإن كان لفظها لفظ خبر فإنَّ معناها الإنشاء، أي قولوا يا معشر الناس: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3].

ومن شأن العرب أن تحذف ما كان معروفًا عند السامع بدليل ظاهر الكلام، فيقولون للمسافر إذا ودعوه: (مصاحبًا معافى)، يحذفون (سر، واخرج)؛ حيث كان معلومًا عندهم معناه، وإن أُسقط ذكره؛ فكذلك ما حذف من قول الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي قولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، بدليل قول الله سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وهو مما علمهم أن يقولوه ويدينوا له بمعناه، وذلك موصول بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وكأنه قال: قولوا هذا وهذا[4].

(٦٢) الترفق بالمخاطبين والإيناس لنفوسهم؛ حيث جاء الحمد في مقدمة هذه السورة بصيغة الخبر ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ولم يأت بصيغة الأمر، وإن كان يحمل في طياته معنى الأمر (احمدوا الله) أو قولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ وذلك لأنَّ الأمر يقتضى التكليف، والتكليف قد تنفر منه النفوس أحيانًا، فأراد الله سبحانه وهو يبادئهم بشرعة جديدة وتكاليف لم يعهدوها، أن يؤنس نفوسهم، ويؤلف قلوبهم، فساق لهم الخطاب بصيغة

---

(١) ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ١٣/١٤.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٩١/١.

(٣) ينظر: جامع البيان، الطبري، ١٣٩/١؛ والتفسير البسيط، الواحدي، ٤٦٦/١.

(٤) ينظر: جامع البيان، الطبري، ١٣٩/١، ١٤٠.

الخبر؛ ترفقًا بهم، حتى يديموا الإصغاء لما سيلقيه عليهم من تكاليف[١].

(٦٣) الذي يجب أن يحمد ويشكر هو الله وحده لا شريك؛ لأنَّ نفعه للإنسان وجوده عليه لمصلحة الإنسان نفسه، من غير أن يرجع من ذلك على الله بشيء من المنافع على جهة من الجهات[٢].

(٦٤) ينبغي التعرض لإحسان الله تعالى وثوابه؛ لأنَّ من أثنى على واحد فقد تعرض لإحسانه وثوابه[٣]، فكيف بمن أثنى على الله وحمده بأبلغ المحامد.

ويؤيد هذا ما ورد في الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((أفضل الذكر لا إله إلا الله، **وأفضل الدعاء الحمد لله**))[٤].

والحمد لله أفضل الدعاء لأنَّ من حمد الله يحمده على نعمته، والحمد على النعمة طلب المزيد، وهو رأس الشكر، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧][٥].

وتسمية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ دعاء، وهو ثناء محض لأنَّ الحمد يتضمن الحب والثناء، والحب أعلى أنواع الطلب للمحبوب، فالحامد طالب لمحبوبه، فهو أحق أن يسمى داعيًا من السائل الطالب من ربه حاجة ما[٦].

وقديمًا قال الشاعر العربي:

---

(١) ينظر: التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، ١٨/١.

(٢) ينظر: التفسير البسيط، الواحدي، ٤٦٤/١، ٤٦٥.

(٣) ينظر: المصدر السابق، ٤٦٦/١.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: الدعوات، باب: ما جاء في أنَّ دعوة المسلم مستجابة، ٤٦٢/٥، رقم [٣٣٨٣]؛ وابن ماجه في سننه، كتاب: الأدب، باب: فضل الحامدين، ١٢٤٩/٢، رقم [٣٨٠٠]؛ وأخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب: الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، ٦٧٦/١، رقم [١٨٣٤]، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، وحسَّن الحديث الألباني. ينظر: صحيح سنن الترمذي، الألباني، ٣٨٩/٣.

(٥) ينظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، ٢٢٩/٩.

(٦) ينظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ٩/٣، ١٠.

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك إنَّ شيمتك الحياء

كريم لا يغيره صباح ... عن الخلق الجميل ولا مساء

إذا أثنى عليه المرء يومًا ... كفاه من تعرضه الثناء[1]

(٦٥) الحمد أبلغ وأعم من الشكر؛ فقد اختار الله لفظ الحمد، ولا شك في دقة هذا الاختيار؛ وذلك لأنَّ الشكر لا يكون إلا مكافأة لنعمة سبقت إليك[2]، وأيضًا فإنه لا يشكر أحد على ما فيه من الأوصاف الجميلة، وليس كذلك الحمد، فإنه يقع ابتداء قبل الصنيعة، ويقع على الأوصاف المحمودة[3]، وكذلك فإنَّ الحمد يتوجه إلى المنعم على الشخص أو على غيره، أما الشكر فلا يتوجه إلا إلى المنعم على الشخص نفسه، فقول العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثناء على الله بسبب كل إنعام صدر منه ووصل إلى غيره، وأما الشكر لله فهو ثناء بسبب إنعام وصل إلى ذلك القائل، ولا شك أنَّ الأول أفضل لأنَّ التقدير كأنَّ العبد يقول: سواء أعطيتني أو لم تعطني فإنعامك واصل إلى كل العالمين، وأنت مستحق للحمد العظيم[4]؛ ولذلك ورد حمد الله تعالى نفسه ولم يرد شكرها[5]؛ فالحمد أبلغ وأعم وأجمع[6].

---

(١) الأبيات لأمية ابن أبي الصلت، يمدح أحد أجواد العرب المشهورين في الجاهلية. ينظر: شرح ديوان الحماسة، التبريزي، ٣٧٢/٢.

(٢) ولأن الشكر عبارة عن تعظيم الله تعالى بسبب إنعام صدر منه ووصل إليك، وهذا يشعر بأن العبد إذا ذكر تعظيمه بسبب ما وصل إليه من النعمة فحينئذ يكون المطلوب الأصلي له وصول النعمة إليه، وهذه درجة حقيرة، فأما إذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فهذا يدل على أنَّ العبد حمده لأجل كونه مستحقًّا للحمد لا لخصوص أنه سبحانه أوصل النعمة إليه، فيكون الإخلاص أكمل، والانقطاع عما سوى الحق أقوى وأثبت. ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٤٧٢/١٢.

(٣) ينظر: معاني القرآن، النحاس، ٥٧/١؛ والتفسير البسيط، الواحدي، ٤٦٨/١؛ وتفسير السمعاني، أبو المظفر السمعاني، ٣٥/١؛ والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣٤/١.

(٤) ينظر: درج الدرر في تفسير الآي والسور، عبد القاهر الجرجاني، ٨٣/١، ٨٤؛ ومفاتيح الغيب، الرازي، ١٩١/١.

(٥) ينظر: حمد الله ذاته الكريمة في آيات كتابه الحكيمة، د. عماد زهير حافظ، ص١٦.

(٦) وقيل: بين الحمد والشكر عموم وخصوص وقد سبق الكلام على هذا في معاني المفردات ص ٣٤.

(٦٦) بيان عجز العباد عن حمده سبحانه وتعالى؛ ولذا حمد الله نفسه بنفسه، وهذا رسول الله ﷺ يعترف بذلك العجز فيقول: ((لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك))[١][٢].

(٦٧) الحمد أكمل من التسبيح؛ وذلك لأنَّ الله تعالى اختاره للثناء عليه في مفتتح كتابه، بل إنَّ الحمد يدلُّ على التسبيح دلالة تضمن؛ فإن التسبيح يدل على كون الله تعالى مبرأ في ذاته وصفاته عن النقائص والآفات، والتحميد يدل مع حصول تلك الصفة على كونه محسنًا إلى الخلق، منعمًا عليهم، رحيمًا بهم[٣].

(٦٨) الحمد أكمل من المدح؛ إذ الحمد يتضمن الإخبار بمحاسن المحمود، مع المحبة له والرضا به، أما المدح ففيه الإخبار بمحاسنه فقط؛ ولذا كان التعبير بعبارة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أكمل وأدق من غيرها من الألفاظ[٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته والرضا عنه والخضوع له، فلا يكون حامدًا من جحد صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له، وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر كان حمده أكمل، وكلما نقص من صفات كماله نقص من حمده بحسبها، ولهذا كان ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، حمدًا لا يحصيه سواه، لكمال صفاته وكثرتها، ولأجل هذا لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، لما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال التي لا يحصيها سواه»[٥].

سواه»[٥].

(٦٩) الله تعالى محمودٌ قبل حمد الحامدين وقبل شكر الشاكرين، فهؤلاء سواء

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها، كتاب: الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود، ٣٥٢/١، رقم [٤٨٦].

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣٥/١.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٩٤/١.

(٤) ينظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ٩٤/٢؛ وتفسير الفاتحة، ابن رجب، ص٦١.

(٥) مدارج السالكين، ابن القيم، ٤٩/١.

حمدوا أو لم يحمدوا، وسواء شكروا أو لم يشكروا فهو تعالى محمود من الأزل إلى الأبد؛ وذلك للتعبير بصيغة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ المفيدة لذلك الحمد على العموم، دون التعبير بأي صيغة أخرى: كأحمد الله أو نحمد الله أو غيرهما مما يفيد قصر الحمد على نوع معين[1].

(٧٠) جميع ما يفعله الله سبحانه نعمةٌ أو فيه من النعمة ما يستحق به الحمد والشكر؛ فإن المصائب والأمراض كفارات وطهور، فهي نعمة، وإهلاك المكذبين وعقوبة الكافرين نعمة على المؤمنين يحصل لهم بها الاعتبار[2].

(٧١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كما يقع شكرًا على النعم المتقدمة، فإنه يوجب تجدد النعم في الزمان المستقبل؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧][3]؛ ففي الحمد شكر على النعم، والشاكر موعود بالزيادة.

(٧٢) في وقوع الحمد في مستهل الفاتحة مع قول الله تعالى عن أصحاب الجنة: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] أنه ينبغي الختام بالحمد كما ينبغي البدء به.

(٧٣) في استهلال الفاتحة بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، مع قوله ﷺ: ((كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه بالحمد أقطع))[4] أنه ينبغي أن يراعى في الحمد موضعه، فلو أراد افتتاح كلام سوء بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لم يكن هذا موضعًا له، ومثله لو فعل معصية وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وهكذا.

قال الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كلمة شريفة جليلة، لكن لا بد من ذكرها في موضعها، وإلا لم يحصل المقصود منها»[5].

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١/١٩١.

(٢) ينظر: تفسير الفاتحة، ابن رجب، ص٦٣.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١/١٩٥.

(٤) سبق تخريجه ص ٦٨

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي، ١/١٩٥.

(٧٤) عموم الحمد في هذه الآية زمانًا ومكانًا؛ لأنه لم يذكر له هنا في مستهل هذه السورة العظيمة ظرفًا مكانيًّا ولا زمانيًّا، وذكر في سورة الروم أنَّ من ظروفه المكانية السموات والأرض في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ١٨]، وذكر في سورة القصص أنَّ من ظروفه الزمانية الدنيا والآخرة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]، وقال تعالى في أول سورة سبأ: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْآخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١][(١)].

(٧٥) دوام الحمد وثباته لله تعالى؛ وذلك للتعبير بالجملة الاسمية ورفع (الحمد)، وكان الأصل النصب بإضمار فعله على أنه من المصادر التي تنصبها العرب بأفعال مضمرة في معنى الإخبار، كقولهم: شكرًا، وكفرًا، وعجبًا، وما أشبه ذلك، ومنها: سبحانك، ومعاذ الله، ينزلونها منزلة أفعالها ويسدّون بها مسدّها، ومن شأن بلغاء العرب أنهم لا يعدلون عن الأصل إلا وهم يرمون إلى غرض عدلوا لأجله، والعدول عن النصب هنا إلى الرفع ليدلَّ على الدوام والثبات بمصير الجملة اسمية[(٢)]، وعلى أنَّ ثبوت الحمد له تعالى لذاته لا لإثبات مثبت، وعلى أنَّ ذلك أمر دائم مستمر لا حادث متجدد[(٣)].

ومجيء (الحمدُ) مرفوعًا بصيغة الخبر، دون أن يكون منصوبًا يفيد إخبار العبد بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أنَّ الحمد منه ومن جميع الخلق لله تعالى، ولو جيء به منصوبًا لما أفاد تلك الفائدة، ولأفاد أن ذلك القائل يخبر أنَّ الحمد منه وحده لله تعالى[(٤)].

(٧٦) الله تعالى مستحقٌّ للحمد أوّلًا لذاته لا لشيء غيرها، باعتبار أنها حائزة لجميع الكمالات الإلهية، وأنها مصدر جميع الوجود وما فيه من الخيرات والنعم؛ وذلك لإسناد الحمد أوّلًا إلى الذات الإلهية[(٥)].

---

(١) ينظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٥/١.

(٢) ينظر: الكشاف، الزمخشري، ٩/١؛ والتحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٥٧/١.

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١٣/١.

(٤) ينظر: معاني القرآن، النحاس، ٥٧/١.

(٥) ينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١٠٤/٣؛ ونظم الدرر، البقاعي، ٢٧/١.

ويؤكد هذا المعنى أنَّ هذا هو شأن القرآن الكريم في إيراده للحمد من إسناده إلى الذات الإلهية، كقول الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١][(١)].

(٧٧) الرد على منكري تعلق علمه تعالى بالجزئيات؛ وذلك مأخوذ من كمال حمده؛ فكيف يستحق الحمد من لا يعلم شيئًا من العالم وأحواله وتفاصيله، ولا من يطيعه ممن يعصيه، ولا من يدعوه ممن لا يدعوه، وهذا مستحيلٌ أن يكون إلهًا، وأن يكون ربًّا، فلا بد للإله المعبود والرب المدبر أن يعلم عابده، ويعلم حاله[(٢)].

(٧٨) الاعتراف بالنعم الإلهية التي أحاط الله بها عباده؛ وذلك لأنَّ العبد حينما يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ في قراءته وفي صلاته وفي أحواله فإنه يحمده تعالى على تلك النعم العظيمة التي أحاطه وأحاط جميع المخلوقات بها[(٣)].

(٧٩) حقٌّ على المخلوقات كلها أن تحمد الله تعالى وتشكر له؛ فهو الرب الخالق المالك السيد المنعم، وهذا الحق لازم لها لا انفكاك لها منه، إن لم تؤده اختيارًا أدته اضطرارًا، وإن لم يفصح عنه ظاهرها نمَّ عليه باطنها، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤][(٤)].

(٨٠) إخلاص التوحيد لله تعالى؛ وهذا مأخوذ من اللام الداخلة على قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فإنها تفيد أنَّ كل حمد له تعالى لا يشاركه فيه غيره، وفي هذا أعظم دلالة على إخلاص توحيده، وكذلك مأخوذ من قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنَّ لفظ (الرب) باعتبار معناه اللغوي مشعر أتم إشعار بإخلاص توحيده، ثم في معناه الإضافي ﴿رَبِّ

(١) ينظر: حمد الله ذاته الكريمة في آيات كتابه الحكيمة، د. عماد زهير حافظ، ص٢٣.

(٢) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٨٩/١.

(٣) ينظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ١٨/١.

(٤) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ١٨/١؛ وتهذيب التفسير وتجريد التأويل، عبد القادر شيبة الحمد، ١٢/١.

﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دلالة أخرى؛ فإنَّ كونه (رب العالمين) يدل على ذلك أبلغ دلالة، ثم في لفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ معنى ثالث لما تقرر أنَّ العالمين هو اسم لما عدا الله عز وجل؛ فيدخل في هذا كل شيء غير الله سبحانه فلا رب غيره؛ وكل ما عداه فهو مربوب[1].

(٨١) تربية النفوس على شكر الجميل، ورعاية حقوق أصحاب الفضل، وعلى رأسهم الله تعالى الذي منه كل نعمة وبيده كل خير، والأمة التي تعرف فضل ربها وتشكره، وتعرف فضل الفضلاء من البشر هي أمة خير، ومن هنا كان الحمد عنوان كل صلاح وفلاح[2].

(٨٢) أبلغ المحامد وأجلّ صيغ الحمد ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنَّ الله تعالى حمد بها نفسه، و«لأنها فاتحة الكتاب، وخاتمة دعوى أهل الجنة»[3]، فمهما أوتي الناس من بلاغة وقدرة على التعبير فهم عاجزون عن أن يصلوا إلى صيغة الحمد التي تليق بجلال المنعم، وهذا أبلغ العباد ﷺ يعترف بذلك فيقول: ((لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك))[4][5].

والقرآن الكريم علمنا أن نشكر الله ونحمده بكمال حمده وشكرانه، فـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ كلمة حمد وشكر عظمى جامعة مانعة، جامعة لكل حمد يليق بشؤون الربوبية العليا، مانعة من دخول أي أحد سواه فيما يليق به سبحانه وتعالى من الحمد والثناء، وكفى بها نعمة على العالمين، فـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[6].

(٨٣) الله تعالى فاعلٌ مختار يفعل ما يشاء، وذلك مأخوذ من إثبات حمده تعالى؛ إذ كيف يحمد على ما ليس مختارًا لوجوده، ولا هو بمشيئته وفعله؟ وإنما يحمد الفاعل

---

(١) ينظر: فتح البيان في مقاصد القرآن، محمد صديق خان القنوجي، ١/٥٧.

(٢) ينظر: دراسات في هدايات سورة الفاتحة، د. طه عابدين، ص٨٧.

(٣) الإكليل في استنباط التنزيل، السيوطي، ص٢٥.

(٤) سبق تخريجه ص ٧٥.

(٥) ينظر: تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، ١/٥٥.

(٦) ينظر: مجالس القرآن، د. فريد الأنصاري، ص١٢٨.

المختار بقدرته ومشيئته على أفعاله الحميدة، هذا الذي ليس في العقول والفطر سواه؛ وكذلك فإنَّ إثبات ربوبيته تعالى للعالمين يقتضي فعله بمشيئته واختياره وتدبيره وقدرته، وليس يصح في عقل ولا فطرة ربوبية الشمس لضوئها، والماء لتبريده، والنبات الحاصل به، ولا ربوبية شيء أبدًا لما لا قدرة له عليه البتة[1].

(٨٤) إثبات استحقاق الله سبحانه وتعالى للحمد؛ وذلك للوصف بـ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بعد إشعار لفظ الجلالة (الله) الحائز لجميع الكمالات بذلك، فهو الرب المالك المنعم، أي أنه تعالى مستحق للحمد؛ لألوهيته ولأنه ربُّ العالمين[2].

فالله تعالى مستحق للحمد لوصفه كما أنه مستحق له بذاته؛ وذلك لأنه تعالى عقَّب ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بالوصف بقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ووصف المتعلق متعلق أيضًا، فلذلك لم يقل: الحمد لرب العالمين، والجمع بينهما إشارة إلى أنَّ كلا مدلولي الموصوف والصفة جدير بتعلق الحمد له[3].

(٨٥) إشعار العباد بأنهم مكرمون من ربهم؛ وذلك لأنَّ الله تعالى أجرى على لفظ الجلالة نعت الربوبية للعالمين، ليكون كالاستدلال على استحقاقه تعالى للحمد وحده؛ إذ الأمر بغير توجيه فيه إيماء إلى إهمال عقولهم، أما إذا كان موجهًا ومعللًا فإنه يكون فيه إشعار لهم برعاية ناحية العقل فيهم؛ وفي تلك الرعاية تشريف وتكريم لهم[4].

(٨٦) ينبغي للحامد والشاكر أن يصرح باسم المنعم العَلم قبل الوصف؛ ليكون صريحًا في قصده بالشكر، ويخصصه به؛ وذلك لإسناد الحمد أولًا إلى ﴿الله﴾ تعالى الاسم العلم، قبل وصفه بـ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5].

(٨٧) نعم الله تعالى تستوجب الحمد؛ فهو سبحانه وتعالى مصدر النعم التي

---

(١) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٨٨/١.

(٢) ينظر: نظم الدرر، البقاعي، ٢٧/١؛ والتفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ١٨/١.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٦٦/١.

(٤) ينظر: التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، ١٩/١.

(٥) ينظر: الفوائد اللائحة من معاني الفاتحة، ابن جماعة، ص٢٩.

تستوجب الحمد، وأهمها نعمة الإيجاد والتربية، وذلك صريح قوله سبحانه وتعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

(٨٨) ينبغي التنويه بالنعمة عند شكرها؛ وهذا مأخوذ من الوصف بـ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بعد إثبات الحمد لله تعالى؛ لأنَّ لفظ (الرب) مشعر بالنعمة، فالرب هو القائم بمصالح المربوب، والإنعام عليه بمطالبه وحاجاته[2].

(٨٩) المدح لا ينبغي أن يكون إلا لمن هو أهل له، ولمقتضٍ لذلك، وإلا فهو زور وباطل؛ لأنَّ الله تعالى لما حمد نفسه ذكر ما يقتضي ذلك، وأنه تعالى أهل له، وذلك بالوصف بقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[3].

(٩٠) في وصف لفظ الجلالة ﴿الله﴾ بـ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، مع تكرّر هذا الوصف لله تعالى في القرآن الكريم بشأن استحقاق الحمد في سبعة مواضع من القرآن الكريم[4]، في ذلك دلالة على أنّ استحقاق الله تعالى للحمد بربوبيته للعالمين هو في أوّل درجات الاستحقاق الوصفي وأعلاها؛ وذلك لأنّ ربوبيته تعالى للعالمين تقتضي تربيته لهم وتدبيره وإصلاحه لأمورهم وشؤونهم بما أسبغ عليهم من نعمه الظاهرة والباطنة[5].

(٩١) في وصف لفظ الجلالة ﴿الله﴾ بـ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، مع إرداف ذلك بأوصاف أخرى لله تعالى في هذه السورة المباركة تذكيرٌ بصفات الكمال والجلال التي تميزه

---

(١) ينظر: تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، ١/٢٤.

(٢) ينظر: الفوائد اللائحة من معاني الفاتحة، ابن جماعة، ص٢٩.

(٣) ينظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ١/١٤؛ واللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب، د. سليمان اللاحم، ص٣٠١.

(٤) وهذه المواضع هي: في سورة الفاتحة، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٢]، وقوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: ٣٦].

(٥) ينظر: حمد الله ذاته الكريمة في آيات كتابه الحكيمة، د. عماد زهير حافظ، ص٢٣، ٢٤.

سبحانه وتعالى عن الآلهة المزعومة عند الأمم من الأصنام والأوثان والعناصر[1].

ولهذا ذم الله تعالى آلهة الكفار، وعابها بسلب أوصاف الكمال عنها، فعابها بأنها لا تسمع ولا تبصر، ولا تتكلم ولا تهدي، ولا تنفع ولا تضر، قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام في محاجته لأبيه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢][2].

(٩٢) في وصف لفظ الجلالة ﴿الله﴾ بـ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، مع إرداف ذلك بأوصاف أخرى لله تعالى في هذه السورة المباركة بيانُ أنّ من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحقّ منه بالحمد والثناء[3].

يقول ابن القيم رحمه الله: «في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد، وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها ما يدلّ على أنّه محمود في إلهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إله محمود، ورب محمود، ورحمان محمود، وملك محمود، فله بذلك جميع أقسام الكمال: كمال من هذا الاسم بمفرده، وكمال من الآخر بمفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر»[4].

(٩٣) تقديم وصف الله تعالى بالألوهية على وصفه بالربوبية؛ وذلك لتقدم اسم (الله) العلم، ثم المجيء بوصف الربوبية ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5].

(٩٤) إقرار العبد على نفسه بضعفه وفقره وحاجته إلى ربه في أمور دينه ودنياه؛ لأنَّ قول العبد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يتضمن الإقرار والاعتراف لله جل وعلا بالكمال من جميع الوجوه، وبالفضل والإنعام والإحسان، ويتضمن ضعف المخلوقين وعجزهم وفقرهم، وهذا من أجلِّ أنواع العبادة لله وأفضلها، بأن يعترف العبد لله بالكمال

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٦٦.
(٢) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٤٩.
(٣) ينظر: الكشاف، الزمخشري، ١/١٢، ١٣.
(٤) مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٥٨.
(٥) ينظر: تفسير القرآن الكريم (الفاتحة – البقرة)، ابن عثيمين، ١/١٠.

المطلق من جميع الوجوه، ويدخل على ربه من باب الذلة والانكسار، ولا يعجب بعملة، وقد كان هذا دأب الأنبياء والمرسلين والصالحين من أممهم يدعون ربهم متذللين خاضعين سائلين ربهم المغفرة[١].

ويؤيد هذا قوله ﷺ: ((اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي، وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعًا، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت))[٢].

(٩٥) إثبات رب ومربوب، وهذا يدل على التباين بين الخالق والمخلوق، ويكون في ذلك الرد على أهل الإلحاد القائلين بوحدة الوجود[٣].

(٩٦) الله تعالى هو السيد الذي لا شبه له ولا مثل في سؤدده؛ وذلك لأنَّ من معاني الرب السيد المطاع[٤].

(٩٧) الله تعالى هو المالك لجميع المخلوقات، المتصرف فيها كما يشاء؛ وذلك لأنَّ الرب يأتي بمعنى المالك المتصرف[٥].

(٩٨) الله تعالى هو مدبر الخلائق وسائس أمورها ومبلغها غاية كمالها؛ وذلك لأنَّ (رب) يأتي بمعنى رباه وساسه، والتربية تبليغ الشيء إلى كماله تدريجًا[٦].

(٩٩) الله سبحانه وتعالى لم يخلق الكون ثم يتركه هملًا؛ فهو (ربُّ العالمين)، يتصرف فيه بالإصلاح، ويرعاه، ويربيه[٧].

---

(١) ينظر: اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب، د. سليمان اللاحم، ص٣٠٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن علي ﷺ، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه، ٥٣٤/١، رقم [٧٧١].

(٣) ينظر: أحكام من القرآن، ابن عثيمين، ٢٣/١.

(٤) ينظر: جامع البيان، الطبري، ١٤٢/١.

(٥) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٣١/١.

(٦) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٦٦/١.

(٧) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢٢/١.

(١٠٠) اسم (الرب) أحق بالاستعانة والمسألة؛ لما في هذا الاسم من معاني التربية والتدبير والإصلاح؛ ولذلك ورد هذا الاسم كثيرًا في أدعية القرآن الكريم على لسان الأنبياء والصالحين، كقوله تعالى حكاية عن آدم وحواء عليهما السلام: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ [نوح: ٢٨]، وقوله تعالى حكاية عن دعاء مؤمني هذه الأمة: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ﴾ [البقرة: ٢٨٦][(١)].

(١٠١) كمال غنى الله تعالى، وفقر العالمين إليه بكل وجه واعتبار؛ لأنه المنفرد بالخلق والتدبير والنعم، والخلق كلهم محتاجون إليه؛ فهو ربُّ العالمين[(٢)]، ولا قيام للمربوب إلا بالرب؛ فهو القائم على غيره من كل وجه[(٣)].

(١٠٢) إثبات معنى الإلهية الحقة؛ وهذا يفوق ما كان الكفار ينعتون به آلهتهم من قولهم إله بني فلان، فقد كانت الأمم تتخذ آلهة خاصة لها، كما حكى الله عن بعضهم: ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨]، وقال: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وكانت لبعض قبائل العرب آلهة خاصة، كاللات والعزى ومناة؛ فوصف الله تعالى نفسه بأنه (ربُّ العالمين) كلهم لإثبات الإلهية الحقة وإبطال ما عداها[(٤)].

(١٠٣) تربية الله تعالى لعموم الخلق تشمل خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدنيا، وهذه تربية عامة، وتشمل كذلك تربية الله تعالى لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكمله لهم، ولعل هذا المعنى هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء المذكورة في القرآن بلفظ الرب؛ فإن مطالبهم كلها داخلة تحت

---

(١) ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ١٣/١٤.

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٩.

(٣) ينظر: أحكام من القرآن، ابن عثيمين، ٢٣/١.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٧٦/١.

ربوبيته الخاصة[1].

وعنايةُ الله تعالى بالعالمين جميعًا – بالتربية والتهذيب للعوالم العاقلة الناطقة، والإلهام بالنافع للعوالم غير العاقلة الناطقة – آثارها واضحة ساطعة؛ فهو سبحانه وتعالى ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، الشامل بربوبيته للخلق أجمعين[2].

(١٠٤) في الآية إشارة إلى إرسال الرسل إلى الناس لتهذيبهم وإرشادهم؛ لأنَّ ربوبيته تعالى للعالمين تقتضي هذه التربية الدينية التهذيبية؛ فليس لغير الله تعالى أن يشرع للناس عبادة، ولا أن يحرم عليهم ويحل لهم من عند نفسه إلا بإذن منه سبحانه وتعالى[3].

(١٠٥) كل مخلوق دلالة وعلامة على وجود صانعه وخالقه سبحانه وتعالى؛ وذلك لأنَّ (العالمين) مشتق من (العَلَم) و(العلامة)، وهو اسم عام لجميع المخلوقات التي تدل على الخالق جلَّ وعلا، ويدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣ – ٢٤][4].

والاستدلال على الله سبحانه وتعالى كما أنه يكون بمجموع ما سواه ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنه يكون بكل جنس من أجناسه (عالم)، وكذلك يستدل عليه تعالى بكل فرد من أفراد تلك الأجناس؛ فإنَّ كل ما ظهر كائنًا ما كان دليل لائح على الصانع المجيد، وسبيل واضح إلى عالم التوحيد[5].

(١٠٦) استغراق ربوبيته لجميع أفراد العالمين وعمومها؛ لأن التعريف في ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ للاستغراق، وكذلك جمع العالمين وعدم الإتيان به مفردًا قرينة على ذلك[6].

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٩.

(٢) ينظر: المقتطف من عيون التفاسير، مصطفى الحصن المنصوري، ١٦/١.

(٣) ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٤٣/١؛ وتفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، ٣٠/١.

(٤) ينظر: الكشف والبيان، الثعلبي، ١١٢/١؛ والتفسير البسيط، الواحدي، ٤٨٩/١.

(٥) ينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١٤/١.

(٦) ينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١٤/١؛ والتحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٦٨/١.

ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

(١٠٧) العوالم كثيرة لا يعلمها إلا الله تعالى، فهناك الملائكة والإنس والجن والدواب وغيرهم، وكلٌّ منها عالم بمفرده؛ ولذلك جمعها فقال: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولو أُفرد وقيل: رب العالم؛ لاحتمل الاستغراق شمول أفراد كل ما يصح عليه إطلاق اسم العالم، فلا تُعلم تعدد الأجناس وكثرتها كالجن والإنس والملائكة وغيرها كما تعلم من الجمع؛ فجُمع ليشمل ذلك المعنى[١].

(١٠٨) عظمة الله تعالى؛ لأنه ربُّ العالمين، ربُّ كل المخلوقات على كثرتها، التي نراها والتي لا نراها، ويدل لذلك جواب موسى عليه السلام لفرعون حينما سأله عن رب العالمين: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣ - ٢٤]؛ فأجابه بالمُلك العظيم لله العظيم ربِّ العالمين.

(١٠٩) العالمون وإن كثروا فإنهم قليلون في جنب عظمة الله تعالى وكبريائه؛ وذلك لأنَّ (العالمين) جمع قلة، وجمع الكثرة (عوالم)، فاختير جمع القلة مع أن المقام يستدعي جمع الكثرة لتلك الفائدة[٢].

(١١٠) ينبغي وصف المحسن بأعم صفات إحسانه؛ فهو أبلغ في المدح، وأدعى للشكر[٣]؛ وذلك لأنَّ لفظ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جاء بصيغة الجمع الدالة على العموم.

(١١١) الموجودات مفتقرة إلى الله تعالى حال بقائها كافتقارها إليه حال حدوثها؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى قال: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولم يقل: (خالق العالمين)، فقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ جميع العالمين مفتقرون إليه في حال بقائهم، وخصه سبحانه بالذكر تنبيهًا على أن كل ما سوى الله فإنه لا يستغنى عنه لا في حال حدوثه ولا في حال بقائه[٤].

---

(١) ينظر: حاشية الطيبي على الكشاف، شرف الدين الطيبي، ٧٣١/١.

(٢) ينظر: السراج المنير، الخطيب الشربيني، ١٧/١؛ وروح المعاني، الآلوسي، ٨٠/١.

(٣) ينظر: الفوائد اللائحة من معاني الفاتحة، ابن جماعة، ص٣١.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٦١/١، ١٦٢؛ وأنوار التنزيل، البيضاوي، ٢٨/١.

(١١٢) وجود الإله القادر الحكيم سبحانه وتعالى؛ لأنَّ هذا العالم المحسوس بما فيه من السموات والأرضين والجبال والبحار والمعادن والنبات والحيوان وغير ذلك محتاجٌ إلى مدبر يدبره، وموجود يوجده، ومربٍّ يربيه، ومبقٍ يبقيه، فكان في قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارة إلى ذلك، وفيه أيضًا إشارة إلى أنَّ كل ما سوى الله تعالى محتاج في وجوده إلى إيجاده، وفي بقائه إلى إبقائه، وهذا برهان باهر ودليل قاطع على وجود الإله الحكيم القادر سبحانه وتعالى[١].

(١١٣) إثبات علم الله تعالى الشامل، وقدرته التامة؛ وذلك مأخوذ من قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ إذ مقتضي ربوبيته للعالمين وخلقة لهم أن يكون عالمًا بهم وبأحوالهم، وأن يكون ذا قدرة تامة نافذة فيهم، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢][٢].

(١١٤) لا صحة ولا قبول للتفاخر بالأموال والأولاد والأوطان والدماء والألسنة والألوان؛ لأنَّ البشر جميعًا ممن تعنيهم لفظة ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهم مخلوقون لرب واحد، من ذكر وأنثى، ومشتركون في الأب الواحد والأم الواحدة؛ فلا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

والواجب على كل إنسان خصه الله بشيء من فضله أن يتخذ ذلك حافزًا له على مضاعفة حمده وشكره لله تعالى، لا أن يتخذ ذلك وسيلة للفرح والمرح والفخر وتصعير خده للناس[٣].

(١١٥) الرد على من قال بقدم العالم؛ ففي إثبات ربوبيته للعالمين ما يقتضي أنَّ

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١/١٦١.

(٢) ينظر: اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب، د. سليمان اللاحم، ص٣٠٧.

(٣) ينظر: تأملات في سورة الفاتحة، د. حسن باجودة، ص٧١، ٧٣.

كل ما سواه مربوب مخلوق بالضرورة، وكل مخلوق حادث بعد أن لم يكن[1].

وكذلك في الآية الرد على الملاحدة الذين يرون أنَّ العالم ليس له رب، وإنما هو الذي كون نفسه، والطبيعة هي التي تكون الأشياء وتوجدها؛ وذلك لأنَّ اللهَ (ربُّ العالمين)، وهو خالق الخلق أجمعين، وكل مخلوق دليل وعلامة على الخالق جلَّ وعلا، كما أنَّ دعوى إيجاد الطبيعة للأشياء منقوضة عقلًا؛ فلا يمكن وجود مخلوق بدون خالق، ولا فعل بدون فاعل، وهذا الكون البديع، وهذا الخلق دليلٌ على الخالق الذي أوجده وصرَّفه ودبره وكونه؛ فتبارك الله ربُّ العالمين[2].

(١١٦) على المرء أن يحسن تربية نفسه وتربية من يوكل إليه تربيته من أهل وولد وتلميذ؛ وهذا يؤخذ من قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ فعلى العبد أن يأخذ حظه من وصف الله تعالى بالربوبية وذلك بتربية نفسه ومن توكل إليه تربيته[3].

(١١٧) رحمة الله تعالى في ربوبيته لخلقه، فهو يمهل العاصي، ويفتح أبواب التوبة لكل من يلجأ اليه؛ وذلك للمجيء بوصف ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بعد الوصف بـ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فالله تعالى رب الجميع من أطاعه ومن عصاه، وهذه رحمة، والله قابل للتوبة عن عباده، وهذه رحمة[4].

---

(١) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٩٣/١.

(٢) ينظر: تدبر سورة الفاتحة، د. ناصر العمر، ص٣٦.

(٣) ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٤٤/١.

(٤) ينظر: تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، ٥٤/١.

الآية الثالثة: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

سبق الحديث عن شيء من هدايات هذين الاسمين العظيمين في سياق الحديث عن هدايات البسملة، ويبقى الحديث هنا عن الهدايات المتعلقة بهذه الآية من حيث تكرارها في الفاتحة[1]، ومن حيث السياق الذي وردت فيه.

ومن الهدايات التي يمكن أن تؤخذ هنا ما يأتي:

(١١٨) الثناء على الله تعالى بهذين الاسمين الجليلين؛ فقد قال ﷺ: ((قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال العبد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، يقول الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال الله تعالى: **أثنى عليَّ عبدي** ...))[2].

(١١٩) التنبيه على عظم قدر هذين الاسمين العظيمين والصفتين الجليلتين لله سبحانه وتعالى[3]؛ وذلك لتكرارهما مرتين في هذه السورة المباركة[4].

(١٢٠) الترغيب في لزوم حمد الله تعالى؛ وذلك لوصف الله تعالى بأنه الرحمنُ الرحيم، بعد وصفه بكونه ربًّا للعالمين موجدًا لهم، وإجراء هذه الأوصاف على الله تعالى يشعر بالتعليل لحمده تعالى، وفي التعليل بأنَّ ربوبيته عز وجل مبنية على الرحمة الواسعة ترغيب عظيم في لزوم حمد الله تعالى.

(١٢١) الله سبحانه وتعالى محمود في رحمانيته، وهو رحمن محمود؛ وذلك لإيراد هذين الاسمين ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ضمن أسماء أخرى لله تعالى بعد ذكر حمده تعالى،

---

(١) وذلك بجعل البسملة آية من الفاتحة بناء على الترجيح الذي ذُكر سابقًا.

(٢) سبق تخريجه ص ١٤.

(٣) يمكن أن يقال عن ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إنهما اسمان لله تعالى أو وصفان من أوصاف الرب جلَّ وعلا، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ((أسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت؛ فإنها دالة على صفات كماله، فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية)). بدائع الفوائد، ابن القيم، ١/٢٤.

(٤) ينظر: البحر المحيط، أبو حيان، ١/١٣٢.

وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها[١].

(١٢٢) الله سبحانه وتعالى هو المستحق للحمد، ولا مستحق له سواه؛ وذلك لوصف الله تعالى بأنه (الرحمنُ الرحيم)، المنعمُ على العالمين بالنعم كلها ظاهرها وباطنها عاجلها وآجلها، بعد وصفه بكونه ربًّا للعالمين موجدًا لهم، وترتّب الحكم على الوصف يشعر بعليته له، وللإشعار من طريق المفهوم على أنَّ من لم يتصف بتلك الصفات لا يستأهل لأن يحمد فضلاً عن أن يعبد[٢]، وكذلك فإنَّ مضمون الجملة والوصف أنَّ من كان موصوفًا بالربوبية والرحمة للمربوبين كان مستحقًّا للحمد[٣].

(١٢٣) شمول رحمة الله تعالى، التي يجدها كل موجود في نفسه، وفيما حوله؛ ولهذا كان حمد الله واقعًا بين هاتين الصفتين، كأنه تعقيب عليهما أوّلًا، وكأنهما تعليل له ثانيًا[٤].

(١٢٤) ينبغي تعداد صفات المحسن عند شكره وبث إنعامه؛ لأنه أبلغ في شكره وأدعى لمعروفه[٥]، يؤخذ هذا من وصف الله تعالى بعد حمده بأنه ربُّ العالمين، الرحمنُ الرحيم.

(١٢٥) هذا الكون وهذا الوجود لا صلاح له إلا برحمة الله تعالى؛ فهو سبحانه يربُّ العالمين ويصلحهم برحمته الشاملة، فسبحان الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[٦]؛ فالسمة البارزة في ربوبية الله تعالى هي رحمته الشاملة التي تستدعي الحمد والثناء[٧].

(١٢٦) التربية للعالمين بتفضل من الله تعالى؛ لأنَّ التربية في الأصل لا تقتضي

---

(١) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٥٨/١.

(٢) ينظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢٨/١.

(٣) ينظر: البحر المحيط، أبو حيان، ١٣٢/١.

(٤) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ١٨/١.

(٥) ينظر: الفوائد اللائحة من معاني الفاتحة، ابن جماعة، ص٣٢.

(٦) ينظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٥٩/١.

(٧) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢٤/١.

الرحمة؛ فإيراد ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في عقبها للإيذان بأنه تعالى متفضل فيها، فاعل بقضية رحمته السابقة من غير وجوب عليه، وبأنها واقعة على أحسن ما يكون[1].

(١٢٧) تربية الله سبحانه وتعالى للعالمين ليست لحاجة به إليهم كجلب منفعة أو دفع مضرّة، وإنّما هي لعموم رحمته وشمول إحسانه؛ وذلك للمجيء بهذين الوصفين بعد الوصف بـ ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2].

(١٢٨) ربوبية الله سبحانه وتعالى ربوبية رحمة وإحسان، لا ربوبية قهر وجبروت[3]؛ وجبروت[3]؛ فربوبية الله عز وجل مبنية على الرحمة الواسعة للخلق الواصلة؛ لأنه تعالى لما قال: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ كأنَّ سائلًا يسأل: ما نوع هذه الربوبية؟ هل هي ربوبية أخذ وانتقام؟ أو ربوبية رحمة وإنعام؟ قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[4].

ولما كان الوصف بـ ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قد يثير في النفوس شيئًا من الخوف أو الرهبة قرن الله سبحانه وتعالى كونه مربيًّا، بكونه الرحمن الرحيم، ليفهم عباده بأنَّ ربوبيته لهم مصدرها عموم رحمته وشمول إحسانه، فهم برحمته يوجدون، وبرحمته يتصرفون ويرزقون، وبرحمته يبعثون ويسألون[5].

(١٢٩) التعظيم للموصوف، وهو الله تعالى؛ لأنّ تكرار الوصف بـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مما يشعر بذلك[6].

(١٣٠) بعث الأمل في نفوس العباد في العفو إذا زلوا، وتقوية رجائهم إذا عصوا، حتى لا ييأسوا ويقنطوا؛ وذلك لأنه تعالى بدأ بالوصف بالربوبية الدالة على أنه تعالى السيد المالك المعبود المتصرف في عبيده، ثم وصف نفسه بـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ليحصل

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١٥/١.

(٢) ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٤٣/١.

(٣) ينظر: المصدر السابق، ٤٣/١؛ وتفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، ٣١/١.

(٤) ينظر: تفسير القرآن الكريم (الفاتحة – البقرة)، ابن عثيمين، ١١/١.

(٥) ينظر: التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، ١٩/١.

(٦) ينظر: البحر المحيط، أبو حيان، ١٣٢/١.

هذا الأمل والرجاء في نفوس العباد[1].

(١٣١) تحبب الله عزَّ وجلَّ إلى عباده؛ وذلك لأنه عرفهم أنَّ ربوبيته ربوبية رحمة وإحسان؛ ليتعلقوا به ويقبلوا على اكتساب مرضاته، منشرحة صدورهم، مطمئنة قلوبهم.

ولا ينافي عمومُ الرحمة وسبقُها ما شرعه الله من العقوبات في الدنيا، وما أعده من العذاب في الآخرة للذين يتعدون الحدود، وينتهكون الحرمات، فإنه في حقيقته وغايته من الرحمة؛ لأنَّ فيه تربية للناس وزجرًا لهم عن الوقوع فيما يخرج عن حدود الشريعة الإلهية، وفي الانحراف عنها شقاؤهم وبلاؤهم، وفي الوقوف عندها سعادتهم ونعيمهم[2].

(١٣٢) ترغيب العباد في التعلق بالله تعالى وحبه، لأنَّه تعالى هو الذي شمل الخلائق جميعًا برحمته، والربوبية التي يربي الله عز وجل فيها الخلائق بألوان التربية مبنية على رحمته، وإلا لم نجد شيئًا ننتفع به ولا نأكله، ولم يُسخَّر لنا شيء من هذه الأشياء التي في الكون، وإنما سخر لنا ذلك جميعًا، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل، كل ذلك رحمة من عنده، فهو الرب والمالك والسيد والمربي والمتصرف في شؤوننا، وهو أيضًا رحيم بنا، والقلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، وهل بعد هذا الإحسان من إحسان[3]؟

(١٣٣) على المربي أن يكون رحيمًا بمن يربيهم، وأن يتحلى بالرحمة في تعامله معهم؛ وذلك لأنَّ الرب العظيم سبحانه وتعالى في تربيته لعباده رحمن رحيم بهم.

(١٣٤) الخلق المربوبون ضعفاء، واحتياجهم للرحمة واضح وظاهر؛ ولذا فإن الله سبحانه وتعالى أجرى هذين الوصفين العليين ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ على اسم الجلالة بعد وصفه بـ ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[4].

(١٣٥) التنبيه على أنَّ النعم الجليلة التي تتضمنها صفة الربوبية «وصلت إلينا بطريق الرفق واليسر ونفي الحرج، حتى في أحكام التكاليف والمناهي والزواجر فإنها مرفوقة

(١) ينظر: البحر المحيط، أبو حيان، ١/١٣٢.

(٢) ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ١/٤٣.

(٣) ينظر: تدبر سورة الفاتحة، د. ناصر العمر، ص٣٨.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٧٣.

باليسر بقدر ما لا يبطل المقصود منها، فمعظم تدبيره تعالى بنا هو رحمات ظاهرة كالتمكين من الأرض وتيسير منافعها، ومنه ما رحمته بمراعاة اليسر بقدر الإمكان مثل التكاليف الراجعة إلى منافعنا كالطهارة وبث مكارم الأخلاق، ومنها ما منفعته للجمهور فتتبعها رحمات الجميع؛ لأن في رحمة الجمهور رحمة بالبقية في انتظام الأحوال كالزكاة»[1].

(١٣٦) التأكيد على رحمة الله تعالى ليتقرر ذلك في النفوس؛ وذلك مأخوذ من تكرار الوصف بـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في هذه السورة فإنه يفيد التأكيد[2]، ويفيد أنَّ العناية بالرحمة أكثر من غيرها من الأمور، وأنَّ الحاجة إليها أكثر، والله هو المتفضل بها على خلقه[3].

(١٣٧) الرد على منكري تعلق علمه تعالى بالجزئيات؛ وذلك مأخوذ من إثبات رحمته؛ فإنه يستحيل أن يرحم من لا يعلم[4].

(١٣٨) إثبات النبوات والرد على منكريها؛ وذلك مأخوذ من كونه رحمانًا رحيمًا؛ فإن رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم، فمن أعطى اسم الرحمن حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب؛ كما أنَّه من كمال رحمته تعالى أن يعرف عباده نفسه وصفاته ويدلهم على ما يقربهم إليه، ويباعدهم منه، ويثيبهم على طاعته، ويجزيهم بالحسنى، وذلك لا يتم إلا بالرسالة والنبوة، فكانت رحمته تعالى مقتضية لها[5].

(١٣٩) في هذه الآية مع ما بعدها الجمع بين أسلوبي الترغيب والترهيب؛ فقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يتضمن الترغيب، وقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ يشعر بالرهبة منه في ذلك اليوم العظيم.

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٧٣.

(٢) ينظر: تفسير السمعاني، أبو المظفر السمعاني، ١/٣٦؛ والبحر المحيط، أبو حيان، ١/١٣٢.

(٣) ينظر: لباب التأويل، الخازن، ١/٢٠؛ ومفاتيح الغيب، الرازي، ١/٢٠٨.

(٤) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٩٠.

(٥) ينظر: المصدر السابق، ١/٣٢، ٩١.

والجمع في صفاته سبحانه وتعالى بين الرهبة منه والرغبة إليه أعونُ على طاعته وأمنع، كما قال الله تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩ - ٥٠]، وقال الله تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [غافر: ٣]، وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد))[1][2].

وينبغي للعلماء والدعاة وطلبة العلم أن يستخدموا أسلوب الجمع بين الترغيب والترهيب، وأن يكون حديثهم في المقام الأول عن رحمة الله تعالى، وأن يقدموا للناس الدين بالرفق واللين؛ وقد كان رسول الله ﷺ رفيقًا في دعوته وحديثه مع الناس، رحيمًا بهم، قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

(١٤٠) في الآية إشارة إلى أنَّ رحمة الله غلبت غضبه؛ وذلك للمجيء بهذين الوصفين المشعرين بالرحمة الواسعة والفضل العظيم، قبل الوصف بقوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ المشعر بالرهبة منه في ذلك اليوم العظيم، ويؤيد ذلك تكرار وصف الله سبحانه وتعالى بـ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ في هذه السورة المباركة، وهذا مما يبعث في قلب المؤمن الطمأنينة، فيلهج بالحمد والثناء لربه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[3].

(١٤١) تخصيص هذه الأمة بخصائص الاعتناء والتكريم؛ وذلك لأنه سبحانه وتعالى تلطف لعباده من أمة هذا النبي الكريم ﷺ، وأمنهم من خوفهم وإشفاقهم من عرض أعمالهم وحسابهم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى، ٤/٢١٠٩، رقم [٢٧٥٥].

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/١٣٩.

(٣) ينظر: نظم الدرر، البقاعي، ١/٢٦؛ واللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب، د. سليمان اللاحم، ص٣١٢.

﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٢ - ٤]، ولما كان تعالى قد وصف هذا اليوم بأنه يومٌ ﴿تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: ٢]، قدم هنا تعريفهم بأنه الرحمنُ الرحيم.

وفي هذا تأنيس لهذه الأمة، الموصوفة بأنها خير أمة، قال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وهذه الأمة تابعة لنبيها ﷺ، وقد جعل الله تعالى نبينا ﷺ سيد ولد آدم، والمصطفى من كافة الخلق، والتابع يشرف بشرف المتبوع، وقد خاطبه تعالى بخطاب الرحمة والتلطف والاعتناء فقال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٣]، فقدم العفو بين يدي ما صورته العتب، فكذلك تلطف لعباده من أمة هذا النبي الكريم، وآنس هذه الأمة كما آنس نبيهم ﷺ[1].

(١) ينظر: ملاك التأويل، أبو جعفر الغرناطي، ١/٢٠.

الآية الرابعة: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾

من الهدايات التي يمكن أن تؤخذ من هذه الآية ما يأتي:

(١٤٢) تمجيد الله تعالى وتعظيمه بأنه المالك والملك في ذلك اليوم العظيم، واختصاصه سبحانه وتعالى بملك يوم الدين فيه من العظمة ما لا يخفى.

(١٤٣) تفويض الأمر لله تعالى، فلا حول للعباد ولا قوة لهم إلا بالله سبحانه؛ ولهذا قال الرسول ﷺ في الحديث الذي يرويه عن ربه عزَّ وجلَّ: ((قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال العبد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، يقول الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، قال: مجدني عبدي[١] - **وقال مرة: فوض إليَّ عبدي** - ...))[٢]، قال الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ مبدأ لقولنا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؛ لأنَّ الملك والمالك هو الذي لا يقدر عبيده على أن يعملوا شيئًا على خلاف إرادته»[٣].

(١٤٤) ليس أحد أحق من الله تعالى بالحمد والثناء بما هو أهله؛ لأنَّ الأوصاف التي أجريت على الله سبحانه من كونه ربًّا مالكًا للعالمين لا يخرج منهم شيء من ملكوته وربوبيته، ومن كونه منعمًا بالنعم كلها الظاهرة والباطنة والجلائل والدقائق، **ومن كونه مالكًا للأمر كله في العاقبة يوم الثواب والعقاب**، بعد الدلالة على اختصاص الحمد به وأنه به حقيق في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ - دليلٌ على أن من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه بالحمد والثناء عليه بما هو أهله[٤]، وللإشعار من طريق المفهوم على أن من لم يتصف بتلك الصفات لا يستأهل لأن يحمد فضلاً عن أن يعبد، فيكون دليلاً

---

(١) «التمجيد: نسبة إلى المجد وهو العظمة، أي ذكرني بالعظمة والجلال». مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن المباركفوري، ٣/١١٤؛ وينظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ٢/٩٥.

(٢) سبق تخريجه ص ١٤.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ١/٢٤٣.

(٤) ينظر: الكشاف، الزمخشري، ١/١٢، ١٣.

على ما بعده من تخصيصه تعالى بالعبادة[1].

(١٤٥) في الآية مع ما قبلها من ذكر صفات الله تعالى في هذه السورة الكريمة إيماء إلى أنَّ الحمد ليس مجرد نطق الحمد فقط، بل مع العلم بصفات الكمال ونعوت الجلال، وأنه تعالى مختص بها[2].

(١٤٦) الملك والحمد في حق الله تعالى متلازمان؛ وذلك لأنَّ كل ما شمله ملكه وقدرته شمله حمده، فهو محمود في ملكه، وله الملك والقدرة مع حمده، فكما يستحيل خروج شيء من الموجودات عن ملكه وقدرته يستحيل خروجها عن حمده وحكمته[3].

(١٤٧) في ختم الله سبحانه وتعالى أوصافه الكريمة في هذه السورة العظيمة بقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ إشارة إلى الإعادة، كما افتتح تعالى بما يشير إلى الإبداء والنشأة ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[4]، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٣].

(١٤٨) التصريح بملكه سبحانه وتعالى للآخرة بعد الإشارة إلى ملكه للدنيا؛ وذلك لأنه لما قال: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، يريد به ملك الدنيا، قال بعده: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ يريد به ملك الآخرة، ليجمع بين ملك الدنيا والآخرة[5]؛ وليُعلم أنَّ له الملك في الدارين[6]، وأنه ولي التصرف في الدنيا والآخرة[7].

(١٤٩) التنبيه والتأكيد على مِلك الله تعالى ليوم الدين؛ وهذا مأخوذ من ذكر الخاص ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ بعد ذكر العام ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الذي يفيد أنَّ الله تعالى مالك كل شيء، وفي ذكر الخاص بعد العام زيادة التنبيه والتأكيد عليه[8].

---

(١) ينظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢٨/١.

(٢) ينظر: روح المعاني، الآلوسي، ٨٥/١.

(٣) ينظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم، ص١٢٥.

(٤) ينظر: روح المعاني، الآلوسي، ٨٥/١.

(٥) ينظر: النكت والعيون، الماوردي، ٥٧/١.

(٦) ينظر: الكشف والبيان، الثعلبي، ١١٦/١.

(٧) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٧٥/١.

(٨) ينظر: الحجة للقراء السبعة، أبو علي الفارسي، ١٨/١؛ والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤٠/١.

(١٥٠) الترغيب أبعث للنفوس وأحرى بالتقديم من الترهيب؛ وذلك مأخوذ من السياق الذي هو تقديم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الدالّ على الرحمة على ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ الذي يدل على القهر والجبروت، ويؤيده قوله ﷺ في الحديث القدسي: ((إنَّ رحمتي سبقت غضبي))[١][٢].

(١٥١) في الآية مع ما قبلها ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إشارة إلى أن يكون المؤمن بين الخوف والرجاء، وبين الرغبة والرهبة؛ وذلك للجمع بين ما يدل عليهما في سياق واحد؛ فقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فيه دلالة على الترغيب، وقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فيه دلالة على الترهيب.

(١٥٢) في الآية مع ما قبلها تذكير العباد بما سيحصل من الجزاء يوم الحساب لئلا يعتمدوا على ما علموا من الربوبية والرحمة المؤكدة فيعرضوا عن التكاليف؛ لذلك كان من مقتضى المقام تعقيبه بذكر أنه صاحب الحكم في يوم الجزاء؛ لأنَّ الجزاء على الفعل سبب في الامتثال والاجتناب لحفظ مصالح العالم، وأحيط ذلك بالوعد والوعيد، وجعل مصداق ذلك الجزاء يوم القيامة؛ ولذلك اختير هنا وصف ملك أو مالك مضافًا إلى يوم الدين[٣].

(١٥٣) إثبات صفتي (المِلك) و(المُلك) لله تعالى؛ يؤخذ هذا من القراءتين المتواترتين: (مالك) (ملك)[٤]، ومعناهما ثابت لله جلَّ في علاه، بل إنَّ الإضافة إلى يوم الدين تفيد استواء القراءتين في أنَّ الله تعالى المتصرف في شؤون ذلك اليوم دون شبهة مشارك[٥]، ولا ينبغي الخوض في ترجيح إحدى القراءتين على بعض[٦].

---

(١) سبق تخريجه ص ٦١.

(٢) ينظر: نواهد الأبكار وشوارد الأفكار (حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي)، السيوطي، ١/٣٧.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٧٤.

(٤) قرأ عاصم والكسائي ويعقوب وخلف: ﴿مَٰلِكِ﴾ بالألف، وقرأ الباقون: ﴿مَلِكِ﴾ بدون ألف. ينظر: التيسير التيسير في القراءات السبع، الداني، ص١٨؛ والنشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ١/٢٧١.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٧٥.

(٦) قال أبو شامة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد أكثر المصنفون في القراءات والتفاسير من الكلام في الترجيح بين هاتين القراءتين، القراءتين، حتى إن بعضهم يبالغ في ذلك إلى حد يكاد يسقط وجه القراءة الأخرى، وليس هذا بمحمود بعد ثبوت القراءتين، وصحة اتصاف الرب سبحانه وتعالى بهما، فهما صفتان لله تعالى يتبين وجه الكمال له فيهما فقط ولا ينبغي أن يتجاوز ذلك». إبراز المعاني من حرز الأماني، أبو شامة المقدسي، ص٧٠.

(١٥٤) ملك الله تعالى في يوم الدين أعظم من مُلك الدنيا الذي يملكه الملوك؛ وذلك لأنَّ الله تعالى خصَّ نفسه بملك يوم الدين، مع أنه سبحانه في الحقيقة يملك كل شيء في الدنيا والآخرة[١].

(١٥٥) المَلِك والمالك حقيقة هو الله تعالى، وملك الملوك والمالكين في الدنيا مجازي؛ حيث يُسمَّى بعض الناس مالكًا وملكًا على سبيل المجاز، والمراد بذلك: أنه مأذون له في التصرّف فيه[٢]؛ فالملك الذي يبقى هو ملك الله تعالى، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وهو سبحانه وتعالى الذي يتصرف في إعطاء الملك في الدنيا من يشاء من عباده وينزعه ممن يشاء، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

(١٥٦) الله سبحانه وتعالى قادرٌ على التصرف مِلكًا وكذلك أمرًا وتدبيرًا؛ وذلك لدلالة قراءة ﴿مَٰلِكِ﴾ على التصرف في مِلكه، ودلالة قراءة ﴿مَلِكِ﴾ على قدرته على التصرف بالأمر والتدبير، والقراءتان منزلتان، والجمع بينهما يفيد هذا المعنى[٣].

كما أنه يؤخذ من الجمع بين القراءتين أنَّ الله سبحانه وتعالى مالك وملك في الدنيا والآخرة؛ فملكه جلّ وعلا ملك حقيقي؛ لأن مِن الخلق مَن يكون ملكًا، ولكن ليس بمالك، حيث يسمى ملكًا اسمًا وليس له من التدبير شيء، ومِن الناس مَن يكون مالكًا، ولا يكون ملكًا كعامة الناس؛ ولكن الرب عزّ وجلّ مالكٌ مِلك[٤].

(١٥٧) إثبات وجود الملائكة؛ لأنَّ الإيمان بهم من لوازم الإيمان بملكه تعالى؛ فإنهم رسل الله في خلقه وأمره، وإرسال الرسل موجب كمال ملكه وسلطانه[٥].

---

(١) ينظر: النكت والعيون، الماوردي، ١/٥٧.

(٢) ينظر: الكشف والبيان، الثعلبي، ١/١١٥؛ وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/١٣٤.

(٣) ينظر: باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن، الغزنوي، ١/٧.

(٤) ينظر: تفسير القرآن الكريم (الفاتحة – البقرة)، ابن عثيمين، ١/١٢.

(٥) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٩١.

(١٥٨) إثبات أنَّ الله تعالى فاعلٌ مختار يفعل ما يشاء؛ وذلك مأخوذ من إثبات ملكه، وحصولُ ملك لمن لا اختيار له ولا فعل ولا مشيئة غيرُ معقول[١].

(١٥٩) الرد على منكري تعلق علمه تعالى بالجزئيات؛ وذلك مأخوذ من إثبات ملكه تعالى؛ فإنَّ ملكًا لا يعرف أحدًا من رعيته البتة، ولا شيئًا من أحوال مملكته البتة، ليس بملك بوجه من الوجوه.

وكذلك مأخوذ من كونه سبحانه وتعالى مجازيًا يدين الناس بأعمالهم يوم الدين، فنفي علمه بالجزئيات مبطل لذلك كله[٢].

(١٦٠) إخلاص التوحيد لله تعالى؛ وهذا مأخوذ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، فإنَّ لفظ (مالك) معناه الإفرادي من غير نظر إلى معناه الإضافي يفيد استحقاقه بإخلاص توحيده، ثم في معناه الإضافي إلى يوم الدين معنى ثانٍ؛ فإنَّ من له الملك في مثل هذا اليوم الذي هو يوم الجزاء لكل العباد هو المستحقّ لإخلاص توحيده[٣].

(١٦١) إثبات اسم ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ليوم القيامة؛ لأنَّ الله تعالى عبَّر بيوم الدين عن يوم القيامة، ونبه بذكر ﴿ٱلدِّينِ﴾ إلى أهم ما يكون فيه، وهو الحساب والمجازاة على الأعمال.

ويدل لتفسير الدين بالجزاء قول الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ﴾ [غافر: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨][٤].

(١٦٢) تفرُّد الله تعالى بالمُلك يوم الدين خالصًا دون جميع خلقه، الذين كانوا قبل ذلك في الدنيا ملوكًا جبابرة ينازعونه الملك، ويدافعونه الانفرادَ بالكبرياء والعظمة

---

(١) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٨٩/١.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ٩٠/١، ٩١.

(٣) ينظر: فتح البيان في مقاصد القرآن، محمد صديق خان القنوجي، ٥٨/١.

(٤) ينظر: الحجة للقراء السبعة، أبو علي الفارسي، ٣٩/١.

والسلطان، فأيقنوا بلقاء الله يوم الدين أنهم الصَّغَرة الأذلّة، وأنّ له من دونهم، ودون غيرهم المُلك والكبرياء، والعزة والبهاء، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦][(١)]؛ وبهذا بطل ملكهم الذي كانوا يدَّعونه في الدنيا، ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾[(٢)].

(١٦٣) المخلوقون كلهم يوم القيامة مضطرون إلى أن يعرفوا أن الأمر كلَّه لله؛ وذلك لأنَّ الله تعالى خصَّ في هذه الآية ملكه بيوم الدين مع أنه سبحانه يملك كل شيء وفي جميع الأزمنة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٨ - ١٩]؛ فهو اليوم الذي لا يملك فيه أحد لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًّا[(٣)].

(١٦٤) تهويل يوم الدين وتعظيم شأنه؛ وذلك لأنَّ الله تعالى خصَّه بالذكر مع أنه يملك كل شيء؛ ومثله قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ [غافر: ١٦]، ومعلوم أنه لا خفاء بهم في كل الأوقات عن الله عزّ وجلّ[(٤)]، وكما يقال رب الكعبة، وإله إبراهيم، مع أنه سبحانه وتعالى ربُّ العالمين، وإله العالمين[(٥)].

ووجه التعظيم لهذا اليوم أنَّ اليوم الآخر لا انقضاء له ولا فناء، وجميع ما في الدنيا فانٍ، وقد عُلم أنَّ الباقي أشرف من الفاني[(٦)].

(١٦٥) اشتمال الجزاء المفهوم من لفظ ﴿ٱلدِّينِ﴾ على جميع أحوال القيامة من ابتداء النشور إلى السرمد الدائم؛ وذلك مستفاد من عموم لفظ ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ والتعبير به

---

(١) ينظر: جامع البيان، الطبري، ١٤٩/١؛ وبحر العلوم، السمرقندي، ١٧/١.

(٢) ينظر: تفسير الراغب الأصفهاني، ٥٦/١.

(٣) ينظر: معاني القرآن، الزجاج، ٤٧/١.

(٤) ينظر: الكشف والبيان، الثعلبي، ١١٦/١.

(٥) ينظر: درج الدرر، الجرجاني، ٨٧/١.

(٦) ينظر: تفسير الراغب الأصفهاني، ٥٧/١.

هنا؛ فإن الدين بمعنى الجزاء يشمل جميع أحوال القيامة، بل يكاد يتناول أحوال النشأة الأولى بأسرها[١]، كما أنَّ التعبير بيوم القيامة لا يفهم منه الجزاء مثل يوم الدين[٢].

(١٦٦) لا يقدر أن يدعي أحد في يوم القيامة شيئًا، ولا أن يتكلم إلا بإذنه؛ وذلك لأنه تعالى أضاف ملكه ليوم الدين وخصه به مع أنه يملك الدنيا والآخرة، ويؤيده قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥][٣].

(١٦٧) الله سبحانه وتعالى قادرٌ على إقامة يوم الدين؛ فالمالك والملك هو القادر على استخراج الأعيان من العدم إلى الوجود، ولا يقدر في الحقيقة على إخراجها إلّا الله المالك الملك، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: ٧٣][٤].

(١٦٨) الله سبحانه وتعالى يملك مجيء يوم الدين ووقوعه؛ وذلك مأخوذ من إضافة ﴿مَٰلِكِ﴾ إلى يوم الدين، على تقدير اليوم أنه مفعول به على الحقيقة، وليس ظرفًا اتسع فيه فنصب نصب المفعول به ثم وقعت الإضافة إليه[٥].

(١٦٩) الله سبحانه وتعالى يملك الأمور كلها في يوم الدين؛ وذلك مأخوذ من إضافة ﴿مَٰلِكِ﴾ إلى يوم الدين، على أنه من باب الاتساع؛ إذ المتعلق غير اليوم، والتقدير: مالك الأمر كله يوم الدين[٦]، ولما كان اليوم ظرفا للأمر جاز أن يتسع فيتسلط فيتسلط عليه الملك أو المالك؛ لأن الاستيلاء على الظرف استيلاء على المظروف[٧].

---

(١) ينظر: حاشية الطيبي على الكشاف، شرف الدين الطيبي، ١/٧٣٥.

(٢) ينظر: روح المعاني، الآلوسي، ١/٨٥.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/١٣٤.

(٤) ينظر: الكشف والبيان، الثعلبي، ١/١١٥.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ١/٧٠؛ والبحر المحيط، أبو حيان، ١/١٣٩.

(٦) ينظر: الدر المصون، السمين الحلبي، ١/٥١.

(٧) ينظر: البحر المحيط، أبو حيان، ١/١٣٩.

(١٧٠) إثبات الجنة والنار وما ذكر فيهما؛ لأنهما أساس الجزاء في يوم الدين[١].

(١٧١) المبالغة في مدح الله تعالى والثناء عليه بكونه ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، ولا ملك غيره[٢]؛ وذلك مأخوذ من إضافة ﴿مَٰلِكِ﴾ إلى الزمان ﴿يَوۡمِ﴾ ، كما يقال: ملك عام كذا، وملوك سنيّ كذا، وملوك الدهر الأوّل، وملك زمانه، وسيّد زمانه، وهذا في المدح أبلغ؛ فالآية إنما نزلت بالثناء والمدح لله سبحانه والصفة له[٣].

(١٧٢) وصف الله تعالى بالعظمة والكمال؛ وذلك لأنَّ وصف الله تعالى بأنه ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ هو وصفٌ عظيم ينبيء عن عموم التصرف في المخلوقات في يوم الجزاء الذي هو أول أيام الخلود، فملك ذلك الزمان هو صاحب الملك الذي لا يشذ شيء عن الدخول تحت ملكه، وهو الذي لا ينتهي ملكه ولا ينقضي، فأين هذا الوصف من أوصاف المبالغة التي يفيضها الناس على بعض الملوك مثل ملك الملوك (شاهان شاه) وملك الزمان، وملك الدنيا (شاه جهان)، وما شابه ذلك[٤]؟!

(١٧٣) كمال قدرة الله سبحانه وتعالى؛ وذلك مأخوذ من وصف الله جلَّ جلاله بـ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، حيث لا يهمل أمر المظلومين، بل يستوفي حقوقهم من الظالمين، وكذلك فإنَّ القدرة على إحياء الخلق بعد موتهم ليست إلا لله، والعلم بتلك الأجزاء المتفرقة من أبدان الناس ليس إلا لله، فإذا كان الحشر والنشر والبعث والقيامة لا يتأتى إلا بعلمٍ متعلق بجميع المعلومات، وقدرةٍ متعلقة بجميع الممكنات، ثبت أنه لا مالك ليوم الدين إلا الله[٥].

(١٧٤) ظهور الفرق يوم القيامة بين المحسن والمسيء، والمطيع والعاصي، والموافق والمخالف؛ لأنَّ ذلك لا يظهر إلا في يوم الدين الذي يحصل فيه الجزاء على الأعمال،

---

(١) ينظر: الفوائد اللائحة من معاني الفاتحة، ابن جماعة، ص٣٣.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٦٩/١.

(٣) ينظر: الحجة للقراء السبعة، أبو علي الفارسي، ١٥/١.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٧٦/١، ١٧٦.

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٥٧/١، ٢٠٧.

كما قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النجم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨][1].

(١٧٥) طمأنة الله تعالى لعباده المؤمنين؛ لأنهم إذا أصابهم ظلم في الدنيا، فإن هناك يومٌ لا ظلم فيه، وهذا اليوم الأمر فيه لله وحده بدون أسباب، فكل إنسان لو لم يدركه العدل والقصاص في الدنيا فإن الآخرة تنتظره، والذي اتبع منهج الله وقيد حركته في الحياة بذلك المنهج يخبره الله سبحانه وتعالى أن هناك يومٌ سيأخذ فيه أجره، وعملُه الصالح لن يذهب سدى[2].

(١٧٦) كمال رحمة الله تعالى؛ لأنَّ الله تعالى قبل ذكره أنه ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ذكر في هذه السورة كونه ربًّا رحمانًا رحيمًا، ومما يدلُّ على ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٣] ثم ذكر بعده كونه قدوسًا عن الظلم والجور، ثم ذكر بعده كونه سلامًا، وهو الذي سلم عباده من ظلمه وجوره، ثم ذكر بعده كونه مؤمنًا، وهو الذي يؤمن عبيده عن جوره وظلمه، فثبت أنَّ كونه ملكًا لا يتم إلا مع كمال الرحمة، وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ [الفرقان: ٢٦]، لما أثبت لنفسه الملك أردفه بأن وصف نفسه بكونه رحمانًا، يعني إن كان ثبوت الملك له في ذلك اليوم يدل على كمال القهر، فكونه رحمانًا يدل على زوال الخوف وحصول الرحمة، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١ - ٢]، فذكر أولا كونه ربًّا للناس ثم أردفه بكونه ملكًا للناس، وهذه الآيات دالة على أنَّ المُلك لا يحسن ولا يكمل إلا مع الإحسان والرحمة[3].

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠٤/١.

(٢) ينظر: تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، ٧٢/١.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠٦/١.

ويؤيد كمال رحمة الله تعالى في يوم الدين قوله ﷺ: ((إنَّ لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخَّر الله تسعًا وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة))[1].

(١٧٧) دعوة ملوك الدنيا لرحمة من ولاهم الله أمرهم، فهذا ملك الملوك سبحانه وتعالى ملكه مبني على الرحمة[2].

(١٧٨) وجوب طاعة الله تعالى وعدم مخالفته؛ وذلك لأنَّ مخالفة الملك المُجازي يكون تأثيرها في زوال المصالح وحصول المفاسد وخراب عالم الدنيا[3]، كما أنها سبب للحساب العسير في يوم الدين يوم المجازاة على الأعمال.

(١٧٩) التنبيه على عدل حكم الله تعالى؛ لأنَّ إيثار لفظ الدين (أي الجزاء) للإشعار بأنه معاملة العامل بما يعادل أعماله المجزي عليها في الخير والشر، وذلك العدل الخاص، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ﴾ [غافر: ١٧]؛ فلذلك لم يقل ملك يوم الحساب، فوصفُه سبحانه وتعالى بأنه ملك يوم العدل الصرف وصفٌ له بأشرف معنى الملك، فإن الملوك تتخلد محامدهم بمقدار تفاضلهم في إقامة العدل، وقد عرف العرب المدحة بذلك[4].

وعدل الله تعالى في حكمه عدلُ كمال؛ وذلك أنَّ الله تعالى لما وصف نفسه بكونه ملكًا ليوم الدين أظهر للعالمين كمال عدله فقال سبحانه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، ثم بين كيفية العدل فقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ﴾ [الأنبياء: ٤٧]؛ فظهر بهذا أنَّ كونه ملكًا حقًّا ليوم الدين إنما يظهر بسبب العدل[5].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ، كتاب: التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى، ٢١٠٨/٤، رقم [٢٧٥٢].

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠٦/١، وللوقوف على وجه كون هذا الملك مبني على الرحمة ينظر ما ذكر في الهداية السابقة.

(٣) ينظر: المصدر السابق، ٢٠٦/١.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٧٧/١.

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠٦/١.

(١٨٠) دعوة ملوك الدنيا للعدل بين من ولاهم الله أمرهم؛ ففي وصف الله عزَّ وجلَّ نفسه بـ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ إيذان بإقامة العدل وعدم الهوادة فيه؛ لأنَّ شأن الملك أن يدبر صلاح الرعية ويذب عنهم، ولذلك أقام الناس الملوك عليهم، ولو قيل: رب يوم الدين لكان فيه مطمع للمفسدين يجدون من شأن الرب رحمة وصفحًا، فهذا ملك الملوك سبحانه وتعالى ملكه مبني على العدل؛ فالعدل في الملك يحصل معه البركة والخير والراحة في العالم، وبالظلم في الملك يرتفع الخير من العالم[١].

(١٨١) يوم القيامة حقّ يجب الإيمان به وإن كان لم يحصل بعد؛ فالتعبير بقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وإن كان يوم الدين لم يوجد بعد لأنَّ يوم القيامة حقٌّ لا ريب فيه، ولتحقق وقوعه وبقائه أبدًا أجري مجرى المتحقق المستمر، وجعل وجود القيامة كالأمر القائم الحاصل في الحال[٢].

(١٨٢) من لوازم حكمة الله تعالى ورحمته أن يحصل بعد أيام الدنيا يوم آخر – يوم الدين – يظهر فيه تمييز المحسن عن المسيء، ويظهر فيه الانتصاف للمظلومين من الظالمين، ولو لم يحصل هذا البعث والحشر لقدح ذلك في كونه رحمانًا رحيمًا[٣].

(١٨٣) كمال قهر الله تعالى وجلاله وكبريائه؛ لأنَّ ثبوت الملك لله تعالى في ذلك اليوم يدل على ذلك[٤].

(١٨٤) إثبات المعاد والحشر والحساب، والرد على الدهرية من الكفار ومن وافقهم في إنكار المعاد، الذين حكى الله قولهم: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: ٢٤]، أي: ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون وما ثم معاد ولا قيامة[٥].

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠٦/١؛ والتحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٧٤/١.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠٧/١، ٢٠٨؛ وإرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١٥/١.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٢٨/١.

(٤) ينظر: المصدر السابق، ٢٠٦/١، ٢٣٣.

(٥) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢٦٨/٧، ٢٦٩؛ والتحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٥٣/١.

(١٨٥) تنبيه العبد ليكون من عمله على وجل، وأنَّ لعمله يومًا تظهر له فيه ثمرته من خير وشر؛ لأنه سبحانه لما اتصف تعالى بالرحمة انبسط العبد وغلب عليه الرجاء، فنبه بصفة (الملك) أو(المالك) ليوم الدين حتى يكون على خوف ووجل من الله تعالى[١].

(١٨٦) إثبات النبوات والرد على منكريها؛ وذلك مأخوذ من ذكر ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فإنه اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات، ويعاقبهم على المعاصي والسيئات، وما كان الله ليعذب أحدًا قبل إقامة الحجة عليه، والحجة إنما قامت برسله وكتبه، وبهم استحق الثواب والعقاب، وبهم قام سوق يوم الدين، وسيق الأبرار إلى النعيم، والفجار إلى الجحيم.

وكذلك فإن الملك يقتضي التصرف بالقول، كما أن الملك يقضي التصرف بالفعل، فالملك هو المتصرف بأمره وقوله، فتنفذ أوامره حيث شاء، والمالك هو المتصرف في ملكه بفعله، والله تعالى له المُلك وله المِلك، فهو المتصرف في خلقه بالقول والفعل.

وتصرفه بقوله نوعان: تصرف بكلماته الكونية، وتصرف بكلماته الدينية، وكمال الملك بهما، فإرسال الرسل موجب كمال ملكه وسلطانه، وهذا هو الملك المعقول في فطر الناس وعقولهم؛ فكل ملك لا تكون له رسل يبثها في أقطار مملكته فليس بملك[٢].

(١٨٧) لا يجوز أن يتسمى أحد بـ ﴿مَلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، ولا يدعى به إلا الله تعالى، ومثله مالك الملك، وملك الملوك، وملك الأملاك؛ وذلك لأنَّ هذا الوصف مختص به تعالى، ويؤيده قوله ﷺ: ((أغيظ رجل على الله يوم القيامة، وأخبثه وأغيظه عليه، رجلٌ كان يسمى ملك الأملاك، لا ملك إلا الله))[٣].

---

(١) ينظر: البحر المحيط، أبو حيان، ١/١٣٢.

(٢) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٣٢، ٩١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ، كتاب: الأدب، باب: أبغض الأسماء إلى الله تعالى، ٨/٤٥، رقم [٦٢٠٥]؛ ومسلم في صحيحه، واللفظ له، كتاب: الآداب، باب: تحريم التسمي بملك الأملاك وملك الملوك، ٣/١٦٨٨، رقم [٢١٤٣].

وأما الوصف بمالك وملك فيجوز أن يوصف بهما من اتصف بمفهومهما، قال الله العظيم: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ [البقرة : ٢٤٧][(١)].

(١٨٨) امتياز يوم الدين عن سائر الأيام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾، ولم يقل: مالك الدين، تنبيهًا على تميز هذا اليوم بما يحصل فيه عن سائر الأيام[(٢)].

(١٨٩) في ذلك اليوم يوفَّى كل فرد من أفراد العالمين جزاءه كاملًا لا يظلم شيئًا منه؛ لأنَّه اليوم الذي يدين الله فيه العباد ويحاسبهم على أعمالهم، قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [غافر: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧ – ٨]، أما في أيام الدنيا وإن حصل بعض الجزاء على الأعمال كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠] لكنه لا يظهر على أكمل الوجوه كما يظهر في يوم الدين الذي هو يوم الجزاء والحساب[(٣)].

(١٩٠) لا ينبغي لمن آمن بيوم الدين وما فيه من حساب وجزاء أن يلتفت إلى حطام الدنيا، وأن يستبد به القلق على تحقيق جزاء سعيه في عمره القصير المحدود وفى مجال الأرض المحدود، بل عليه أن يتعلق بهذا اليوم العظيم وأن يعمل لوجه الله تعالى؛ فإنَّه صاحب الملك والجزاء[(٤)].

(١٩١) غرس الإيمان العميق في قلب العبد، لأنه إذا آمن بأنَّه يوجد يوم يظهر فيه إحسان المحسن وإساءة المسيء، وأنَّ زمام الحكم في ذلك اليوم لله الواحد القهار، فإنه في هذه الحالة سيقوى عنده خلق المراقبة لخالقه، ويجتهد في السير على الطريق المستقيم[(٥)].

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤١/١، ١٤٢.

(٢) ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٤٦/١.

(٣) ينظر: المصدر السابق، ٤٦/١، ٤٧.

(٤) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢٤/١.

(٥) ينظر: التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، ٢١/١.

(١٩٢) الدعوة إلى محاسبة النفس؛ لأنَّ المحاسِب في ذلك اليوم العظيم هو ملك الملوك جل جلاله، فينبغي الحذر والتحسب لهذا الموقف العظيم[١].

ويؤيد ذلك ما روي عنه ﷺ: ((الكيِّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله))[٢].

قال الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «ومعنى قوله: ((من دان نفسه)) يقول: حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة، ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزينوا للعرض الأكبر، وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا»[٤].

(١٩٣) الحياة الدنيا لم تقم عبثًا، بل هي مراقَبة على العبد محصاة عليه لحظة لحظة، مسؤول عن كل وقت من أوقاتها مما يصرفه من عمره فيها بين ليل أو نهار؛ وذلك لأنَّ هناك يومًا فيه تصفية الحساب، وهو واقعٌ لا محالة، وهو (يوم الدين) ذلك اليوم الذي هو غاية الحياة الدنيا[٥].

---

(١) ينظر: النظرات الماتعة في سورة الفاتحة، د. مرزوق الزهراني، ص٦٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه عن شداد بن أوس رضي الله عنه، كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، ٦٣٨/٤، رقم [٢٤٥٩]؛ وابن ماجه في سننه، كتاب: الزهد، باب: ذكر الموت والاستعداد له، ١٤٢٣/٢، رقم [٤٢٦٠]؛ والحاكم في مستدركه، كتاب: التوبة والإنابة، ٢٨٠/٤، رقم [٧٦٣٩]، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال عنه الترمذي: هذا حديث حسن، وكذلك حسنه البغوي في شرح السنة، ٣٠٨/١٤، وصححه السيوطي في الجامع الصغير، ص٤٠٢؛ ومن العلماء من تكلم فيه كالحافظ ابن حجر، فإنه ضعف سنده في هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة، ٤٩/٥، والألباني ضعفه كذلك في ضعيف سنن الترمذي، ص٢٣٨، وعلى فرض ضعف الحديث فمعناه واضح وصحيح.

(٣) أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، من كبار أئمة الحديث وحفاظهم، كان يضرب به المثل في الحفظ، أخذ عن البخاري وغيره من الحفاظ، من مصنفاته (الجامع) المشهور بسنن الترمذي، و(الشمائل) و(العلل)، توفي – رحمه الله – بترمذ سنة (٢٧٩هـ). ينظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي، ٦٣٣/٢؛ والوافي بالوفيات، الصفدي، ٢٠٧/٤.

(٤) سنن الترمذي، أبو عيسى الترمذي، ٦٣٨/٤.

(٥) ينظر: مجالس القرآن، د. فريد الأنصاري، ص١٣٢.

(١٩٤) الحث على الاستعداد ليوم القيامة، بفعل الطاعات وترك المعاصي والذنوب؛ لأنَّ استشعار العبد أنَّ ملك الملوك سبحانه وتعالى الذي لا تخفى عليه خافية سيجازيه على أعماله في ذلك اليوم يوجه همه إلى الاستعداد للعرض على الله وحساب يوم الدين.

(١٩٥) خضوع كل شيء لسلطان الله سبحانه وتعالى وحده في يوم الدين ظاهرًا وباطنًا؛ إذ لا يجعل الله يومئذ سلطانًا ولا حكمًا ولا أمرًا ولا نهيًا، حتى الشفاعة لا تكون يومئذ إلا بإذنه؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى في ذلك اليوم هو الملك بسلطانه العظيم على كل شيء على وجه الحقيقة التامة، لا مشارك له في مُلكه، ولو على سبيل المشاركة الصورية كما في الدنيا، وهو سبحانه يومئذ المالك لكل شيء، لا مشارك له في مِلكه، ولو على سبيل المشاركة الصورية كما هو الحال في الحياة الدنيا؛ فجاءت القراءتان ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، و﴿مَلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ متكاملتين في أداء المعنى المراد بيانه والتعبير عنه[١].

(١٩٦) يوم القيامة يوم جزاء لا عمل؛ وذلك للتعبير عنه بيوم الدين الذي هو الجزاء، والعمل يكون في الحياة الدنيا، وكما تدين تدان، والجزاء من جنس العمل[٢].

ويؤيد ذلك قول الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨]، أي: كل يُجزى في يوم القيامة بما تضمنه كتابه من عمله في الدنيا[٣].

(١) ينظر: معارج التفكر ودقائق التدبر، الميداني، ٢٩٦/١.

(٢) ينظر: تأملات في سورة الفاتحة، د. حسن باجودة، ص٩١.

(٣) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب القيسي، ٦٧٩٤/١٠.

الآية الخامسة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

من الهدايات التي يمكن أن تؤخذ من هذه الآية ما يأتي:

(١٩٧) العبودية لله تعالى مقامٌ عظيمٌ عالٍ شريفٌ يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى؛ وذلك مأخوذ من تخصيصه سبحانه وتعالى بالعبادة في هذه السورة العظيمة، مع تسميته سبحانه وتعالى لأشرف خلقه بعبده في أشرف مقاماته، عند إنزاله عليه، وعند قيامه في الدعوة، وعند إسرائه به، قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١]، وقال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، وقال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩][(١)].

(١٩٨) في الآية مع ما قبلها من ذكر صفات الله تعالى أنَّ كلَّ صفة منها تبعث على شدة الإقبال على الله تعالى، وآخر تلك الصفات: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ المفيد أنه مالك الأمر كله في يوم الجزاء؛ فيجد العبد من نفسه حاملًا لا يقدر على دفعه على خطاب من هذه صفاته، بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة[(٢)].

(١٩٩) في الآية مع ما قبلها من المحامد والثناء على الله تعالى دلالة على أنَّ على أن هذه المحامد صادرة من جماعات؛ وذلك للعدول عن ضمير الواحد إلى الإتيان بضمير المتكلم المشارك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وفي هذا تعريض بالمشركين وإغاظة لهم – لا سيما الذين عاصروا زمن التنزيل – إذ يعلمون أنَّ المسلمين صاروا في عزة ومنعة[(٣)].

(٢٠٠) إقرار العبد بإخلاص التوحيد لله تعالى؛ إذ إنَّ من معاني العبادة التوحيد، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، أي: نوحد، كقوله تعالى: ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ [التحريم: ٥]، أي: موحدات[(٤)].

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢١٤/١؛ وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٣٦/١.

(٢) ينظر: قطف الأزهار في كشف الأسرار، السيوطي، ١٣٤/١.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٨٦/١.

(٤) ينظر: تفسير مقاتل، مقاتل بن سليمان، ٣٦/١؛ وتأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٣٦٣/١.

كما إنَّ إخلاص التوحيد لله تعالى يؤخذ من تقديم الضمير ﴿إِيَّاكَ﴾ معمولًا للفعل الذي بعده؛ فإنه يفيد اختصاص العبادة به، ومن اختص بالعبادة فهو الحقيق بإخلاص توحيده، ثم المجيء بنون الجماعة الموجبة لكون هذا الكلام صادرًا عن كل من تقوم به العبادة من العابدين كذلك.

وكذلك يؤخذ من قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ فإن تقديم الضمير معمولًا لهذا الفعل فيه إخلاص التوحيد لله تعالى، ثم مادة هذا الفعل لها معنى آخر فإن من كان لا يستعان بغيره لا ينبغي أن يكون له شريك، بل يجب إفراده بالعبادة وإخلاص توحيده إذ وجود من لا يستعان به كعدمه[1].

(٢٠١) في الآية مع ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] أنَّ جميع الرسل إنما دعوا إلى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وعبادته، من أولهم إلى آخرهم[2].

(٢٠٢) التبرؤ من الشرك، ومن الأصنام وغير ذلك مما يُعبد من دون الله؛ لأنَّ المؤمن بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يقر ويعترف بإفراد الله تعالى بالعبادة واختصاصه بها، وكذلك اختصاصه بطلب العون، وهذا كله تبرؤ من الشرك ومن الأصنام وسائر ما يعبد من دون الله تعالى[3]، وجميع ما في القرآن من آيات التوحيد ومقارعة المشركين هو تفصيل لهذا الإجمال الذي جاءت به أمّ القرآن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[4]؛ فهي شهادة البراءة التامة من كلّ قصد غير وجه الله، وشهادة البراءة التامة من كل شريك غير الله، وشهادة البراءة التامة من كلّ مقصود بالتعبد توجهًا وخضوعًا واستعانة وتوكلًا غير الله، وشهادة البعد التام عن خوارم الإخلاص الصافي من

(١) ينظر: فتح البيان في مقاصد القرآن، محمد صديق خان القنوجي، ٥٩/١.

(٢) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١٢١/١.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٧٢/١؛ وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٣٤/١.

(٤) ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٣١/١.

أدق الشركيات الخفية رياء وتسميعًا ومباهاة، إلى أغلظها من تقديس آلهة الأهواء الباطلة مما يتجلى في أنصاب المال والأعمال والشهرة وسائر الشهوات، إلى ما قد يتطور عن ذلك من الأنصاب الحجرية والبشرية مما قد يعبد من دون ربِّ العالمين جهارًا[١].

(٢٠٣) تعليم الله تعالى لعباده وأمره لهم بأن يخصوه وحده بالعبادة والاستعانة بقولهم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وأن يدينوا له بمعناه؛ وذلك لأنَّ الجملة جاءت في صيغة الخبر ومعناها معنى الأمر، كأنه سبحانه وتعالى قال: قولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٢].

(٢٠٤) فضل الله تعالى على عباده؛ وذلك بإرشاده لهم إلى عبادته واستعانته في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ليوفقهم لعبادته، وليعينهم على أمور دينهم ودنياهم[٣].

(٢٠٥) الردّ على القدرية الذين يزعمون أنَّ الإنسان خالق لأفعاله، والاختيار بيده، وأنَّ الأمر مفوض إلى الإنسان، وإرادته كافية في إيجاد فعله؛ حيث إنَّ في أمر الله جلَّ ثناؤه عبادَه أن يقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، بمعنى مسألتهم إياه المعونةَ على العبادة وعلى كلّ أمورهم أدلّ الدليل على فساد قولهم[٤].

(٢٠٦) العبادة حق الله على عبده، والإعانة من الله فضل من الله على عبده؛ ولذلك كانت هذه الكلمة بين الله وبين عبده، وفي الحديث القدسي الشريف: ((قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ... فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل ...))[٥][٦].

---

(١) ينظر: مجالس القرآن، د. فريد الأنصاري، ص١٣٥.

(٢) ينظر: معاني القرآن، الأخفش، ١/١٥؛ وجامع البيان، الطبري، ١/١٣٩، ١٦٢.

(٣) ينظر: دراسات في هدايات الفاتحة، د. طه عابدين، ص٩٦.

(٤) ينظر: جامع البيان، الطبري، ١/١٦٢.

(٥) سبق تخريجه ص ١٤.

(٦) ينظر: روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي)، جمع وترتيب: طارق بن عوض الله بن محمد، محمد، ١/٦٩.

ومن حق الله تعالى على عبده عبادته بالثناء عليه؛ ولذلك قدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وكان من قسم الرب الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به، ومن فضل الله تعالى على عبده إعانته؛ ولذلك أخر ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وكان من قسم العبد، الذي هو طلب له، وهو ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخر السورة[1].

(٢٠٧) ينبغي حسن الأدب في الخطاب، لا سيما في مقام السؤال؛ وذلك مأخوذ من تقديم ذكر المعبود والمستعان به ﴿إِيَّاكَ﴾، ونظيره قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦][2].

(٢٠٨) إخلاص العبادة لله تعالى واختصاصه بها؛ وذلك مأخوذ من تقديم المفعول به الذي هو الضمير ﴿إِيَّاكَ﴾ فإنَّ تقديمه دليل على الاختصاص، كأنه قال: نخصك بالعبادة، وهو بمعنى: لا نعبد إلا إياك[3].

وفي هذا تصريح من أول وهلة بأن العبادة له سبحانه؛ فهو أبلغ في التوحيد، وأبعد عن احتمال الشرك[4].

ولعل في الإتيان بالضمير ﴿إِيَّاكَ﴾ في هذا الموضع من هذه السورة فقط دون سواها من القرآن الكريم تأكيدًا لإخلاص العبادة لله تعالى وحده دون سواه.

(٢٠٩) الأدب مع الله تعالى؛ وذلك بتقديم اسمه جلَّ وعلا الذي يدل عليه الضمير ﴿إِيَّاكَ﴾ على فعل العباد ﴿نَعْبُدُ﴾[5].

(٢١٠) الاهتمام باسم الله تعالى وشدة العناية به؛ ولذا قدم الضمير وقيل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ولم يقل: نعبدك، ومن شأن العرب تقديم الذي بيانه أهم إليهم، وهم

---

(١) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٩٧/١.

(٢) ينظر: الفوائد اللائحة من معاني الفاتحة، ابن جماعة، ص٣٤.

(٣) ينظر: الكشاف، الزمخشري، ١٣/١؛ ومدارج السالكين، ابن القيم، ٩٨/١.

(٤) ينظر: روح المعاني، الآلوسي، ٨٧/١.

(٥) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٩٨/١.

ببيانه أعنى، وإن كان غير المقدم مهمًّا كذلك[1].

(٢١١) تعظيم الله تعالى؛ وذلك مأخوذ من تقديم ضمير المعبود ﴿إِيَّاكَ﴾ على ذكر العابد فإنَّ فيه مراعاة لتعظيم الله تعالى[2]؛ فقدم الضمير لئلا يتقدم ذكر العبد والعبادة على المعبود[3]، وكذلك مأخوذ من العبادة نفسها فإنها تشعر بالإتيان بالفعل المأمور به على سبيل التعظيم للآمر، وهو الله تعالى[4].

(٢١٢) التنبيه على أنَّ العابد ينبغي أن يكون نظره إلى المعبود أولًا وبالذات، ومنه إلى العبادة لا من حيث إنها عبادة صدرت عنه، بل من حيث إنها نسبة شريفة إليه ووصلة سنيَّة بينه وبين الحق سبحانه وتعالى؛ وهذا مأخوذ من تقديم ضمير الله تعالى ﴿إِيَّاكَ﴾ على الفعل ﴿نَعْبُدُ﴾[5].

(٢١٣) الثناء على الله تعالى سبب للقرب منه؛ وهذا مأخوذ من الالتفات من أسلوب الغيبة إلى أسلوب الخطاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب، وهو مناسبة، لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى؛ فلهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾»[6].

والالتفات بالخطاب هنا مشعر بأنه تعالى قريب يسمع دعاء الداعين ووسيلة المتوسلين؛ إذ لا يخاطب إلا من يسمع الخطاب[7].

---

(١) ينظر: الكتاب، سيبويه، ٣٤/١؛ ومعاني القرآن، النحاس، ٦٤/١؛ ومدارج السالكين، ابن القيم، ٩٨/١.

(٢) ينظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل، الكرماني، ١٠٢/١؛ وباهر البرهان في معاني مشكلات القرآن، الغزنوي، ٩/١.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤٥/١.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/١، ٢٦.

(٥) ينظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢٩/١؛ وروح المعاني، الآلوسي، ٨٧/١.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٣٥/١.

(٧) ينظر: فوائد في مشكل القرآن، ابن عبد السلام، ص٥٢؛ وقطف الأزهار في كشف الأسرار، السيوطي، ١٣٥/١.

(٢١٤) الخطاب في الدعاء أولى؛ وذلك أنه تعالى رجع من الخبر بطريق الغيبة إلى الخطاب، فأول السورة إلى هنا ثناء، والثناء في الغيبة أولى، وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ دعاء، والخطاب في الدعاء أولى[١]، وعلى هذا جرت أدعية القرآن كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١][٢].

(٢١٥) ينبغي للمتكلم أن يجدد نشاط السامع بأن يُنقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب؛ وهذا مأخوذ من الالتفات الذي أفاده الخطاب في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، حيث كان الكلام السابق بأسلوب الغائب ثم انتقل الكلام إلى الخطاب[٣]، وهذا التنقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في استجلاب النفوس واستمالة القلوب[٤]، كما أنه يجدد يجدد في النفس الإقبال على الاستمتاع بالتلاوة، والاعتبار بما في الكتاب، والإقبال الذي يتولد عنه التدبر والتفكر في آيات الله تعالى[٥].

(٢١٦) ينبغي للمتكلم أن يأتي بما يثير فطنة المخاطب وينبهه؛ وذلك لأنَّ الآيات التي قبل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كانت في سياق الغيبة، ثم تحول الأسلوب في هذه الآية إلى الخطاب، وفي هذا استثارة لفطنة المخاطب وتنبيه له[٦].

(٢١٧) القرآن الكريم جاء على أساليب العرب في الخطاب والبيان، لكنه اشتمل من طرق البيان على أدقها وأرقاها وأعظمها فوائد ولطائف، والالتفات الذي ورد في هذه

---

(١) ينظر: لباب التأويل، الخازن، ٢٠/١؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهذا قال من قال من السلف: نصفها ثناء ونصفها مسألة – أي الفاتحة –، وكل واحد من العبادة والاستعانة دعاء، وإذا كان الله قد فرض علينا أن نناجيه وندعوه بهاتين الكلمتين في كل صلاة فمعلوم أن ذلك يقتضي أنه فرض علينا أن نعبده وأن نستعينه». مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ٨/١٤.

(٢) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري، ١٠٧/١.

(٣) ينظر: الكشاف، الزمخشري، ١٤/١؛ وأنوار التنزيل، البيضاوي، ٢٩/١.

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١٦/١.

(٥) ينظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٦٢/١.

(٦) ينظر: أحكام من القرآن، ابن عثيمين، ٣٥/١.

السورة العظيمة من شواهد ذلك[1].

ومع أنَّ القرآن الكريم جاء على أساليب العرب في الخطاب والبيان إلا أنهم لم يستطيعوا الإتيان ولو بسورة من مثله، وهم أهل الفصاحة والبيان، وقد تحداهم القرآن الكريم في غير موضع، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، وما هذا إلا لأنَّ بيان القرآن أعظم من بيانهم وأدق وأعمق، ولهذا وقفوا مدهوشين أمام هذا البيان، وهذا أكبر دليل على أنه منزل من عند الله تعالى ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

(٢١٨) الله سبحانه وتعالى جدير بأن يخص بالعبادة والاستعانة، وألا تصرف إلا له؛ وهذا مأخوذ من أسلوب الالتفات في الآية الكريمة، وبيانه أنه تعالى لما ذكر أحقيته بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات، فقيل: إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة، لا نعبد غيرك ولا نستعينه؛ ليكون الخطاب أدل على أنّ العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به[2].

(٢١٩) الخطاب للحاضر، والطلب منه، والاستعانة به أقوى وأقرب إلى حصول المطلوب من خطاب الغائب؛ وهذا مأخوذ من الالتفات في الأسلوب من الغيبة إلى خطاب الله تعالى بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[3]؛ فإنه لما أجرى الحامد تلك الصفات على اسم الذات صار كالحاضر المشاهد فصلح لأن يخاطب بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[4]، وفي هذا الخطاب من التلطف على بلوغ المقصود ما لا يكون في لفظ إياه[5].

(٢٢٠) العبادة إنما يستحقها الحاضر الذي لا يغيب، كما حكى سبحانه عن

---

(١) ينظر: الأساس في التفسير، سعيد حوى، ٤٨/١.

(٢) ينظر: الكشاف، الزمخشري، ١٤/١؛ وأنوار التنزيل، البيضاوي، ٢٩/١.

(٣) ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ابن جماعة، ص٨٦.

(٤) ينظر: نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس البسيلي، ٦١/٢.

(٥) ينظر: البحر المحيط، أبو حيان، ١٤١/١.

إبراهيم عليه السلام: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٧٨]؛ ولهذا عبر سبحانه وتعالى عن الحمد بطريق الغيبة؛ لأنَّ الحمد لا يتفاوت غيبة وحضورًا، بل هو مع ملاحظة الغيبة أدخل وأتم، وعن العبادة بطريق الخطاب إعطاء لكل منهما ما يليق من النسق المستطاب[١].

(٢٢١) في الإتيان بضمير الخطاب ﴿إِيَّاكَ﴾ ارتفاع إلى مقام عظيم، وهو مخاطبة الله تعالى، ولعل هذا هو السرّ في اختصاص السورة الكريمة بوجوب القراءة في كل ركعة من ركعات الصلاة التي هي مناجاة العبد لمولاه؛ لأنَّ الصلاة وقوف بين يدي الديان، واتجاه إلى حضرته العلية[٢].

وقد صرحت السنة النبوية الشريفة بوجوب قراءة الفاتحة في الصلاة، وذلك في قول النبي ﷺ: ((لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب))[٣].

(٢٢٢) الردّ على المنكرين لوجود الصانع سبحانه وتعالى؛ وذلك لأنَّ الخطاب في الآية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ خطابٌ لموجود حاضر[٤].

(٢٢٣) إبراز الاستلذاذ بالمناجاة والخطاب لملك الملوك سبحانه وتعالى؛ وهذا مأخوذ من تكرار ضمير الخطاب ﴿إِيَّاكَ﴾ مع الفعلين (نعبد) و(نستعين)، وعدم الاكتفاء بضمير واحد[٥].

(٢٢٤) العبادة والاستعانة لا بدَّ أن يكونا في مقام الإحسان، وهذا مأخوذ من العدول عن الغيبة إلى الخطاب في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٦].

---

(١) ينظر: روح المعاني، الآلوسي، ٨٩/١.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١٦/١؛ وزهرة التفاسير، أبو زهرة، ٦٣/١.

(٣) سبق تخريجه ص ١١.

(٤) ينظر: البحر المحيط، أبو حيان، ١٤٣/١.

(٥) ينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١٧/١.

(٦) ينظر: حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي، محمد بن مصلح القوجوي، ٧٩/١؛ وجواهر الأفكار ومعادن الأسرار المستخرجة من كلام العزيز الجبار، ابن بدران، ص٣٨.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلةُ الإحسان، وهي لب الإيمان، وروحه وكماله، وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل، فجميعها منطوية فيها، وكل ما قيل من أول الكتاب إلى هاهنا[1] فهو من الإحسان ...»[2].

وقد ذكر النبي ﷺ هذا المقام في قوله: ((أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك))[3]، والمعنى: أن يعبد المؤمن ربه في الدنيا على وجه الحضور والمراقبة كأنه يراه وينظر إليه في حال عبادته، فإذا تحقق هذا المقام صحَّ له أن يعدل عن الغيبة ويخاطبه بخطاب الحضور فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ويكون جزاؤه وراء ذلك النظر إلى وجه الله تعالى عيانًا في الآخرة[4].

فعلى العبد أن يستشعر أثناء عبادته مراقبة الله تعالى كأنه يراه ويشاهده، وكأنه حاضر ماثل بين يديه، فإنه لما ذكر النعوت الجليلة التي أوجبت له تعالى أكمل تميز وأتم ظهور استدعى استعمال صيغة الخطاب ليلاحظ العبد نفسه كأنه واقف لدى مولاه، ماثل بين يديه، وهو يدعو بالخضوع والإخبات، ويقرع بالضراعة باب المناجاة[5].

(٢٢٥) إقرار العباد بربوبية الله تعالى وتحقيق عبادته؛ حيث إن إيراد الآية مقولًا على ألسنة المؤمنين من عباده ونطقهم به فيه إقرار بذلك[6].

(٢٢٦) كمال غنى الله تعالى؛ فهو الغني لذاته، وهو المقصود لدفع الحوائج، والخلق كلهم فقراء إليه؛ ولهذا استحق أن يفرد بالعباده في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على سبيل الحصر.

---

(١) يقصد كتابه (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين).

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم، ٤٢٩/٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب: الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، ١٩/١، رقم [٥٠]؛ ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: الإيمان ما هو وبيان خصاله، ٣٩/١، رقم [٩].

(٤) ينظر: جواهر الأفكار ومعادن الأسرار المستخرجة من كلام العزيز الجبار، ابن بدران، ص٣٨.

(٥) ينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١٦/١.

(٦) ينظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٧٢/١؛ والجامع لأحكام القرآن، ١٤٥/١.

(٢٢٧) إظهار التواضع من العبد؛ لأنه لما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ كان معناه أنه واحد من عبيد الله، ومن تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله[١]، ولو قال: إياك أعبد لكان فيه تعظيم لنفسه بجعله وحده أهلًا لعبادة الله تعالى الذي لا يستطيع أحد أن يعبده حق عبادته، ولا يثني عليه كما يليق به[٢].

(٢٢٨) العبادة أعلى مراتب الخضوع، وأقصى غاية التذلل؛ ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى؛ فقد أوجب تعالى إفراده بها وجعلها خاصة به ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وهذا الاختصاص يفيده تقديم المفعول الذي هو الضمير في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، والمنعم بأعظم النعم، كالحياة والعقل والسمع والبصر حقيقٌ بأن يخص بأعلى مراتب الخضوع، وأقصى غاية التذلل[٣].

وكذلك فإنَّ العبادة عبارة عن نهاية التعظيم، وهي لا تليق إلا بمن صدر عنه غاية الإنعام، وكل النعم حاصلة بإيجاد الله تعالى، فوجب أن لا تحسن العبادة إلا لله تعالى، فلهذا المعنى قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فأفاد حصر العبادة لله تعالى[٤].

(٢٢٩) التحرر المطلق من كل عبودية سوى عبودية الله سبحانه وتعالى، فإذا كان الله وحده هو الذي يُعبد، والله وحده هو الذي يُستعان، فهذا هو التحرر المطلق الكامل من النظم والأوضاع والأشخاص، مثلما هو تحرر من عبادة الأصنام والأوثان، والخضوع للأوهام والخرافات[٥].

(٢٣٠) العبودية لله تقتضي طاعة الله تعالى مع الذل والخضوع والخشوع والاستكانة التامة لله تعالى؛ لأنّ العبادة في اللغة الطاعة مع تذلل وخضوع، والعبودية أصلها الذلّة، والعرب تسمي الطريقَ المذلَّلَ معبَّدًا، ومنه سمي العبد لذلته لمولاه[٦].

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢١٢/١.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٣٥/١، ١٣٦.

(٣) ينظر: النكت والعيون، الماوردي، ٥٧/١، ٥٨؛ والكشاف، الزمخشري، ١٣/١.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠٨/١؛ ولباب التأويل، الخازن، ٢٠/١.

(٥) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢٥/١.

(٦) ينظر: جامع البيان، الطبري، ١٦١/١، ومعاني القرآن، الزجاج، ٤٨/١؛ ومعاني القرآن، النحاس، ٦٤/١.

(٢٣١) الوعد والعهد من العباد التالين لهذه السورة المباركة بعبادة رب العباد جلَّ وعلا، وذلك بقولهم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ولعل هذا مشارٌ إليه في قوله ﷺ: ((اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت))[(١)(٢)]؛ فلفظ ﴿إِيَّاكَ﴾ شهادة على النفس بالتوحيد الكامل، والتزام منها بالإخلاص التام، وكلُّ نقض لصفاء الإخلاص عبادةً واستعانةً إنما هو نقض لعهد الله، الذي يقطعه العبد شهادة على نفسه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ ولهذا ينبغي مجاهدة النفس لأداء هذا الوعد باستغراق العمر كله أيامه ولياليه سيرًا إلى الله عز وجلّ عبر منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ خطوة خطوة؛ ولهذا القصد جعلت الفاتحة صلاة مفروضة، تتلى في كل ركعة من كل صلاة على مدار الليل والنهار[(٣)].

(٢٣٢) عبادة العباد مبنية على تجددها وحدوثها منهم؛ ولهذا جيء في العبادة بالجملة الفعلية، ولم يقل العبادة لك، لأنَّ العبادة فعل من العباد يتحقق بعد وجودهم؛ ولذا جيء بالجملة الفعلية الدالة على الحدوث، بخلاف الحمد في بداية السورة فقد جيء معه بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت؛ لأنَّ الحمد له سبحانه أمر ثابت قبل كل الخلق وإن لم يحمدوه[(٤)].

وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] مما يدل على وجوب لزوم العبادة إلى اليقين، وهو الموت، وأنَّ العبودية صفة مستمرة للعبد في دار التكليف[(٥)].

(٢٣٣) إثبات نوع من أنواع العبودية (العبودية الخاصة)، وهي عبودية المحبة والطاعة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن شداد بن أوس ﷺ، كتاب: الدعوات، باب: أفضل الاستغفار، ٦٧/٨، رقم [٦٣٠٦].

(٢) ينظر: فوائد في مشكل القرآن، ابن عبد السلام، ص٥١.

(٣) ينظر: مجالس القرآن، د. فريد الأنصاري، ص١٣٧، ١٣٨.

(٤) ينظر: قطف الأزهار في كشف الأسرار، السيوطي، ١٣٦/١.

(٥) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١٢٤/١.

واتباع الأوامر، دلَّ على هذا قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ فعبادة المؤمنين الطائعين باتباع ما شرعه الله واجتناب ما نهى عنه حاصلة منهم عن طوع واختيار، وقد ذكر القرآن الكريم هذه العبودية في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٦٨ - ٦٩]، فهذه العبودية هي عبودية أهل طاعته تعالى وولايته، وهم عبيد إلهيته الذين خضعوا له وذلوا طوعًا واختيارًا لأمره ونهيه، وهم ومن عداهم من الخلق يجتمعون في (العبودية العامة) عبودية الربوبية: الخلق والملك والتدبير والقهر والخضوع له قهرًا ورغمًا، فهذه تشمل المؤمن والكافر، قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة لأنَّ أصل معنى اللفظة الذل والخضوع، فأولياء الله تعالى خضعوا له وذلوا طوعًا واختيارًا، وانقيادًا لأمره ونهيه، وأعداؤه خضعوا له قهرًا ورغمًا[1].

(٢٣٤) اشتمال العبادة على كل ما يُعبد الله تعالى به مما شرعه لعباده؛ وذلك لإطلاق العبادة وعدم تقييدها بجنس معين؛ «فالعبادة تستلزم أن يقوم الإنسان بكل ما أُمر به، وأن يترك كل ما نُهي عنه»[2]، وتقتضي فعل ما يرضي الربّ جلّ وعلا من خضوع وامتثال واجتناب، وعلى هذا فإنها تشمل الامتثال لأحكام الشريعة كلها؛ فظهر أنَّ العبادة هي طريق الكمال الذاتي والاجتماعي مبدأ ونهاية، وبه يتضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فالعبادة على الجملة لا تخرج عن كونها محققة للمقصد من الخلق، ولما كان سر الخلق والغاية منه خفية الإدراك عرَّفنا الله تعالى إياها بمظهرها وما يحققها جمعًا لعظيم المعاني في جملة واحدة وهي جملة:

(١) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/١٢٥- ١٢٧.

(٢) تفسير القرآن الكريم (الفاتحة - البقرة)، ابن عثيمين، ١/١٣.

﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[1]؛ ولهذا فإنه يجب التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه من الاعتقاد والأعمال والأقوال، وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ يقتضي الالتزام بذلك والإقرار به[2].

(٢٣٥) إثبات النبوات والرد على منكريها؛ وذلك لأنَّ قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ فيه إثبات للعبادة، وما يعبد به الرب تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه، وعبادته تعالى – التي هي شكره وحبه وخشيته – أمرٌ فطري ومعقول للعقول السليمة، لكن طريق التعبد وما يعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله وبيانهم، وفي هذا بيان أنَّ إرسال الرسل أمر مستقر في العقول، يستحيل تعطيل العالم عنه، كما يستحيل تعطيله عن الصانع، فمن أنكر الرسول فقد أنكر المرسِل ولم يؤمن به، ولهذا جعل الله سبحانه الكفر برسله كفرًا به[3].

ومما يدل على وجوب اتباع الرسول ﷺ والشرع الذي جاء به أنَّ من مقتضيات ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ محبة الله تعالى، وهذه تستلزم اتباع الرسول ﷺ كما نصَّ على ذلك القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [آل عمران: ٣١].

(٢٣٦) يجب كمال الحب لله تعالى، مع كمال الذل والخضوع له، وكمال الخوف منه؛ لأنَّ هذا مقتضى العبادة[4]؛ فإخلاص العبادة لله تعالى يقتضي «أن لا يشرك شيئًا ما معه، لا في محبته كمحبته، ولا في خوفه، ولا في رجائه، ولا في التوكل عليه، ولا في العمل له، ولا في النذر له، ولا في الخضوع له، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب؛ فإنَّ كل ذلك إنما يستحقه فاطر الأرض والسموات وحده؛ وذلك أنَّ لفظ العبادة يتضمن كمال الذّل بكمال الحب، فلا بد أن يكون العابد محبًّا للإله المعبود كمال الحب، ولا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل، وهما لا يصلحان إلا لله وحده؛ فهو

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٨٠، ١٨٢.

(٢) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/١٢٠، ١٢١.

(٣) ينظر: المصدر السابق، ١/٣٢.

(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/١٣٤؛ ومدارج السالكين، ابن القيم، ١/٩٥.

الإله المستحق للعبادة، الذي لا يستحقها إلّا هو، وهي كمال الحب والذل والإجلال والتوكل والدعاء بما لا يقدر عليه إلّا هو تعالى، وقد أشار لذلك تقديم المفعول؛ فإن فيه تنبيهًا على ما يجب للعبد من تخصيصه ربّه بالعبادة، وإسلامه وجهه لله وحده، لا كما كان عليه المشركون الذين ظهر النبي ﷺ عليهم، فقد كانوا متفرقين في عبادتهم، متشاكسين في وجهتهم: منهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الأحبار والرهبان، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار ... إلى غير ذلك، كما بينه القرآن الكريم»[1].

(٢٣٧) في الآية مع قوله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»[2] أنَّ الدعاء هو ركن العبادة الأعظم، وأصله من التنزيل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠][3].

بل إنَّ الصلاة التي هي أهم أركان الإسلام بعد الشهادتين أصلها في اللغة الدعاء؛ وسميت كذلك لأنها في أغلبها دعاء، إما صراحة بمسألة الله تعالى، كقول المصلي: رب اغفر لي، أو ضمنًا بالتسبيح والتحميد والتهليل وغير ذلك من الأذكار، أو الركوع والقيام والسجود وغيرها من الأفعال فإنه بهذا يطلب من الله الإثابة، ويهرب من العذاب بذلك، وهذا هو الطلب في الحقيقة، فكل فعل يفعله الإنسان يريد التقرب به إلى الله فهو داخل في هذا.

(٢٣٨) في الآية إشارة إلى تحقيق معنى (لا إله إلا الله)؛ لأنَّ معناها مركب من أمرين: نفي وإثبات، فالنفي: خلع جميع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادات، والإثبات: إفراد رب السماوات والأرض وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه المشروع،

---

(١) محاسن التأويل، القاسمي، ٢٢٨/١.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، كتاب: الصلاة، باب: الدعاء، ٧٦/٢، رقم [١٤٧٩]؛ والترمذي في سننه، كتاب: الدعوات، باب: ما جاء في فضل الدعاء، ٤٥٦/٥، رقم [٣٣٧٢]؛ وابن ماجه في سننه، كتاب: الدعاء، باب: فضل الدعاء، ١٢٥٨/٢، رقم [٣٨٢٨]، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه كذلك الألباني. ينظر: صحيح سنن أبي داود، الألباني، ٤٠٧/١.

(٣) ينظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٢٣٠/١.

وقد أشار إلى النفي من (لا إله إلا الله) بتقديم المعمول الذي هو (إياك)، وقد تقرر في الأصول في مفهوم المخالفة، وفي المعاني في مبحث القصر: أنَّ تقديم المعمول من صيغ الحصر، وأشار إلى الإثبات منها بقوله: (نعبد).

وقد بين الله تعالى معنى (لا إله إلا الله) المشار إليه هنا مفصلًا في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، فصرح بالإثبات بقوله: ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾، وبالنفي بقوله: ﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾، وكقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، إلى غير ذلك من الآيات[(١)].

(٢٣٩) أنفع الدعاء طلب العون على عبادة الله تعالى ومرضاته؛ وهذا مأخوذ من ذكر الإعانة بعد العبادة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه، وأهل العبادة والاستعانة بالله عليها غاية مرادهم عبادة الله، وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفقهم للقيام بها، ولهذا كان من أفضل ما يسأل الربّ تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته، وهذا الذي علمه النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حيث قال له: ((يا معاذ، والله إني لأحبك، فلا تنس أن تقول في دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك))[(٢)][(٣)].

(٢٤٠) عبادة الله تعالى وإظهار الذلة والضعف بين يدي الله تعالى سبب للإعانة والتوفيق والتأييد[(٤)]؛ وذلك لأنَّ في تقديم العبادة على الاستعانة إشارة إلى أنَّ العبادة سبب للتوفيق والإعانة.

---

(١) ينظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ١/٧.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الصلاة، باب: في الاستغفار، ٢/٨٦، رقم [١٥٢٢]؛ والنسائي في سننه الصغرى، كتاب: السهو، نوع آخر من الدعاء، ٣/٥٣، رقم [١٣٠٣]، والحديث صححه الألباني. ينظر: صحيح سنن أبي داود، الألباني، ١/٤١٧.

(٣) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/١٠٠.

(٤) ينظر: بحر العلوم، السمرقندي، ١/١٨.

(٢٤١) الإرشاد إلى تقديم الخضوع والتذلل على طلب الحاجة منه تعالى؛ وذلك لتقديم قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ الدال على كمال الخضوع والتذلل لله تعالى على قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الدال على طلب العون من الله تعالى[١].

(٢٤٢) الإرشاد إلى تقديم حق الله سبحانه وتعالى ثم سؤاله ليكون ذلك أحرى بالإجابة؛ وذلك لأن الله تعالى قدم حقه، وهو العبادة، قبل الاستعانة التي هي من مطلوب العباد[٢]؛ فالعبادة طلب له تعالى وحقه الذي أوجبه على العبد، والاستعانة طلب العون على العبادة، وما هو حقه تعالى أوثق وأولى بالتقديم[٣].

(٢٤٣) الاستعانة ثمرة للعبادة؛ وذلك لتقدم العبادة على الاستعانة، ولا ينافي هذا أنَّ العبادة نفسها مما يستعان عليه بالله تعالى ليوفق العابد للإتيان بها على الوجه المرضي له تعالى؛ لأنَّ الثمرة التي تخرج من الشجرة تكون حاوية للنواة التي تخرج منها شجرة أخرى، فالعبادة تكون سببًا للمعونة من وجه، والمعونة تكون سببًا للعبادة من وجه آخر[٤].

(٢٤٤) العبادة التامة المطلقة تتضمن الاستعانة من غير عكس؛ وهذا مأخوذ من تقديم العبادة على الاستعانة، فكل عابد لله عبودية تامة مستعين به ولا ينعكس؛ لأنَّ صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته، فكانت العبادة أكمل وأتم، ولهذا كانت قسم الرب تعالى[٥][٦].

(٢٤٥) الإقرار بعد فعل العبادة بأنه لا إعانة عليها إلا بالله أقربُ لمقام التذلل

---

(١) ينظر: الإكليل في استنباط التنزيل، السيوطي، ص٢٥.

(٢) ينظر: تفسير الراغب الأصفهاني، ٥٩/١.

(٣) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٩٧/١؛ وزهرة التفاسير، أبو زهرة، ٦٤/١.

(٤) ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٥١/١.

(٥) قد سبق ذكر حديث هذا التقسيم مرارًا وفيه: ((فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل ...)). ينظر تخريجه ص ١٤.

(٦) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٩٧/١.

والخضوع، وأقرب لكمال الافتقار وخلوص النية؛ فإنّ المكلف إذا أقرّ أوّلًا بأن لا قدرة له على الفعل إلا بالله، ثم فعل العبادة فإنّه قد تحول نيته بعد ذلك ويتوهّم أن الفعل الواقع منه بقدرته استقلالًا، فإذا أقر بعد الفعل بأن لا استعانة له عليه إلا بالله كان أقرب لمقام التذلّل والخضوع؛ وهذا مأخوذ من تقديم العبادة على الاستعانة في الآية الكريمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1].

(٢٤٦) طلب المعونة من الله تعالى لا يكون إلا بعد معرفته، ومعرفته هو التوحيد، وهو العبادة؛ وهذا مأخوذ من تقديم العبادة على الاستعانة[2].

(٢٤٧) الإشعار بعلو رتبة عبادته تعالى، وبكونها عند العابد أشرف المباغي والمقاصد، وبكونها من مواهبه تعالى لا من أعمال العبد نفسه؛ وهذا مأخوذ من تقديم العبادة على الاستعانة في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[3].

(٢٤٨) ينبغي الدعاء بعد العبادة، وهو من أسباب الإجابة، وهذا مأخوذ من تقديم العبادة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على طلب العون من الله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[4].

ويستأنس لهذا بما ورد في القرآن الكريم من ذكر الدعاء بعد الفراغ من الحج بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠٠ - ٢٠١]، وبعد ذكر إكمال عدة الصيام في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ

(١) ينظر: تفسير ابن عرفة، ابن عرفة المالكي، ١/١٠٠، ١٠١.

(٢) ينظر: تفسير ابن عرفة، ابن عرفة المالكي، ١/١٠١.

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/١٧.

(٤) ينظر: تدبر سورة الفاتحة، د. ناصر العمر، ص٥٠.

﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ومن مواطن الإجابة التي ذكرها النبي ﷺ بعد الصلوات المكتوبات، وقد سُئل ﷺ: أيّ الدعاء أسمع؟ فقال: ((جوف الليل الآخر، ودبر الصلوات المكتوبات))[١].

(٢٤٩) العبادة أكمل من الاستعانة؛ ولهذا قدمت، وبيان ذلك أنَّ قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ له تعالى، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ به، وما له سبحانه وتعالى مقدم على ما به؛ لأنَّ ما له متعلق بمحبته ورضاه، وما به متعلق بمشيئته، وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته، فإنَّ الكون كله متعلق بمشيئته، والملائكة والشياطين، والمؤمنون والكفار، والطاعات والمعاصي، والمتعلق بمحبته: طاعتهم وإيمانهم، فالكفار أهل مشيئته، والمؤمنون أهل محبته، ولهذا لا يستقر في النار شيء لله أبدًا، وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته[٢].

(٢٥٠) العبادة هي الغاية المقصودة والاستعانة وسيلة إليها؛ وهذا مأخوذ من تقديم العبادة على الاستعانة، وهذا التقديم من باب تقديم الغايات على الوسائل؛ إذ العبادة غاية العباد التي خلقوا لها، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والاستعانة وسيلة إليها، والاهتمام والحزم هو أن يقدم ما هو الأهم فالأهم[٣].

(٢٥١) التزام عبودية الله تعالى والدخول تحت رقها سبب لنيل الإعانة، وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم؛ فالعبادة شكر لنعمة الله تعالى على العبد، والله تعالى يحب أن يشكر، والإعانة فعله وتوفيقه، فإذا التزم عبوديته، ودخل تحت رقها أعانه عليها؛ وهذا الارتباط مأخوذ من تقديم العبادة على الاستعانة[٤].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه عن أبي أمامة ﷺ، كتاب الدعوات، ٥/٥٢٦، رقم [٣٤٩٩]، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وحسنه كذلك الألباني. ينظر: صحيح سنن الترمذي، ٣/٤٤٢.

(٢) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٩٨.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/١٣٥؛ ومدارج السالكين، ابن القيم، ١/٩٧.

(٤) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٩٧.

(٢٥٢) تقديم ما فيه تقرّب للخالق جلَّ وعلا؛ وذلك لأن العبادة تقرب للخالق تعالى فهي أجدر بالتقديم في المناجاة، وأما الاستعانة فهي لنفع المخلوق للتيسير عليه فناسب أن يقدم المناجي ما هو من عزمه وصنعه على ما يسأله مما يعين على ذلك[١].

(٢٥٣) الاهتمام بأمور الدين وأمور الآخرة، وطلب الإعانة عليها، وتقديم ذلك على أمور الدنيا؛ فالعبادة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ من مهمات الدين، وقدمت على قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ للإشعار بتلك الأهمية[٢].

(٢٥٤) مراعاة انتظام الكلام وحسن موقعه؛ وذلك مأخوذ من تقديم قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فحصل من ذلك التقديم إيفاء حق فواصل السورة المبنية على الحرف الساكن المتماثل أو القريب في مخرج اللسان[٣].

(٢٥٥) لا ينبغي أن يُتوكل إلا على من يستحق العبادة؛ لأنَّ غيره ليس بيده الأمر؛ وذلك مأخوذ من الإتيان بقوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بعد قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وهذا المعنى المشار إليه هنا جاء مبينًا واضحًا في آيات أخر كقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وقوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، إلى غير ذلك من الآيات[٤].

(٢٥٦) التبرؤ من العجب الذي قد يحصل بسبب العبادة؛ لأنَّ العبد إذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فهذه منزلة عظيمة، فربما يحصل بسبب ذلك العجب، فأردف ذلك بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ليزول ذلك العجب الذي قد يحصل بسبب تلك العبادة[٥].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٨٦.

(٢) ينظر: الفوائد اللائحة من معاني الفاتحة، ابن جماعة، ص٣٨؛ وتأملات في سورة الفاتحة، د. حسن باجودة، ص٩٩.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٨٦.

(٤) ينظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ١/٧.

(٥) ينظر: لباب التأويل، الخازن، ١/٢٠؛ وغرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري، ١/١٠٧.

(٢٥٧) الاستعانة نوع تعبد، وهي جزء من العبادة، فكأنه ذكر جملة العبادة أوّلًا، ثم ذكر ما هو من تفاصيلها، وهو الاستعانة، فهو من ذكر الخاص بعد العام اعتناء بهذا الخاص[١]؛ ولاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى، فإنه إن لم يعنه الله لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر، واجتناب النواهي؛ ولذا قدم العبادة على الاستعانة[٢].

(٢٥٨) ارتباط العبادة بالاستعانة؛ فالعبادة لا سبيل إليها إلا بالمعونة، والمعان على العبادة لا يكون إلا عابدًا، فكل واحد مرتبط بالآخر؛ ولذا قرن الله تعالى بين العبادة والاستعانة، وعطف بينهما بحرف العطف الواو[٣].

ومما يدل على أنَّ عبادة الله تعالى لا تتهيأ إلا بمعونته تعقيب العبادة بطلب الاستعانة به تعالى[٤]، وكأن العبد يقول: يا رب شرعت في العبادة، فإني أستعين بك على أدائها وإتمامها، حتى لا يمنعني مانع، ولا يعارضني صارف[٥].

والله سبحانه وتعالى جمع بين العبادة والاستعانة أو التوكل في مواطن عدة من القرآن الكريم[٦]؛ لأنه لا قيام بالعبادة على الوجه الأكمل إلا بمعونة الله، والتفويض إليه، والتوكل والتوكل عليه[٧].

(٢٥٩) في الآية إشارة إلى أن يعرض العبد حاجته وطلب الإعانة منه تعالى مقرونًا بعبادته؛ ليكون أدعى للقبول والإجابة، كأن يعرضها في أثناء صلاة أو صيام أو بعد أدائهما؛ وهذا مأخوذ من قرنه سبحانه وتعالى بين العبادة والاستعانة في الآية الكريمة.

---

(١) ينظر: تفسير السمعاني، أبو المظفر السمعاني، ١/٣٧؛ ومدارج السالكين، ابن القيم، ١/٩٧.

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٩.

(٣) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب القيسي، ١/١٠٧.

(٤) ينظر: تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي في التفسير، ص١٤٨.

(٥) ينظر: لباب التأويل، الخازن، ١/٢٠؛ وغرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري، ١/١٠٧.

(٦) كقوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣].

(٧) ينظر: تفسير القرآن الكريم (الفاتحة – البقرة)، ابن عثيمين، ١/١٤.

ويمكن أن يُستأنس لهذا بإرشاده ﷺ لأصحابه إلى صلاة الاستخارة ثم الدعاء بالإعانة والتوفيق واختيار ما فيه الخير[1].

(٢٦٠) الإرشاد إلى أن يجدد العبد لكل دعوة عزيمة وتوجهًا؛ وذلك لأنه تعالى كرر الضمير ﴿إِيَّاكَ﴾ لكل من الفعلين ﴿نَعْبُدُ﴾ و﴿نَسْتَعِينُ﴾ ، ولم يجمع الفعلين في ضمير واحد كأن يقال: إياك نعبد ونستعين[2].

(٢٦١) تعليم العباد أن يجددوا ذكره تعالى عند كل حاجة تعرض لهم؛ وهذا مأخوذ من تكرار ضمير المعبود سبحانه ﴿إِيَّاكَ﴾ مع الفعل ﴿نَسْتَعِينُ﴾ وعدم الاكتفاء بالضمير الأول[3].

(٢٦٢) المبالغة في طلب العون من الله تعالى، وإظهار الاعتماد عليه، وإحضار التعلق بالله، والإقبال عليه؛ وذلك لتكرير الضمير مع الفعل ﴿نَسْتَعِينُ﴾، وعدم الاقتصار على الضمير في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[4].

(٢٦٣) إرشاد العباد إلى طلب المعونة على العبادة والطاعة وعلى كلِّ الأمور من ربهم جلَّ وعلا؛ وهذا مأخوذ من معنى قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، أي: «وإياك ربنا نستعين على عبادتنا إيّاك وطاعتنا لك وفي أمورنا كلها لا أحدًا سواك»[5].

---

(١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: ((إذا هم أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري – أو قال عاجل أمري وآجله – فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري – أو قال في عاجل أمري وآجله – فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم أرضني)). أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الدعوات، باب: الدعاء عند الاستخارة، ٨/٨١، رقم [٦٣٨٢].

(٢) ينظر: باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن، الغزنوي، ١/٩.

(٣) ينظر: روح المعاني، الآلوسي، ١/٩٠.

(٤) ينظر: نظم الدرر البقاعي، ١/٣٣، والبحر المديد، ابن عجيبة، ١/٣٢.

(٥) جامع البيان، الطبري، ١/١٦١.

وفي ذلك اعتراف من العبد بالعجز والفقر إلى الله تعالى، فإنَّ العبد لا يتم له شيء إلا بإعانة الله تعالى؛ وذلك أنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله، فعند ذلك يستعين العبد بالله في تحصيل كل المطالب[1]، وذلك هو المراد بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2]، والاستعانة هي نوع من استصغار العبد حاله بجوار عظمة الله تعالى، وافتقاره إليه تعالى، وأنه محتاج إليه دائمًا، لئلا يركبه غرور الحياة، وهذا الافتقار والاحتياج استجابة وفهم لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥][3].

(٢٦٤) التأكيد على أنه سبحانه المستعان به لا غير، وعلى إفراده وحده سبحانه وتعالى بالاستعانة؛ وذلك مأخوذ من تقديم الضمير ﴿إِيَّاكَ﴾ على فعل الاستعانة ﴿نَسْتَعِينُ﴾؛ لحصر الاستعانة به تعالى، والمعنى: لا نستعين إلا بك[4].

وكذلك مأخوذ من تكرار الضمير ﴿إِيَّاكَ﴾ ليكون كل من العبادة والاستعانة سيقا في جملتين، وكل منهما مقصودة، وللتنصيص على طلب العون منه تعالى، بخلاف لو كان: إياك نعبد ونستعين، فإنه كان يحتمل أن يكون إخبارًا بطلب لعون، أي وليطلب العون من غير أن يعين ممن يطلب[5][6].

---

(١) وقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٢] يدل على أنَّ المسلم قد يستعين بغير الله فيما يدخل ضمن قدرة البشر ودائرة الأسباب، ولكنه لا يستعين في عظائم الأمور التي هي خارجة عن دائرة أسباب البشر إلا بالله، وكذلك لا يعد الاستعانة حقيقة وإن كانت ضمن نطاق الأسباب إلا الاستعانة بالله تعالى فهو مسبب الأسباب. ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٨٦/١.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٥٧/١، ٢١٥؛ والتسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ٦٥/١.

(٣) ينظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، ١٦٥/١.

(٤) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٩٨/١.

(٥) ينظر: البحر المحيط، أبو حيان، ١٤٣/١.

(٦) التوحيد الخالص يقتضي ألا يستعين العبد بغير الله تعالى قط، فما كان من أنواع المعونة داخلًا في حلقات سلسلة الأسباب كان طلبه بسببه طلبًا من الله تعالى، ولكنه يحتاج في تحقق ذلك إلى قصد وملاحظة وشهود قلبي، وما كان غير داخل فيها يتوجه في طلبه إلى الله تعالى بلا واسطة ولا حجاب، وبهذا يُعلم أنه لا منافاة بين التوحيد والتوكل وبين الأخذ بالأسباب وإقامة سنن الله تعالى فيها، بل الكمال والأدب في الجمع بينهما. ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٥١/١.

ويؤيد هذا قوله ﷺ: ((إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله))[1].

(٢٦٥) عموم الاستعانة لكل ما يُستعان عليه من أمور الدين والدنيا والآخرة؛ وذلك لإطلاق الاستعانة وعدم تقييدها بشيء[2].

(٢٦٦) تكريم الإنسان بنسبة كسب الأعمال إليه في تربية نفسه وتزكيتها؛ لأنَّ لفظ الاستعانة يشعر بأن يطلب العبد من الرب تعالى الإعانة على شيء له فيه كسب ليعينه على القيام به، وفي ذلك إرشاد للإنسان للعمل بالأسباب؛ فترك العمل والكسب ليس من سنة الفطرة ولا من هدي الشريعة، فمن تركه كان كسولًا مذمومًا، لا متوكلًا محمودًا[3].

(٢٦٧) تذكير الإنسان بضعفه لكيلا يغتر، فيتوهم أنه مستغن بكسبه عن عناية ربه، فيكون من الهالكين في عاقبة أمره؛ وهذا مأخوذ من تعليق الاستعانة بالله تعالى لا بأحد سواه[4]؛ فالإنسان مهما أوتي من حصافة الرأي، وحسن التدبير، وتقليب الأمور على وجوهها لا يستغني عن العون الإلهي، واللطف الخفي[5].

(٢٦٨) في الآية دلالة على التوكل وتفويض الأمور إلى الله تعالى؛ وذلك لأنَّ قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تبرؤ من الحول والقوة، وتفويض الأمر إلى الله تعالى، وجاء على سبيل الحصر، كأنه قال: لا نتوكل إلا عليك، وهذا التوكل والتفويض ورد في غير آية من القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣][6].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، ٦٦٧/٤، رقم [٢٥١٦]؛ والحاكم في مستدركه، كتاب: معرفة الصحابة، ذكر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ٦٢٣/٣، رقم [٦٣٠٣]، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصحح الحديث كذلك الألباني. ينظر: صحيح سنن الترمذي، الألباني، ٦١٠/٢.

(٢) ينظر: البحر المحيط، أبو حيان، ١٤٣/١؛ وفتح القدير، الشوكاني، ٢٧/١.

(٣) ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٥١/١.

(٤) ينظر: المصدر السابق، ٥١/١.

(٥) ينظر: تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، ٣٤/١.

(٦) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٣٤/١، ١٣٥.

(٢٦٩) الله سبحانه وتعالى فاعل مختار؛ وهذا مأخوذ من كونه تعالى مستعانًا؛ فإنَّ الاستعانة بمن لا اختيار له ولا مشيئة ولا قدرة محال[١].

(٢٧٠) وجوب الجمع بين الثقة بالله تعالى، والاعتماد عليه؛ لأنَّ هذا من مقتضيات الاستعانة؛ فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره مع ثقته به لاستغنائه عنه، وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلى اعتماده عليه، مع أنه غير واثق به، أما الله تعالى فيجب الثقة به والاعتماد عليه[٢].

(٢٧١) اعتراف العبد بتقصيره، وتضرعه إلى الله بقبول عبادته؛ وهذا مأخوذ من التعبير بضمير الجمع ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وكأنَّ العبد يقول: إلهي ما بلغت عبادتي إلى حيث أستحق أن أذكرها وحدها، لأنها ممزوجة بجهات التقصير، ولكني أخلطها بعبادات جميع العابدين، وأذكر الكل بعبارة واحدة وأقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فإذا قال العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فقد عرض على الله جميع عبادات العابدين؛ لأنَّ قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ دخل فيه عبادات الملائكة، وعبادات الأنبياء والأولياء، وكأن العبد يقول: إلهي إن لم تكن عبادتي مقبولة فلا تردني لأني لست بوحيد في هذه العبادة، بل نحن كثيرون، فإن لم أستحق الإجابة والقبول فأتشفع إليك بعبادات سائر المتعبدين فأجبني[٣].

(٢٧٢) في الآية إشارة إلى أنَّ الصلاة بنيت على الاجتماع، وأنَّ الأَولى بالإنسان أن يؤدي الصلاة في الجماعة؛ وذلك لمجيء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بنون الجمع، مع كون قراءة الفاتحة ركنًا من أركان الصلاة، لا تصح إلا بها[٤].

---

(١) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٨٩/١.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ٩٦/١.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢١٣/١؛ وأنوار التنزيل، البيضاوي، ٢٩/١.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢١٢/١؛ وأنوار التنزيل، البيضاوي، ٢٩/١؛ ونظم الدرر، البقاعي، ٣٧/١.

وقد ورد في السنة النبوية الشريفة بيان فضل صلاة الجماعة على صلاة المنفرد، من ذلك قوله ﷺ: ((صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة))[١].

(٢٧٣) التنبيه على أنَّ المؤمنين إخوة، فلو قال: إياك أعبد لكان قد ذكر عبادة نفسه ولم يذكر عبادة غيره، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فقد ذكر عبادة نفسه وعبادة جميع المؤمنين[٢]، وفي هذا تعميق في قلب كل مؤمن لمعنى الجماعة الربانية الواحدة المؤمنة العابدة لربها التي لا تشرك بعبادته أحدًا، فهو يقول معها في مخاطبة الله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٣]، والمسلم كثيرًا ما يردد هذه السورة وحيدًا، ولكنه في حقيقة الأمر لا ينسى إخوانه المؤمنين؛ لذلك هو يدعو لهم ولنفسه بخيري الدنيا والآخرة، وهو وإن كان بجسده وحيدًا فإنه بمشاعره وأحاسيسه وعواطفه يحب أن يكون كثيرًا؛ لأنه يتمنى لكل أخ له في الإسلام ما يتمناه لنفسه، وها هو يضم إخوانه المؤمنين في توجهه إلى الله في صلاته، ويقول تعبيرًا عنه وعن إخوانه في عبادته لله تعالى واستعانته به لخير الدنيا والآخرة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٤].

(٢٧٤) السعي في إصلاح مهمات المؤمنين، لأنَّ العبد لما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ كان قد ذكر عبادة نفسه وعبادة جميع المؤمنين، فكأنه قد سعى لإصلاح مهماتهم بعدم الاقتصار على عبادة نفسه دونهم، وإذا فعل ذلك قضى الله مهماته[٥].

(٢٧٥) ينبغي للأمة أن تجتمع وتتفق على العبادة والاستعانة بالله عزَّ وجلَّ؛ وذلك للتعبير في الفعلين (نعبد ونستعين) بنون الجماعة، ولم يقل: أعبد وأستعين[٦].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، كتاب: الأذان، باب: فضل صلاة الجماعة، ١/١٣١، رقم [٦٤٥]؛ ومسلم في صحيحه، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل الجماعة، ١/٤٥٠، رقم [٦٥٠].

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١/٢١٢.

(٣) ينظر: معارج التفكر ودقائق التدبر، الميداني، ١/٢٩٩.

(٤) ينظر: تأملات في سورة الفاتحة، د. حسن باجودة، ص١٠٤.

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١/٢١٢.

(٦) ينظر: أحكام من القرآن، ابن عثيمين، ١/٣٦.

(٢٧٦) أهمية الجماعة في الإسلام وقيمتها، والعمل على تقويتها؛ وذلك للتعبير عن العبادة والاستعانة بلفظ الجمع لا الإفراد حيث قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ فالدين الإسلامي ليس دينًا فرديًّا، بل هو دين جماعي، وكثير من مظاهر الجماعية واضح فيه، كصلاة الجماعة، وهي كما قال الرسول ﷺ: ((تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة))[(١)]، وليست المساجد إلا مظهرًا من مظاهر الجماعية[(٢)].

ومما يؤيد أهمية الجماعة في الإسلام حثه ﷺ على لزوم جماعة المسلمين، وعدم الخروج عليهم، ومن ذلك قوله ﷺ: ((عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة؛ فإنَّ الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فيلزم الجماعة))[(٣)]، وقوله ﷺ: ((وأنا آمركم بخمسٍ، الله أمرني بهن: السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة؛ فإن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع))[(٤)].

(٢٧٧) الإشعار بأنَّ المؤمنين المخلصين يكونون في اتحادهم وإخائهم بحيث يقوم

---

(١) سبق تخريجه ص ١٣٥.

(٢) والحج أكبر مظهر جماعي، والزكاة والصدقات من أكبر مظاهر التكافل الاجتماعي، والجهاد من شؤون الجماعة، ويعلنه ولي الأمر، والصوم في الإسلام ليس عبادة فردية محضة، بل هو عبادة جماعية؛ فتخصيصه بشهر معين يلتزم به جميع المجتمع المسلم وليس كما يرغب الفرد من أكبر مظاهر الجماعية، وتعيين الأعياد ووجوب الإفطار فيها فلا يشذ فرد واحد عن المجتمع من أكبر مظاهر الجماعية، وتعزية المصاب، والتهنئة عند حصول مسرة فيه مظهر الجماعية، إلى غير ذلك مما فيه روح الجماعة الإسلامية. ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د. فاضل السامرائي، ص٤٣، ٤٤؛ وتأملات في سورة الفاتحة، د. حسن باجودة، ص١٠٤، ١٠٥.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، واللفظ له، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، كتاب: الفتن، باب: ما جاء في لزوم الجماعة، ٤/٤٦٥، رقم [٢١٦٥]؛ والحاكم في مستدركه، كتاب: العلم، ١/١٩٧، رقم [٣٨٧]، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، وصحح الحديث كذلك الألباني. ينظر: صحيح سنن الترمذي، الألباني، ٢/٤٥٧.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، عن الحارث الأشعري ﷺ، كتاب: الأمثال، باب: ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصيام والصدقة، ٥/١٤٨، رقم [٢٨٦٣]؛ والحاكم في مستدركه، كتاب: العلم، ١/٢٠٤، رقم [٤٠٤]، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب، وصحح الحديث كذلك الألباني. ينظر: صحيح سنن الترمذي، الألباني، ٣/١٤٥.

كل واحد منهم في الحديث عن شؤونهم الظاهرة وغير الظاهرة مقام جميعهم، فهم كما قال النبي ﷺ: ((المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم))[1]؛ ولهذا يعبر الواحد منهم بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بنون الجماعة[2].

(٢٧٨) المبالغة في الثناء على الله تعالى، وهذا مأخوذ من العدول عن ضمير الواحد إلى الإتيان بضمير المتكلم المشارك، (نعبد) و(نستعين)، وهذا أبلغ من أعبد وأستعين؛ لئلا تخلو المناجاة عن ثناء أيضًا بأن المحمود المعبود المستعان قد شهد له الجماعات وعرفوا فضله، فكأنَّ الحامد لما انتقل من الحمد إلى المناجاة لم يغادر فرصة يقتنص منها الثناء إلا انتهزها[3].

(٢٧٩) الشفاء من مرض فساد القلب[4]، وأعظمه مرضان: الرياء والكبر؛ فدواء الرياء بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ لأنَّ فيه تذكيرًا بمقام الإخلاص، ودواء الكبر بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ لأنَّ فيه تذكيرًا بحاجة العبد لربه وافتقاره إليه؛ فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يدفع الرياء، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تدفع الكبرياء[5].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه عن قيس بن عباد ﷺ، كتاب: الديات، باب: أيقادُ المسلم بالكافر؟ ١٨٠/٤، رقم [٤٥٣٠]؛ وابن ماجه في سننه، كتاب: الديات، باب: المسلمون تتكافأ دماؤهم، ٨٩٥/٢، رقم [٢٦٨٣]؛ والحاكم في مستدركه، كتاب: قسم الفيء، ١٥٣/٢، رقم [٢٦٢٣]، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وصحح الحديث كذلك الألباني. ينظر: صحيح سنن أبي داود، الألباني، ٩٧/٣.

(٢) ينظر: التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، ٢٢/١.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٨٦/١.

(٤) ومما يتعلق بفساد القلب فساد القصد، والشفاء منه أيضًا بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والتحقق بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ علمًا ومعرفة، وعملًا وحالًا يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد، فإنَّ فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل، فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعي قصده فاسدًا، وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبة غير الله وعبوديته من المشركين ومتبعي الشهوات، الذين لا غاية لهم وراءها، وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رئاستهم بأي طريق كان من حق أو باطل ...». مدارج السالكين، ابن القيم، ٧٦/١.

(٥) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٧٨/١؛ وتدبر سورة الفاتحة، د. ناصر العمر، ص٥١.

الآية السادسة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾

من الهدايات التي يمكن أن تؤخذ من هذه الآية ما يأتي:

(٢٨٠) سعة كرم الله وفضله حيث يتفضل بقبول هذا الدعاء وهذه المناجاة من عبده المخلص المقبل عليه، وقد قال الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: ((قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ... فإذا قال: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾، قال: **هذا لعبدي ولعبدي ما سأل**))[(١)].

(٢٨١) في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ في فاتحة الكتاب والتي هي أعظم سورة فيه دليلٌ على أنَّه كتاب هداية؛ فمن طلب الهدى به هداه الله تعالى[(٢)].

(٢٨٢) في الآية مع ما قبلها من الآيات أنَّ من الهداية المطلوب التثبيت عليها الهداية لحمده تعالى، واستحقاق الثناء، والعبادة؛ لأنَّ قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ هو دعاء للهداية والتثبيت عليها في المستقبل، والتوفيق عما ضل عنه الكفار من معرفة الله تعالى وحمده والثناء عليه فاستحقوا لذلك غضبه وعقابه[(٣)].

(٢٨٣) بالهداية إلى الصراط المستقيم تصح العبادة من العباد وتقبل؛ لأنه لما أخبر المتكلم أنه هو ومن معه يعبدون الله ويستعينونه سأل له ولهم الهداية إلى الطريق الواضح، فبالهداية إليه تصح منهم العبادة، ومن لم يهتد إلى السبيل الموصلة لمقصوده لا يصح له بلوغ مقصوده[(٤)].

(٢٨٤) التنبيه على كمال الافتقار إلى الله تعالى، وأنَّ جميع العبادة والطاعة بتوفيق الله تعالى، وليس للعبد عليها قدرة إلا بالله تعالى؛ وذلك أن العبد لـمّا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ ربما أوهم أن له في العبادة شيئًا من المشاركة، فعقبه بطلب الهداية للتنبيه على كمال الافتقار[(٥)].

---

(١) سبق تخريجه ص ١٤.

(٢) ينظر: تدبر سورة الفاتحة، د. ناصر العمر، ص٥٣.

(٣) ينظر: أحكام القرآن، الجصاص، ٢٧/١.

(٤) ينظر: البحر المحيط، أبو حيان، ١٤٧/١.

(٥) ينظر: تفسير ابن عرفة، ابن عرفة المالكي، ١٠٢/١.

(٢٨٥) أهمية لجوء الإنسان إلى الله عزّ وجلّ بعد استعانته به على العبادة أن يهديه الصراط المستقيم؛ لأنه لا بد في العبادة من إخلاص؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ ومن استعانة يتقوى بها على العبادة؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ ومن اتباع للشريعة؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[١].

(٢٨٦) في الآية مع ما قبلها إشارة إلى حاجة المخلوقين الدائمة إلى إمداد خالقهم، تقتضي استمرار طلب الهداية وطلب المعونة من الله سبحانه وتعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[٢].

(٢٨٧) بيان المقصود الأعظم والأكمل والأهم من المعونة المطلوبة في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٣]؛ فكأنه أفرد أعظم أبواب المعونة بالإرشاد إلى طلبها لأهميتها.

والمراد بالهداية هنا الإعانة والتوفيق للسير في طريق الخير والنجاة مع الدلالة، وهي لم تكن ممنوحة لكل أحد كالحواس والعقل، ولما كان الإنسان عرضة للخطأ والضلال في فهم الدين وفي استعمال الحواس والعقل، كان محتاجًا إلى المعونة الخاصة، فأمرنا الله بطلبها منه في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، والمعنى: دلنا دلالة تصحبها معونة غيبية من لدنك تحفظنا بها من الضلال والخطأ، وما كان هذا أول دعاء علمنا الله إياه، إلا لأنَّ حاجتنا إليه أشد من حاجتنا إلى كل شيء سواه[٤].

(٢٨٨) في هذه الآية مع الآية التي قبلها ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أنَّ أهم ميادين الاستعانة هو الجانب الديني؛ فالاستعانة يمكن أن تتعلق بأمور دينية وأمور دنيوية فجاء قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ليبين الجانب الذي يتقدم الآخر في نظر الإسلام، وهو الجانب الديني؛ لأنَّ الإنسان إنما خلق من أجل عبادة الله وحده لا شريك له[٥].

---

(١) ينظر: تفسير القرآن الكريم (الفاتحة – البقرة)، ابن عثيمين، ١٦/١.

(٢) ينظر: التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري، ٢٠/١.

(٣) ينظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣٠/١؛ وإرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١٧/١.

(٤) ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٥٤/١.

(٥) ينظر: تأملات في سورة الفاتحة، د. حسن باجودة، ص١١١، ١١٢.

(٢٨٩) أكمل أحوال السائل أن يمدح مسؤوله، ثم يسأل حاجته وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾، لأنه أنجح للحاجة وأنجع للإجابة؛ ولهذا أرشد الله تعالى إليه لأنه الأكمل[١].

وهذا أسمى ألوان الأدب؛ لأن هذا الدعاء قد تضرع به المؤمنون إلى خالقهم بعد أن اعترفوا له سبحانه قبل ذلك بأنه هو المستحق لجميع المحامد، وأنه هو ربُّ العالمين، والمتصرف في أحوالهم يوم الدين[٢].

(٢٩٠) تعليم الله عباده كيفية سؤاله؛ حيث أمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم، توسل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء[٣][٤].

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/١٣٦.

(٢) ينظر: التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، ١/٢٣.

(٣) ويؤيد ما ذُكر الوسيلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم: الحديث الأول: سمع النبي ﷺ رجلًا يدعو، ويقول: (اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد)، فقال: ((والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى)). أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الصلاة، باب: ما يقول بعد التشهد، ١/٢٥٩، رقم [٩٨٥]؛ والترمذي في سننه، كتاب: الدعوات، باب: جامع الدعوات عن النبي ﷺ، ٥/٥١٥، رقم [٣٤٧٥]؛ والنسائي في سننه الصغرى، كتاب: السهو، باب: الدعاء بعد الذكر، ٣/٥٢، رقم [١٣٠١]، والحديث قال عنه الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وصححه الألباني. ينظر: صحيح سنن أبي داود، الألباني، ١/٢٧٥، **فهذا توسل إلى الله تعالى بتوحيده**، والحديث الثاني: أنَّ رسول الله ﷺ سمع رجلًا يدعو: (اللهم إني أسألك بأنَّ لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنّان، بديع السموات والأرض، ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم)، فقال: ((لقد سأل الله باسمه الأعظم)) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الصلاة، باب: الدعاء، ٢/٧٩، رقم [١٤٩٥]؛ والترمذي في سننه، كتاب: الدعوات، باب: خلق الله مئة رحمة، ٥/٥٥٠، رقم [٣٥٤٤]؛ والنسائي في سننه الصغرى، كتاب: السهو، باب: الدعاء بعد الذكر، ٣/٥٢، رقم [١٣٠٠]؛ وابن ماجه في سننه، كتاب: الدعاء، باب: اسم الله الأعظم، ٢/١٢٦٨، رقم [٣٨٥٨]، والحديث صححه الألباني. ينظر: صحيح سنن أبي داود، الألباني، ١/٤١٠، **فهذا توسل إليه بأسمائه وصفاته**. ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٤٧، ٤٨.

(٤) ينظر: المصدر السابق، ١/٤٧.

(٢٩١) من حسن الطلب ومخاطبة الكبير أن يقدم المخاطِب بين يدي حاجته الثناء الجميل والذكر الحسن[١]؛ وذلك لمجيء طلب الهداية بعد الثناء على الله تعالى.

(٢٩٢) أكمل المطالب هو الهداية في الدين؛ وذلك لأنَّ الله تعالى ختم بها المناجاة في هذه السورة التي هي أعظم سور القرآن الكريم[٢].

وهذه الهداية هي أعظم نعمة على العبد، ولا تنال إلا بإنعام الله وتوفيقه، قال تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾، وقال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧]، فمن رزق هذه النعمة، ووفق لها – وهي نعمة الهداية للإيمان بالله – فهو الموفق، وإن فاته ما دونها من النعم، ومن حرمها ولم يوفق لها فهو الخاسر المغبون وإن حصل له شيء مما دونها من النعم[٣].

(٢٩٣) أهم ما يدعو به المؤمن هو طلب الهداية إلى الصراط المستقيم[٤]؛ وذلك للمجيء بهذا الدعاء العظيم في أعظم سورة من القرآن، والتي تكرر في كل صلاة.

وهو كذلك أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه؛ لأنه إذا هداه هذا الصراط أعانه على طاعته وترك معصيته، فلم يصبه شر لا في الدنيا ولا في الآخرة[٥].

وهذا الدعاء الذي في هذه السورة ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ أفضل من غيره مما يدعو به الداعي؛ لأنَّ هذا الكلام قد تكلم به ربُّ العالمين، فهو يدعو بدعاء هو كلام الله الذي تكلم به[٦].

(٢٩٤) الترغيب في دعاء الله تعالى والتضرع والابتهال إليه، وفي الحديث عنه ﷺ:

---

(١) ينظر: دراسات في هدايات سورة الفاتحة، د. طه عابدين، ص٩٩.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١/١٥٩.

(٣) ينظر: اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب، د. سليمان اللاحم، ص٣٢٨.

(٤) ينظر: الفوائد اللائحة من معاني الفاتحة، ابن جماعة، ص٣٩.

(٥) ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ١٤/٣٢٠.

(٦) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/١٤٧.

((الدعاء هو العبادة))[1][2]، وفيها كذلك التنبيه على حاجة الإنسان للتضرع والابتهال إلى الله تعالى الذي هو روح العبودية[3].

وهذا مأخوذ من المجيء بالدعاء ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ في أعظم سورة من القرآن الكريم، وفي الحديث عنه ﷺ: ((ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء))[4].

(٢٩٥) لطف الله بعباده الطالبين للهداية في إرشادهم وتوفيقهم للصراط المستقيم؛ وهذا مأخوذ من اختيار لفظ ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾ دون أرشدنا أو وفقنا ونحوها من الألفاظ.

قال الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الهداية دلالة بلطف لدلالة اشتقاقه ومادته عليه؛ ولذا أطلق على المشي برفق تهاد، وسميت الهداية لطفًا، وقوله تعالى: ﴿ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٣] واردٌ على الصحيح مورد التهكم على حد: ﴿ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران: ٢١]»[5].

(٢٩٦) إخلاص التوحيد لله تعالى؛ لأنَّ في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ طلب الهداية منه تعالى وحده، باعتبار كون هذا الفعل واقعًا بعد الفعلين اللذين تقدم معمولهما ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ فكان له حكمهما، وإن كان قد تغير أسلوب الكلام في الجملة، حيث لم يقل نستهدي أو نطلب الهداية حتى يصح أن يكون ذلك الضمير المتقدم المنصوب معمولًا له تقديرًا، لكن مع بقاء المخاطبة وعدم الخروج عما يقتضيه لم يقطع النظر عن ذلك الضمير الواقع على تلك الصورة لتوسطه بين هذا الفعل

---

(١) سبق تخريجه ص ١٢٤.

(٢) ينظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ١/١٥.

(٣) ينظر: تفسير الإمام الغزالي، جمع: د. محمد الريحاني، ص٦٦.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب: الدعوات، باب: ما جاء في فضل الدعاء، ٥/٤٥٥، رقم [٣٣٧٠]؛ وابن ماجه في سننه، كتاب: الدعاء، باب: فضل الدعاء، ٢/١٢٥٨، رقم [٣٨٢٩]، والحديث قال عنه الترمذي: هذا حديث حسن، وحسنه كذلك الألباني. ينظر: صحيح سنن الترمذي، الألباني، ٣/٣٨٣.

(٥) روح المعاني، الآلوسي، ١/٩١.

﴿ ٱهۡدِنَا﴾ وبين من أسند اليه، ثم في ضمير الجماعة معنى يشير إلى استحقاقه سبحانه إخلاص التوحيد، ثم في كون هذه الهداية هي هداية الصراط المستقيم التي هي الهداية بالحقيقة، ولا اعتبار بهداية إلى صراط لا استقامة فيه معنى ثالث يشير إلى ذلك المدلول[1].

(٢٩٧) الرد على القدرية القائلين بالقدر؛ وذلك «لأنَّ طالب الهداية لو كان خالقًا لفعله – كما يزعمون – لكان طلبه لها محالًا، كيف وهم يكررون السؤال حالًا فحالًا؟»[2]؛ فالهداية المطلقة التامة هي المستلزمة لحصول الاهتداء، ولولا أنها بيده تعالى دونهم لما سألوه إياها، وهي المتضمنة للإرشاد والبيان، والتوفيق والإقدار، وجعلهم مهتدين، وليس مطلوبهم مجرد البيان والدلالة، كما ظنته القدرية؛ لأنَّ هذا القدر وحده لا يوجب الهدى، ولا ينجي من الردى، وهو حاصل لغيرهم من الكفار، الذين استحبوا العمى على الهدى، واشتروا الضلالة بالهدى[3].

ومما يبين به فساد مذهب القدرية الذين يزعمون أن العبد غير مفتقر إلى الله في حصول هذا الاهتداء قوله تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ [الكهف: ١٧]، فهذه الآية دلت على أنَّ الاهتداء لا يحصل إلا بهدى الله[4].

(٢٩٨) إثبات النبوات والرد على منكريها؛ وهذا مأخوذ من طلب الهداية من الله تعالى؛ فالهداية هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق.

---

(١) ينظر: فتح البيان في مقاصد القرآن، محمد صديق خان القنوجي، ٥٩/١.

(٢) الغرة الواضحة في تفسير سورة الفاتحة، (ضمن أبحاث مجلة البحوث والدراسات القرآنية الصادرة عن مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف)، الكافيجي، ص٢٣٣.

(٣) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٨٦/١.

(٤) ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ٤٠٠/٢٢.

وكون الله سبحانه وتعالى هاديًا إلى الصراط المستقيم فيه أيضًا إثبات للرسالات والرد على من أنكرها؛ لأنَّ الصراط المستقيم هو معرفة الحق والعمل به، وهو أقرب الطرق الموصلة إلى المطلوب، وذلك لا يعلم إلا من جهة الرسل، فتوقفه على الرسل ضروري، أعظم من توقف الطريق الحسي على سلامة الحواس[1].

(٢٩٩) الله سبحانه وتعالى فاعل مختار؛ وهذا مأخوذ من كونه تعالى مسؤولًا أن يهدي عباده، فسؤال من لا اختيار له محال[2].

(٣٠٠) أهمية العلم، والتنزه عن المكابرة والعناد؛ وذلك بما تضمنه ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾؛ فإن طلب الهداية اعتراف بالاحتياج إلى العلم، ووصف الصراط بالمستقيم اعتراف بأن من العلم ما هو حق ومنه ما هو مشوب بشبه وغلط، ومن اعترف بهذين الأمرين فقد أعد نفسه لاتباع أحسنهما[3].

(٣٠١) افتقار الإنسان في هدايته إلى الله تعالى الهادي؛ يؤخذ هذا من طلب الهداية من الله تعالى، وقد أنكر الله تعالى على الأعراب الذين يمنون على رسول الله ﷺ أن أسلموا، قال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧]، فالإنسان لو لم يهده الله لم يهتد، قال الله تعالى: ﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ ﴾ [الكهف: ١٧]، وقال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٣٣][4].

(٣٠٢) العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تثبيته على الهداية، ورسوخه فيها، وتبصره وازدياده منها، واستمراره عليها؛ فإن العبد لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله؛ وهذا مأخوذ من سؤال العبد الهداية ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾، حيث أرشده الله

---

(١) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٣٢/١، ٩١.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ٨٩/١.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٥٣/١.

(٤) ينظر: أحكام من القرآن، ابن عثيمين، ٣٩/١، ٤٠.

تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمده بالمعونة والثبات والتوفيق، فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله؛ فإنه تعالى قد تكفل بإجابة الداعي إذا دعاه، ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ ﴾ الآية [النساء: ١٣٦]، فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان، وليس في ذلك تحصيل الحاصل؛ لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك[١].

ونظير هذا في سؤال التثبيت على الهداية قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨][٢].

وسؤال التثبيت إنما يكون فيما هو حاصل عند العبد من المعتقدات والأعمال، أما فيما ليس بحاصل – إما من جهة الجهل به أو التقصير في المحافظة عليه – فالمقصود طلب الإرشاد إليه؛ وذلك لأنَّ هذا الدعاء إنما أُمر به المؤمنون وعندهم المعتقدات، وعند كل واحد بعض الأعمال[٣].

(٣٠٣) ينبغي طلب زيادة الهداية من الله تعالى؛ حيث إنَّ طلب العباد الهداية من الله تعالى بقولهم: ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾ معناه طلب مزيد الهداية، وإن كانوا قد هدوا بكونهم على الإسلام؛ فالألطاف والهدايات من الله تعالى لا تتناهى[٤].

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى ﴾ [محمد: ١٧].

(٣٠٤) أهمية الرغبة الصادقة للتحلي بالهدى والرشد والخير، وهذا ما يدفع العبد إلى التضرع لربه جلَّ وعلا بقوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ ليوفقه لذلك[٥].

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/١٣٩.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١/٢١٩؛ وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/١٣٩.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ١/٧٤.

(٤) ينظر: تفسير السمعاني، أبو المظفر السمعاني، ١/٣٨؛ ومعالم التنزيل، البغوي، ١/٥٤.

(٥) ينظر: دراسات في هدايات سورة الفاتحة، د. طه عابدين، ص٩٨.

(٣٠٥) أهمية طلب الهداية ممن يملكها وحده؛ فهي مفتاح السعادة في الدارين[١]؛ وهذا مأخوذ من طلب الهداية من مصدرها وهو الله تعالى في هذه السورة العظيمة التي هي أم القرآن ومفتتح الكتاب.

(٣٠٦) لا هادي في الحقيقة إلا الله سبحانه؛ فهو الذي يُلجأ إليه في طلب الهداية لا إلى غيره، وما أُثبت من الهداية لغير الله كقول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] فهي هداية الدلالة، وأما الدلالة التامة التي بمعنى التوفيق فهي لله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦][٢].

(٣٠٧) شمول طلب الهداية لهداية العلم والإرشاد، وهداية التوفيق والعمل؛ وهذا مأخوذ من حذف حرف الجر من معمول ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ فتعدى بنفسه[٣]؛ وذلك لأجل أن يتضمن طلب الهداية: هداية العلم، وهداية التوفيق؛ فالهداية تنقسم إلى قسمين: هداية علم وإرشاد، وهداية توفيق وعمل، فالأولى ليس فيها إلا مجرد الدلالة؛ والله عزّ وجلّ قد هدى بهذا المعنى جميع الناس، كما في قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، والثانية فيها التوفيق للهدى، واتباع الشريعة، كما في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢][٤].

---

(١) ينظر: دراسات في هدايات سورة الفاتحة، د. طه عابدين، ص٩٨.

(٢) ينظر: أحكام من القرآن، ابن عثيمين، ١/٤٥.

(٣) يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ففعل الهداية متى عدي بـ (إلى) تضمن الإيصال إلى الغاية المطلوبة فأتى بحرف الغاية، ومتى عدي باللام تضمن التخصيص بالشيء المطلوب فأتى باللام الدالة على الاختصاص والتعيين، فإذا قلت: هديته لكذا فهم معنى ذكرته له وجعلته له وهيأته ونحو هذا، وإذا تعدى بنفسه تضمن المعنى الجامع لذلك كله، وهو التعرف والبيان والإلهام، فالقائل إذا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ هو طالب من الله أن يعرفه إياه، ويبينه له، ويلهمه إياه، ويقدره عليه، فيجعل في قلبه علمه وإرادته والقدرة عليه، فجرد الفعل من الحرف وأتى به مجردا معدي بنفسه ليتضمن هذه المراتب كلها، ولو عدي بحرف تعين معناه وتخصص بحسب معنى الحرف فتأمله فإنه من دقائق اللغة وأسرارها». بدائع الفوائد، ابن القيم، ٢/٢١.

(٤) ينظر: تفسير القرآن الكريم (الفاتحة – البقرة)، ابن عثيمين، ١/١٦.

(٣٠٨) في الإتيان بضمير الجمع ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾ في هذه الآية، وفي الآية التي قبلها ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ إظهارٌ لمقام العبودية والافتقار إلى الرب تعالى، وإقرار بالفاقة إلى عبوديته واستعانته وهدايته؛ حيث أتى به بصيغة ضمير الجمع، أي نحن معاشر عبيدك مقرون لك بالعبودية، وهذا كما يقول العبد للملك المعظم شأنه: نحن عبيدك ومماليكك وتحت طاعتك، ولا نخالف أمرك، فيكون هذا أحسن وأعظم موقعًا عند الملك من أن يقول: أنا عبدك ومملوكك؛ ولهذا لو قال أنا وحدي مملوكك استدعى مقته، فإذا قال أنا وكل من في البلد مماليكك وعبيدك وجند لك كان أعظم وأفخم؛ لأن ذلك يتضمن أن عبيدك كثير جدًّا، وأنا واحد منهم، وكلنا مشتركون في عبوديتك والاستعانة بك وطلب الهداية منك؛ ومعظم أدعية القرآن على هذا النمط نحو: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١]، ونحو دعاء آخر البقرة وآخر آل عمران وأولها وهو أكثر أدعية القرآن الكريم[(١)].

(٣٠٩) في الإتيان بضمير الجمع ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾ في هذه الآية، وفي الآية التي قبلها ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ إشارة إلى فضل الجماعة، ونبذ الفرقة والاختلاف، وإشاعة الروح الجماعية بين الأفراد.

وهذه الوحدة والروح الجماعية يجب أن تكون قائمة على العقيدة الصحيحة القائمة على عبودية الله تعالى والتوكل عليه على النهج القويم؛ ولذا جاءت كل هذه الأمور بصيغة الجمع: (نعبد)، (نستعين)، (اهدنا)؛ حتى يعمل بها الفرد ويوجه غيره إليها دعاء ودعوة[(٢)].

(٣١٠) في الآية إشارة إلى شهود صلاة الجماعة؛ فهي من أهم معالم الهدى؛ وهذا مأخوذ من التعبير بصيغة الجمع في قوله ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾[(٣)].

---

(١) ينظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ٣٩/٢، ٤٠.

(٢) ينظر: دراسات في هدايات سورة الفاتحة، د. طه عابدين، ص٩٩.

(٣) ينظر: نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس البسيلي، ٦٢/٢؛ ومجالس القرآن، د. فريد الأنصاري، ص١٤٩.

(٣١١) تعظيم الله تعالى والثناء عليه بسعة مجده وكثرة سائليه؛ وهذا مأخوذ من التعبير بضمير الجمع ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾[١].

(٣١٢) الله سبحانه وتعالى يحب هداية عباده وتحقق ذلك منهم؛ ولذلك أرشد في هذه السورة أن يدعو العبد بالهداية له وللناس أجمعين بقوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾[٢].

(٣١٣) إشاعة حب التعاون، وحب الخير للمسلمين، وأن يحب المرء للآخرين ما يحب لنفسه، وكذلك البعد عن الأثرة ونوازع الانفراد بالخير؛ وهذا مأخوذ من الإتيان بضمير الجمع ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾[٣].

(٣١٤) الاجتماع على الهدى تثبيتٌ وقوة؛ وهذا مأخوذ من الإتيان بضمير الجمع ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾[٤].

(٣١٥) كثرة السائرين على الطريق تورث الأنس، وتهوِّن مشقة السير بخلاف الانفراد في السير فإنه يورث الوحشة، ويستجلب الملل، والسالك وحده قد يستوحش وقد يضعف، وقد يسقط، وقد تأكله الذئاب، ويد الله مع الجماعة، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية؛ وهذا مأخوذ من الإتيان بضمير الجمع ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾[٥].

(٣١٦) ينبغي للدعاة أن يكونوا رحماء بالناس داعين لهم بالهداية والصلاح[٦]، وذلك لأنَّ الله تعالى عبر بلفظ الجمع في طلب الهداية ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾.

(٣١٧) ربط الأعمال ونجاحها بأسبابها، وربط الأسباب بمسبباتها؛ وهذا مأخوذ من قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾؛ فبهداية الله للعبد وتوفيقه له يسلك الطريق المستقيم،

---

(١) ينظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ٣٩/٢.

(٢) ينظر: دراسات في هدايات سورة الفاتحة، د. طه عابدين، ص٩٩.

(٣) ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د. فاضل السامرائي، ص٥٧.

(٤) ينظر: المصدر السابق، ص٥٧.

(٥) ينظر: المصدر السابق، د. فاضل السامرائي، ص٥٧.

(٦) ينظر: دراسات في هدايات سورة الفاتحة، د. طه عابدين، ص٩٩.

فيعرف الحق ويعمل به[1].

(٣١٨) في الآية مع ما ورد في السنة النبوية من فرض قراءة الفاتحة في الصلاة[2]، التي يذكر فيها هذا الدعاء الراتب ويتكرر بتكرر الصلوات بل الركعات فرضها ونفلها أنَّ كل عبد مضطر دائمًا إلى مقصود هذا الدعاء الذي تتضمنه أم القرآن، وهو هداية الصراط المستقيم؛ فإنه لا نجاة من العذاب إلا بهذه الهداية، ولا وصول إلى السعادة إلا به فمن فاته هذا الهدى فهو إما من المغضوب عليهم أو من الضالين، وحاجة العبد إلى هذه الهداية ضرورية في سعادته ونجاته، فلهذا كان هذا الدعاء مفروضًا عليهم في الصلاة – فرضها ونفلها – فهو الجامع لكل مطلوب تحصل به كل منفعة، وتندفع به كل مضرة[3]، «ومن هاهنا يُعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإنَّ المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نريد فعله تهاونًا وكسلًا مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك، وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله فأمر يفوته الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التامة»[4].

(٣١٩) في الآية مع ما قبلها من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ومع قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠ - ٦١] أنَّ عبادة الله واتباع شرعه واجتناب الشيطان ومسالكه أساس الطريق المستقيم الموصل إلى الله تعالى.

(٣٢٠) عظمة دين الإسلام؛ لأنَّ الصراط المستقيم الذي تُطلب الهداية إليه هو دين الإسلام؛ حيث سألوا بـ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ دينًا قويمًا يكون في استقامته

---

(١) ينظر: اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب، د. سليمان اللاحم، ص٣٢٧.

(٢) يدل على ذلك قول النبي ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». سبق تخريجه ص ١١.

(٣) ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ٣٩٩/٢٢ – ٤٠٢.

(٤) مدارج السالكين، ابن القيم، ٣٢/١.

كصراط المنعم عليهم فأجيبوا بدين الإسلام، وقد جمع الإسلام استقامة الأديان الماضية وزاد عليها[1].

(٣٢١) دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ هو الدين المستقيم[2]، وما عداه فليس بمستقيم؛ لأنَّ الآية فيها طلب الهداية إلى الصراط المستقيم الذي هو دين الإسلام[3].

(٣٢٢) شمول الهداية إلى الصراط المستقيم لكل ما يحتاج العبد إليه في سيره إلى الله تعالى من الاعتقاد والعمل، بأن يوفقه الله إلى الحق والتمييز بينه وبين الضلال؛ فالمرء بحاجة إلى هذه الهداية في جميع شؤونه كلها حتى في الدوام على ما هو متلبس به من الخير للوقاية من التقصير فيه أو الزيغ عنه، والهداية إلى الإسلام لا تقصر على ابتداء اتباعه، بل هي مستمرة باستمرار تشريعاته وأحكامه[4].

و(الصراط المستقيم) هو أن يفعل العبد في كل وقت ما أمر به في ذلك الوقت من علم وعمل، ولا يفعل ما نهي عنه، وهذا يحتاج في كل وقت إلى أن يعلم ما أمر به في ذلك الوقت، وما نهي عنه، وإلى أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور، وكراهة لترك المحظور، وهذا العلم المفصل والإرادة المفصلة لا يتصور أن تحصل للعبد في وقت واحد، بل كل وقت يحتاج أن يجعل الله في قلبه من العلوم والإرادات ما يهدى به في ذلك

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٩٤؛ ودراسات في هدايات سورة الفاتحة، د. طه عابدين، ص١٠٥.

(٢) اختلفت عبارات المفسرين في تفسير الصراط، ومعظم تلك الأقوال صحيحة ومتلازمة وترجع إلى شيء واحد، وهو الإسلام الذي هو الانقياد والاستسلام لله تعالى، وطاعته وطاعة رسوله ﷺ، قال ابن كثير رحمه الله: «ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسير الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد، وهو المتابعة لله وللرسول ... وكل هذه الأقوال صحيحة، وهي متلازمة؛ فإنَّ من اتبع النبي ﷺ، واقتدى باللذين من بعده أبي بكر وعمر، فقد اتبع الحق، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن، وهو كتاب الله وحبله المتين، وصراطه المستقيم، فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضا، ولله الحمد». تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/١٣٧.

(٣) ينظر: تفسير مقاتل، مقاتل بن سليمان، ١/٣٦.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٩١.

الوقت، وقد حصل له هدى مجمل بأنَّ القرآن حق ودين الإسلام حق والرسول حق ونحو ذلك، ولكن هذا الهدى المجمل لا يغنيه إن لم يحصل هدى مفصل في كل ما يأتيه ويذره من الجزئيات[1].

(٣٢٣) وضوح شريعة الإسلام وما جاء به الرسول ﷺ؛ وهذا مأخوذ من معنى الصراط المستقيم، فهو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه.

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «في قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ إيماء إلى أنَّ الإسلام واضح الحجة قويم المحجة، لا يهوي أهله إلى هوة الضلالة، كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، على تفاوت في مراتب إصابة مراد الله تعالى، ولذلك قال النبي ﷺ: ((من اجتهد وأصاب فله أجران، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد))[2]»[3].

(٣٢٤) الصراط المستقيم هو صراط معين قد جعله الله طريقًا إلى رضوانه وجنته، وهو دينه الذي لا دين له سواه؛ وهذا مأخوذ من تعريف الصراط باللام، والألف واللام إذا دخلت على اسم موصوف اقتضت أنه أحق بتلك الصفة من غيره، فلو قال: اهدنا صراطًا مستقيمًا لكان الداعي إنما يطلب الهداية إلى صراط ما مستقيم على الإطلاق وليس المراد ذلك بل المراد الهداية إلى الصراط المعين الذي نصبه الله تعالى لأهل نعمته وجعله طريقا إلى رضوانه وجنته، وهو دينه الذي لا دين له سواه، فالمطلوب أمر معين في الخارج والذهن لا شيء مطلق منكر، واللام هنا للعهد العلمي الذهني، وهو أنه طلب

---

(١) ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ٢٢/٤٠٠.

(٢) الحديث أصله في الصحيحين عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، ولفظه: ((إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر)). أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، ٩/١٠٨، رقم [٧٣٥٢]؛ ومسلم في صحيحه، كتاب: الأقضية، باب: بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، ٣/١٣٤٢، رقم [١٧١٦].

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/٢٠٠.

الهداية إلى سر معهود، قد قام في القلوب معرفته والتصديق به وتميزه عن سائر طرق الضلال فلم يكن بد من التعريف[1].

(٣٢٥) ينبغي الدعاء بالبقاء على دين الإسلام حتى الموت؛ وذلك لأنَّ الصراط المستقيم هو الذي ينتهي بصاحبه إلى المقصود؛ ولذا فإنَّ العبد يسأل ربه بقوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ أن يرشده إلى الثبات على الطريق الذي ينتهي به إلى المقصود، وهو الموت على الإسلام، ويعصمه من السبل المتفرقة، وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: «خط لنا رسول الله ﷺ خطًّا، ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطًا، ثم قال: ((هذا سبيل الله، وهذه السبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه))، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]»[2]؛ فلهذا قال: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ أي: اعصمنا من السبل المتفرقة، وأمتنا على دين الإسلام[3].

والثبات على الهداية حتى الموت أهم الحاجات؛ إذ هو الذي سأله الأنبياء وعباد الله الصالحون كما حكى الله تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١]، وعن سحرة فرعون لما آمنوا: ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وعن مؤمني هذه الأمة: ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣]؛ وذلك لأنه لا ينبغي أن يعتمد على ظاهر الحال، فقد يتغير في المآل كمآل إبليس عليه لعنة الله[4].

---

(١) ينظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ١٢/٢، ١٣.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، واللفظ له، ٢٠٧/٧، رقم [٤١٤٢]؛ وابن ماجه في سننه، كتاب: الإيمان، باب: اتباع سنة رسول الله ﷺ، ٦/١، رقم [١١]؛ والحاكم في مستدركه، كتاب: التفسير، تفسير سورة الأنعام، ٣٤٨/٢، رقم [٣٢٤١]، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه أيضًا الألباني، ينظر: صحيح سنن ابن ماجه، الألباني، ٢١/١.

(٣) ينظر: بحر العلوم، السمرقندي، ١٨/١.

(٤) ينظر: روح البيان، إسماعيل حقي، ٢٠/١.

(٣٢٦) دين الإسلام هو الدين الثابت بالبراهين والأدلة، لا يزيله شيء، ولا ينقض حججه كيد الكائدين، ولا حيل المريبين؛ وهذا مأخوذ من وصف الصراط بالمستقيم، أي القائم الثابت بالبراهين والأدلة، وهو كذلك[١].

(٣٢٧) دين الإسلام يستقيم بمن تمسك به حتى ينجيه، ويدخله الجنة؛ وهذا مأخوذ من وصف دين الإسلام بأنه الصراط بالمستقيم[٢]، وإنما وصف دين الإسلام بأنه الصراط المستقيم لأنه يؤدي إلى الغرض المطلوب من رضاء الله تعالى والخلود في النعيم المقيم، كما أن الصراط المستقيم يؤديك إلى مقصودك[٣].

وسؤال العباد الهداية إلى الصراط المستقيم – وهو الدين القويم – وتثبيتهم عليه لأجل أن يفضي بهم ذلك إلى جواز الصراط الحسي يوم القيامة[٤]، المفضي بهم إلى جنات النعيم في جوار النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين[٥].

(٣٢٨) الطريق المستقيم واحد، وطرق الضلال كثيرة؛ وذلك لإفراد الصراط المستقيم وعدم المجيء به مجموعًا[٦]، وعلى هذا النحو قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى

---

(١) ينظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٣٦٧/١.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ٣٦٧/١.

(٣) ينظر: التفسير البسيط، الواحدي، ٥٣٠/١.

(٤) من مراتب الهداية الهدايةُ يوم القيامة إلى طريق الجنة، وهو الصراط الموصل إليها، فمن هُدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه هُدي هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على ذاك الصراط، (فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطّرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشدّ الركاب، ومنهم من يسعى سعيًا، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يحبو حبوًا، ومنهم المخدوش المسلّم، ومنهم المكردس في النار)، فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حذو القذّة بالقذة جزاء وفاقًا، ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠]؛ فسؤال الهداية إلى الصراط المستقيم متضمن لحصول كل خير، والسلامة من كل شر. ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٣٣/١.

(٥) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٤٣/١.

(٦) وكذلك المجيء به معرّفًا تعريفين: تعريفًا باللام، وتعريفًا بالإضافة يفيد تعيّنه واختصاصه، وأنه صراط واحد، وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها، كما سبق في قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فوحّد لفظ الصراط وسبيله، وجمع السبل المخالفة له. ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٣٧/١.

﴿مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ويؤيده قوله ﷺ: ((ضرب الله مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلى جنبتي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعًا، ولا تتعرجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد يفتح شيئًا من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، والصراط الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم))[(١)(٢)]، فالطريق المستقيم واحدة وما عداها معوجة، وبعضها يشبه بعضًا في الاعوجاج، فيحصل بها الاشتباه، أما المستقيم فلا يشابهه غيره؛ فكان أبعد عن الخوف والآفات وأقرب إلى الأمان[(٣)].

(٣٢٩) الرد على جميع المبطلين من أهل الأهواء والنحل؛ حيث إنَّ الصراط المستقيم متضمن معرفة الحق، وإيثاره، وتقديمه على غيره، ومحبته والانقياد له، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه بحسب الإمكان، ولا ريب أنَّ ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه علمًا وعملًا – وهو معرفة الحق وتقديمه، وإيثاره على غيره – هو الصراط المستقيم، وبهذا الطريق المجمل يعلم أنَّ كل ما خالفه باطل[(٤)].

(٣٣٠) أهمية تحرّي الطريق إلى الله تعالى، والتماسه مستقيمًا خالص الاستقامة، بعيدًا عن مزالق المفتونين في دينهم، والمنحرفين عن سواء السبيل؛ وهذا مأخوذ من دعاء المؤمنين بأن يهديهم الله الصراط المستقيم، ويجنبهم صراط المغضوب عليهم، والضالين عن الطريق القويم[(٥)].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده عن النواس بن سمعان رضي الله عنهما، ١٨١/٢٩، رقم [١٧٦٣٤]؛ والترمذي في سننه، كتاب: الأمثال، باب: ما جاء في مثل الله لعباده، ١٤٤/٥، رقم [٢٨٥٩]؛ والحاكم في مستدركه، كتاب: الإيمان، ١٤٤/١، رقم [٢٤٥]، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، وصححه كذلك الألباني. ينظر: صحيح سنن الترمذي، الألباني، ١٤١/٣.

(٢) ينظر: تفسير الراغب الأصفهاني، ٦٣/١.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٢٠/١.

(٤) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٨١/١.

(٥) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ٢٠/١.

(٣٣١) وجوب البعد عن السيئات ولو كانت صغيرة لأنها قد تؤول بصاحبها إلى الكبائر؛ وهذا مأخوذ من وصف الدين القويم بالصراط المستقيم؛ فمن الملاحظ أنَّ الانحراف اليسير في الطريق المستقيم الحسي في بدايته يؤدي في الأخير إلى انحراف كبير وبعد شاسع في المسافة قد تصل إلى الكيلومترات، وهكذا فإنَّ الصراط المستقيم الذي يسأل العباد الهداية إليه هو الذي ليس فيه أي اعوجاج ولا مخالفة لشرع الله ولو كانت يسيرة.

(٣٣٢) وجوب اتباع الشريعة؛ وهذا مأخوذ من قول الله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾؛ لأنَّ الصراط المستقيم هو الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ[١].

(٣٣٣) دين الإسلام دين واسع شامل يتسع لكل أحد؛ وهذا مأخوذ من التعبير عن دين الإسلام بالصراط، والصراط هو الطريق الواسع[٢] الذي يتسع لجميع السالكين[٣]، وهو من الأوزان الدالة على الاشتمال كالرباط والشداد فيشتمل على كل السالكين، ولا يضيق بهم، فهو رحب واسع، بخلاف كلمة (طريق) فإنها (فعيل) بمعنى (مفعول) من طرق بمعنى مطروق، وهذا لا يدل في صيغته على الاشتمال؛ فقد يضيق بالسالكين ولا يستوعبهم؛ ولهذا اختير لفظ (صراط) دون كلمة (طريق) ونحوها[٤].

(٣٣٤) التذكير بالصراط المنصوب بين ظهراني جهنم؛ فيكون الإنسان على مزيد خوف وخشية؛ وذلك لاختيار لفظ (الصراط) دون (الطريق) أو (السبيل)[٥].

---

(١) ينظر: تفسير القرآن الكريم (الفاتحة – البقرة)، ابن عثيمين، ١٦/١.

(٢) قال ابن القيم رحمه الله: «وأما المسألة الثالثة: وهي اشتقاق الصراط، فالمشهور أنه من صرطت الشيء أصرطه إذا بلعته بلعًا سهلًا، فسمي الطريق صراطًا لأنه يسترط المارة فيه، والصراط ما جمع خمسة أوصاف أن يكون طريقا مستقيمًا سهلًا مسلوكًا واسعًا موصلًا إلى المقصود، فلا تسمي العرب الطريق المعوج صراطًا، ولا الصعب المشتق، ولا المسدود غير الموصول، ومن تأمل موارد الصراط في لسانهم واستعمالهم تبين له ذلك». بدائع الفوائد، ابن القيم، ١٦/٢.

(٣) ينظر: أحكام من القرآن، ابن عثيمين، ٤١/١.

(٤) ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د. فاضل السامرائي ، ص٥٨.

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢١٩/١.

(٣٣٥) الإسلام دين الوسطية، والوسط بين طرفي الإفراط والتفريط في كل الأخلاق وفي كل الأعمال من الأمور المطلوبة؛ وهذا مأخوذ من وصف الصراط الذي هو مطلوب العباد بالمستقيم، وهو الوسط بين طرفي الإفراط والتفريط[١].

(٣٣٦) كمال حكمة الله تعالى وكمال رحمته؛ حيث جعل الصراط الموصل إليه صراطًا مستقيمًا لا متاهة فيه ولا ضلال، ومعلوم أنَّ الصراط المستقيم يوصل إلى المقصود بسرعة بخلاف الطريق المعوج الذي ينحرف بالإنسان يمينًا وشمالًا؛ فإنه – على تقدير إيصاله إلى المطلوب – يكون بعيدًا وشاقًّا بسبب التعرجات أو الطلوع أو النزول[٢].

(١) ينظر: المصدر السابق، ٢١٨/١.

(٢) ينظر: أحكام من القرآن، ابن عثيمين، ٤٤/١، ٤٥.

الآية السابعة: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

من الهدايات التي يمكن أن تؤخذ من هذه الآية ما يأتي:

(٣٣٧) الهداية للمنهاج القويم والصراط المستقيم أعظم نعمة على العبد، والتي لا يحدها حدّ؛ وذلك لأنَّ الله تعالى بعد أن ذكر طلب الهداية للصراط المستقيم بيَّن أنَّ هذا الصراط هو صراط أعلى العباد إنعامًا ومقامًا، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

(٣٣٨) أهمية الالتجاء والابتهال إلى الله تعالى في أن يمنَّ على العبد كما منَّ على عباده الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والصالحين، وذلك بهدايتهم إلى دينه القويم؛ وتلك الأهمية نابعة من المجيء بهذا الابتهال في مناجاة الله تعالى في مفتتح الكتاب، وفي أعظم سورة من القرآن الكريم.

(٣٣٩) دين الله تعالى في جميع الأمم واحد؛ وذلك لأمر الله تعالى باتباع صراط من تقدمنا بقوله: ﴿ ٱهدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلمُستَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم ﴾، والاختلاف بين الشرائع إنما هو خلاف في الأحكام بالفروع التي تختلف باختلاف الزمان، وأما الأصول فلا خلاف فيها، قال تعالى: ﴿ قُل يَٰٓأَهلَ ٱلكِتَٰبِ تَعَالَوا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَينَنَا وَبَينَكُم أَلَّا نَعبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشرِكَ بِهِۦ شَيـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعضُنَا بَعضًا أَربَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوحَينَآ إِلَيكَ وَمَا وَصَّينَا بِهِۦٓ إِبرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَن أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]، فالإيمان بالله وبرسله وباليوم الآخر، وترك الشر وعمل البر، والتخلق بالأخلاق الفاضلة مستوٍ في الجميع[(١)].

(٣٤٠) في الآية مع قوله تعالى: ﴿ وَلَوَ أَنَّهُم فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيرًا لَّهُم وَأَشَدَّ تَثبِيتًا ۝٦٦ وَإِذًا لَّأَتَينَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجرًا عَظِيمًا ۝٦٧ وَلَهَدَينَٰهُم صِرَٰطًا مُّستَقِيمًا ۝٦٨ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ

(١) ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٥٦/١.

وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء: ٦٦ – ٦٩] أنَّ من سلك طريق المنعم عليهم الذين وصفهم الله تعالى، فاستقام فيه طائعًا لله ولرسوله ﷺ فإنَّ الله يورده مواردهم، والله لا يخلف الميعاد[١].

(٣٤١) إخلاص التوحيد لله تعالى؛ وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ فإنَّ من يهدي إلى هذا الصراط الذي هو صراط من أنعم الله عليهم يستحق أن لا يُشتغل بغيره، ولا يُنظر إلى سواه[٢].

(٣٤٢) دقة أسلوب القرآن وحسنه بذكر التفصيل بعد الإجمال؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، وهذا مجمل؛ ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾، وهذا مفصَّل؛ وفائدة ذلك أنَّ النفس إذا جاء المجمل تترقب وتتشوف للتفصيل والبيان، فإذا جاء التفصيل ورد على نفس مستعدة لقبوله متشوفة إليه[٣].

(٣٤٣) ينبغي توكيد الكلام ليكون أبلغ وأوقع في النفس؛ وهذا مأخوذ من المجيء بالبدل ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾، وهذا البدل «فائدته التوكيد لما فيه من التثنية والتكرير، والإشعار بأنّ الطريق المستقيم بيانه وتفسيره: صراط المسلمين، ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه وآكده»[٤]، وكأنه من البين الذي لا خفاء فيه أن الطريق المستقيم هو طريق المسلمين[٥]، وأن طريق الذين أنعم الله عليهم – وهم المسلمون – هو العلَم في الاستقامة والمشهود له بالاستواء بحيث لا يذهب الوهم عند ذكر الطريق المستقيم إلا إليه[٦].

---

(١) ينظر: جامع البيان، الطبري، ١/١٧٨.

(٢) ينظر: فتح البيان في مقاصد القرآن، محمد صديق خان القنوجي، ١/٦٠.

(٣) ينظر: تفسير القرآن الكريم (الفاتحة – البقرة)، ابن عثيمين، ١/١٩.

(٤) الكشاف، الزمخشري، ١/١٥.

(٥) ينظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/٣٠.

(٦) ينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/١٨.

(٣٤٤) تضمن هذا الدعاء لخيري الدنيا والآخرة؛ وذلك لأنَّ الصراط أضيف إلى الموصول المبهم ﴿ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ ﴾ دون أن يقول: اهدنا صراط النبيين والمرسلين؛ لأنَّ هذه الإضافة تدل أنَّ المسؤول هو الهدى إلى جميع تفاصيل الطريق التي سلكها كل من أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهذا أجل مطلوب وأعظم مسؤول، فإنه لم يدَعْ شيئا من خير الدنيا والآخرة إلا تضمنه، ولما كان بهذه المثابة فرضه الله على جميع عباده فرضًا متكررًا في اليوم والليلة لا يقوم غيره مقامه[١].

(٣٤٥) مَن هُدي إلى الصراط المستقيم فقد أنعم الله عليه؛ فعلى الداعي استشعار سؤاله الهداية وطلب الإنعام من الله عليه؛ وهذا مأخوذ من إضافة البدل ﴿ صِرَٰطَ ﴾ إلى الموصول ﴿ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ ﴾ دون ذكر المنعم عليهم بالاسم الخاص، فلم يقل: صراط النبيين والصالحين مثلًا[٢].

(٣٤٦) عظمة الصراط المستقيم؛ وذلك مأخوذ من الإبدال المفيد للتأكيد بأنَّ هذا الصراط صراط الذين أنعم الله عليهم[٣].

(٣٤٧) التعريض بطلب أن يكون الداعون لاحقين في مرتبة الهدى بأولئك المنعم عليهم[٤]؛ وهذا مأخوذ من بيان الصراط المستقيم بأنه صراط المنعم عليهم.

(٣٤٨) الهداية نعمة، والمنعَم عليهم بالنعمة الكاملة قد هدوا إلى الصراط المستقيم؛ وهذا مأخوذ من إبدال صراط الذين من الصراط المستقيم، وهو معنى بديع، ومن الذين أنعم الله عليهم خيار الأمم السابقة من الرسل والأنبياء الذين حصلت لهم النعمة الكاملة[٥].

(٣٤٩) في اختيار وصف الصراط المستقيم بأنه ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ دون

---

(١) ينظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ١٧/٢، ١٨.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ١٧/٢.

(٣) ينظر: نظم الدرر، البقاعي، ٣٩/١.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٩٣/١.

(٥) ينظر: المصدر السابق، ١٩٤/١.

بقية أوصافه تمهيدٌ لبساط الإجابة؛ فإن الكريم إذا قلت له أعطني كما أعطيت فلانًا كان ذلك أنشط لكرمه[1].

(٣٥٠) طاعة الله جَلّ ثناؤه لا ينالها المطيعون إلا بإنعام الله بها عليهم، وتوفيقه إياهم لها؛ وذلك لأنَّ الله تعالى أسند الإنعام إلى نفسه ﴿أَنْعَمْتَ﴾، فأضاف كلّ ما كان منهم من اهتداء وطاعة وعبادة إلى أنه إنعام منه عليهم[2].

(٣٥١) لا يجب شيء على الله تعالى، بل له الخلق والأمر، يفعل ما يشاء، ويتفضل بما يشاء؛ وهذا مأخوذ من قوله: ﴿أَنْعَمْتَ﴾؛ إذ لو وجب عليه هداية عبده لما كانت نعمة؛ لأنَّ أداء الواجب لمن وجب له ليس بنعمة عليه[3].

(٣٥٢) رحمة الله تعالى تغلب غضبه، كما في الحديث القدسي: ((إنَّ رحمتي غلبت غضبي))[4]؛ ولهذا أضاف النعمة إليه فقال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، فناسب أن تنسب إليه، وأن يضيفها إلى نفسه لأنها أكمل الأمرين، وهذه طريقة القرآن، أن يضيف الأكمل كما قال الله عز وجل عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠][5].

(٣٥٣) في إبراز ضمير فاعل النعمة ﴿أَنْعَمْتَ﴾، وهو الله تعالى، ذِكرٌ وشكر له تعالى باللّسان وبالقلب، فيكون الدعاء مقرونًا بالشكر والذكر[6].

(٣٥٤) طلب الهداية إلى صراط من ثبت إنعام الله تعالى عليه وتحقق، وهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون؛ وهذا الثبوت والتحقق مأخوذ من المجيء بالفعل

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٩٣.

(٢) ينظر: جامع البيان، الطبري، ١/١٧٩.

(٣) ينظر: الفوائد اللائحة من معاني الفاتحة، ابن جماعة، ص٤٢.

(٤) سبق تخريجه ص ٦١.

(٥) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٣٥.

(٦) ينظر: تفسير ابن عرفة، ابن عرفة المالكي، ١/١٠٥.

﴿أَنۡعَمۡتَ﴾ ماضيًا[1]، ولو قال: صراط الذين تنعم عليهم لأغفل كلَّ من مضى من رسل الله والصالحين؛ لأنَّ الفعل المضارع أكثر ما يدلّ على الحال، ولاحتمل أن يكون صراط الأولين غير صراط الآخرين، ولم يفد التواصل بين زمر المؤمنين من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة، بل إنَّ الإتيان بالفعل الماضي يدلُّ على أنه كلما مرّ الزمن كثر عدد الذين أنعم الله عليهم؛ لأنَّ الحاضر يلتحق بالماضي، وهكذا تتسع دائرة المنعَم عليهم بمرور الزمن[2].

(٣٥٥) النعمة تعظم بعظم المنعِم؛ ولما كان المنعم هو الله كانت نعمة الهداية أعظم النعم؛ وذلك مأخوذ من ذكر ﴿أَنۡعَمۡتَ﴾ بلفظ الفعل المسند إلى الله تعالى[3].

(٣٥٦) مِن أدب السؤال لله سبحانه إسناد الخير إليه، دون الشر، وإن كان الكل منه خلقًا وتقديرًا، وهو الفاعل المختار لكل شيء؛ وذلك لأنَّ الله تعالى أضاف النعمة إليه دون الغضب، فلم يقل: غير الذين غضبت عليهم ،كما قال: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، وهو من باب الأدب من السائل في حال السؤال، وقد جرت العادة في مقام التأدب أن ينسب للفاعل الخير دون الشر[4].

وكذلك فإنَّ من طُلبت منه الهداية، ونُسب الإنعام إليه لا يناسب نسبة الغضب إليه؛ لأنه مقام تلطف وترفق وتذلل لطلب الإحسان، فلا يناسب مواجهته بوصف الانتقام[5].

ومما ورد في القرآن الكريم من نسبة الخير إلى الله تعالى دون الشر تأدبًا قول الله تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ولم يقل: والشر، ومن ذلك أيضًا قوله تعالى حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، حيث لم

---

(١) ينظر: روح المعاني، الآلوسي، ٩٧/١.

(٢) ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د. فاضل السامرائي ، ص٦٣، ٦٤.

(٣) ينظر: المصدر السابق، ص٦٤، ٦٥.

(٤) ينظر: كشف المعاني، ابن جماعة، ص٨٧؛ وتفسير ابن عرفة، ابن عرفة المالكي، ١٠٤/١.

(٥) ينظر: البحر المحيط، أبو حيان، ١٥١/١؛ وروح المعاني، الآلوسي، ٩٧/١.

يقل: وإذا أمرضني، كما قال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٧٩].

(٣٥٧) نعمة الإسلام عنوان النعم كلها فمن فاز بها فقد حازها بحذافيرها؛ وهذا مأخوذ من إطلاق الإنعام ﴿أَنۡعَمۡتَ﴾ في الآية فإنه لقصد الشمول[١]، والمنعم عليهم هم الذين أفيضت عليهم النعمة الكاملة، وهي نعمة الإسلام، ونعم الله على عباده كلهم كثيرة، والكافر منعم عليه بما لا يُمترى في ذلك، ولكنها نعم يعقبها عذاب الآخرة فلا يُعتدّ بها[٢].

(٣٥٨) ينبغي استعطاف الداعي لمولاه سبحانه وتعالى؛ وهذا مأخوذ من بناء ﴿أَنۡعَمۡتَ﴾ للفاعل، فكأن الداعي يقول أطلب منك الهداية إذ سبق إنعامك، فاجعل من إنعامك إجابة دعائنا وإعطاء سؤالنا[٣].

(٣٥٩) وجوب الاعتراف بالنعم لموليها ومسديها، وهو الله تعالى[٤]؛ فالله سبحانه هو المنفرد بالنعم؛ وذلك مأخوذ من قوله: ﴿أَنۡعَمۡتَ﴾، حيث أضيف إليه ما هو منفرد به، وإن أضيف إلى غيره فلكونه طريقًا ومجرى للنعمة، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣][٥].

والله سبحانه وتعالى له المنة الكبرى على هؤلاء الذين أنعم عليهم؛ فعلى المؤمن أن يحمد الله تعالى على كلّ عمل صالح يفعله لأنه بمعونة الله تعالى ونعمته[٦].

(٣٦٠) الإشعار بإكرام المنعَم عليه، والإشادة بذكره ورفع قدره؛ وهذا مأخوذ من ذكر فاعل الإنعام، وهو الله تعالى، وعلى سبيل المثال: إذا رأيت من قد أكرمه ملكٌ،

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١٨/١.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٩٤/١.

(٣) ينظر: روح المعاني، الآلوسي، ٩٤/١.

(٤) ينظر: اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب، د. سليمان اللاحم، ص٣٣٣.

(٥) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٣٦/١.

(٦) ينظر: أحكام من القرآن، ابن عثيمين، ٤٩/١.

وشرَّفه، ورفع قدره، فقلت: هذا الذي أكرمه السلطان، وخلع عليه، وأعطاه ما تمناه، كان أبلغ في الثناء والتعظيم من قولك: هذا الذي أُكرم وخُلع عليه وشُرف وأُعطي[1].

(٣٦١) التوسل إلى الله بنعمه وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية، أي: قد أنعمت بالهداية على من هديت، وكان ذلك نعمة منك، فاجعل لي نصيبًا من هذه النعمة، واجعلني واحدًا من هؤلاء المنعم عليهم[2].

(٣٦٢) مَن سلك الصراط المستقيم فهو في نعمة وانشراح وإن ضاق عليه رزقه الدنيوي؛ وهذا مأخوذ من قوله ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأنَّ نعمة الدين تقتضي أن يكون المؤمن منشرح الصدر مطمئن القلب، ويؤيده قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وقوله ﷺ: ((عجبا لأمر المؤمن، إنَّ أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر؛ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر؛ فكان خيرًا له))[3][4].

(٣٦٣) التبرؤ من العجب والغرور الذي قد يحصل من العبد؛ لأنَّ كل من سلك الطريق المستقيم إنما سلكه بعد إنعام الله تعالى عليه، ومنته عليه بالهداية إليه، لا من جهة نفسه، فالله هو الذي أنزل الهدى، ويهدي من يشاء، وفي هذا إبعاد للقلب عن الغرور[5].

(٣٦٤) شمول النعمة على المنعم عليهم لخيرات الدنيا ولخيرات الآخرة؛ وذلك لأنَّ النعمة – بالكسر وبالفتح – مشتقة من النعيم، وهو راحة العيش وملائم الإنسان والترفه، والنعمة الحالة الحسنة، ثم استعملت في اللذات المعنوية العائدة بالنفع ولو لم يحس

---

(١) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٣٦/١.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ٤٦/١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن صهيب ﷺ، كتاب: الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير، ٢٢٩٥/٤، رقم [٢٩٩٩].

(٤) ينظر: أحكام من القرآن، ابن عثيمين، ٤٨/١.

(٥) ينظر: دراسات في هدايات سورة الفاتحة، د. طه عابدين، ص١٠٩.

بها صاحبها، فالمراد من النعمة في قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾ النعمة التي لم يشبها ما يكدرها ولا تكون عاقبتها سوأى، فهي شاملة لخيرات الدنيا الخالصة من العواقب السيئة، ولخيرات الآخرة، والنعمة بهذا المعنى يرجع معظمها إلى الهداية[1].

(٣٦٥) في الآية مع قول الله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩] أنَّ النعمة تفضل من الله ورحمة، وأنَّ الغضب عدلٌ من الله تعالى وقصاص[2].

ومن تفضل الله تعالى أنه هو خالق الإيمان والمعطي له؛ لأنَّ لفظ الآية صريح في أنَّ الله تعالى هو المنعم بهذه النعمة، ولأنَّ الإيمان أعظم النعم، فلو كان فاعله هو العبد – كما يقول القدرية والمعتزلة – لكان إنعام العبد أشرف وأعلى من إنعام الله، ولو كان كذلك لما حسن من الله أن يذكر إنعامه في معرض التعظيم[3].

(٣٦٦) إثبات النبوات والرد على منكريها؛ وهذا مأخوذ من إنعام الله تعالى على أهل الهداية إلى الصراط المستقيم، فإنه إنما تم بإرسال الرسل إليهم، وجعلهم قابلين الرسالة، مستجيبين لدعوته؛ وكذلك مأخوذ من ذكر المنعَم عليهم، وتمييزهم عن طائفتي الغضب والضلال؛ فهذا الانقسام ضروري بحسب انقسامهم في معرفة الحق، والعمل به إلى عالم به، عامل بموجبه، وهم أهل النعمة، وعالم به معاند له، وهم أهل الغضب، وجاهل به وهم الضالون، وهذا الانقسام إنما نشأ بعد إرسال الرسل، فلولا الرسل لكانوا أمة واحدة، فانقسامهم إلى هذه الأقسام مستحيل بدون الرسالة، وهذا الانقسام ضروري بحسب الواقع، فالرسالة ضرورية[4].

(٣٦٧) نعمة الدين أكبر من نعمة الدنيا؛ فإنَّ في المغضوب عليهم والضالين مَن أنعم الله عليه نعمًا عظيمة في الدنيا، لكن هذه النعم ليست بشيء بالإضافة إلى نعمة

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٩٣.

(٢) ينظر: تفسير ابن عرفة، ابن عرفة المالكي، ١/١٠٥.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١/٢٢٢؛ والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/١٤٩.

(٤) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٩١، ٩٢.

الدين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾، ويؤيد هذا ما جاء عن عمر بن الخطاب ﷺ لما دخل على النبي ﷺ فوجده قد تأثر جنبه من الحصير الذي كان مضطجعًا عليه، فبكى ﷺ، فقال له النبي ﷺ: ((ما يبكيك؟)) فقال: يا رسول الله إنَّ كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله! فقال ﷺ: ((أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة))[1]؛ فالنعمة الحقيقية الكبيرة العظيمة هي نعمة الدين، وقد قال الله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي ﴾ [المائدة: ٣] فجعل إكمال الدين من تمام النعمة[2].

(٣٦٨) الصراط المستقيم جمع بين حسن الطريق باستقامته وسهولة سلوكه وسرعة الوصول به إلى القصد، وبين حسن الرفقاء؛ وهذا مأخوذ من المجيء بالبدل بأنَّ هذا الصراط صراط الذين أنعم الله عليهم؛ فإنَّ الطريق الحسن قد يُترك ويختار غيره لحسن الرفقاء، فبين تعالى أنَّ هذا الطريق جامع لحسنه في نفسه، وحسن الرفقاء فيه[3].

(٣٦٩) الترغيب في سلوك الطريق المستقيم ببيان الرفقة فيه وسالكيه[4]؛ وذلك لأنَّ النفوس مجبولة على وحشة التفرق، وعلى الأنس بالرفيق، فنبه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق، وأنهم ﴿ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء: ٦٩]، فأضاف الصراط إلى الرفقاء السالكين له، وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوكِ الصراط وحشةُ تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه، وليعلم أنَّ رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له، فإنهم هم الأقلّون قدرًا، وإن كانوا الأكثرين عددًا، كما قال بعض السلف: عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾، ٦/١٥٦، رقم [٤٩١٣]؛ ومسلم في صحيحه، كتاب: الطلاق، باب: في الإيلاء واعتزال النساء، ٢/١١٠٨، رقم [١٤٧٩].

(٢) ينظر: أحكام من القرآن، ابن عثيمين، ١/٤٧، ٤٨.

(٣) ينظر: قطف الأزهار في كشف الأسرار، السيوطي، ص١٤٦.

(٤) ينظر: اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب، د. سليمان اللاحم، ص٣٣٠.

ولا تغتر بكثرة الهالكين[1].

(٣٧٠) الاعتصام بالله تعالى هو في اتباع رسله؛ وهذا مأخوذ من ذكر المنعم عليهم: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم ﴾[2]، وقد جاء بيانهم في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩] فابتدأ بذكر النبيين الموحَى إليهم، ثم ذكر أتباعهم من الصديقين والشهداء والصالحين.

(٣٧١) ينبغي أن نتعرف على سيرة هؤلاء الذين أنعم الله عليهم؛ حتى نهتدي لطريقتهم، ويتفرع على ذلك الحث على معرفة سيرة نبينا ﷺ لأنه خير من أنعم الله عليه؛ وهذا يؤخذ من قوله: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم ﴾؛ إذ إنَّ طلب الهداية إلى طريقتهم يشير إلى التعرف على سلوكهم[3].

(٣٧٢) أهمية نشر سير الأنبياء والعلماء والصالحين لتقتدي بهم الأجيال[4]؛ وهذا مأخوذ من قوله: ﴿أَنعَمتَ﴾، ومعرفة المنعَم عليهم وسيرهم يبعث على الاقتداء بهم.

(٣٧٣) ينبغي للعبد أن يسلك من الطرق أحسنها وأصلحها وأقومها، وأن يختار لنفسه القدوة الحسنة، والأسوة الصالحة، بسلوك طريق المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين[5]؛ وذكر طريق المنعم عليهم إشارة إلى الاقتداء بالسلف الصالح[6]؛ والأخذ بالأسباب التي ارتقوا بها إلى تلك الدرجات[7]؛ وذلك مأخوذ من سؤال الهداية إلى الصراط المستقيم، وبيانه بقوله: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم ﴾؛ فهم القدوة

---

(١) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٤٥، ٤٦.

(٢) ينظر: نظم الدرر، البقاعي، ١/٣٩.

(٣) ينظر: أحكام من القرآن، ابن عثيمين، ١/٤٦، ٤٧.

(٤) ينظر: دراسات في هدايات سورة الفاتحة، د. طه عابدين، ص١٠٨.

(٥) ينظر: اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب، د. سليمان اللاحم، ص٣٣٦.

(٦) ينظر: الإكليل في استنباط التنزيل، السيوطي، ص٢٦.

(٧) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٩٣.

الحسنة، وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الممتحنة: ٦].

(٣٧٤) مِن علامات الهدى ومن شروط السير على صراطه المستقيم الاقتداءُ الجميل والتأسي الحسن بأفعال المنعم عليهم، والسير على سننهم؛ للالتزام بمسلكهم والانضمام إلى قوافلهم السائرة إلى الله تعالى[١].

(٣٧٥) مَن سلك طريق المسلمين الذين أنعم الله عليهم فقد اختار الرفقة الحسنة؛ وذلك لأنَّ الطريق تقتضي الرفيق، فنبه الله سبحانه وتعالى بوصف سالكي هذا الصراط – من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين – بإنعامه عليهم، ثم قال: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩][٢].

(٣٧٦) الترغيب في الأعمال الصالحة، ليكونوا مع أهلها يوم القيامة؛ وهذا مأخوذ من وصف الصراط المستقيم بأنه صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

(٣٧٧) إبراز نفسية المحب المخلص، وأنه يكون شديد الاحتياط دقيق التحري عن الطريق الموصل إلى رضا الله تعالى، ولا يجد في مثل هذا المقام ما يملأ نفسه ثقة إلا أن يبين الطريق بأنه الطريق الذي وصل بالسير عليه من قبله الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون[٣].

(٣٧٨) ينبغي تحمل المشاق في طريق الوصول إلى الحق وإلى الهدى؛ وذلك لأنَّ السائر على صراط الله سبحانه وتعالى لا بدَّ أن يحصل له شيء من المشاق، فقد يتسلط عليه أعداء الحق بنسبة النقائص إليه زورًا وبهتانًا، أو غير ذلك مما يعترض المؤمن في طريقه إلى الحق والهدى، كما جرى ذلك للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد قص علينا القرآن شيئًا منه، بل إنَّ رسولنا ﷺ لقي من ذلك شيئًا كثيرًا، وكذلك صحابته الكرام ﷺ،

---

(١) ينظر: مجالس القرآن، د. فريد الأنصاري، ص١٤٨.

(٢) ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ابن جماعة، ص٨٦.

(٣) ينظر: التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، ٢٥/١.

والعلماء الذين صدحوا بالحق؛ ولهذا وصف الله الصراط المستقيم بقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ ليتأسى طالب الهداية بهم إذا حصل له شيء من المشاق، فيقول: لي أسوة بالذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين؛ فيذهب عنه ما يجده من الوحشة والقلق، ويصبح نشيطًا منشرح الصدر[1].

(٣٧٩) أهمية إحضار الذهن عند سماع الكلام؛ وهذا مأخوذ من تغير الأسلوب حيث جاء بالنعمة بلفظ الفعل، وأبرز الفاعل في قوله: ﴿أَنۡعَمۡتَ﴾، وجاء بالغضب بلفظ الاسم في صيغة المفعول الذي يقتضي عدم ذكر الفاعل؛ وتغيير الأسلوب يثير انتباه السامع، ويتطلب إحضار ذهنه[2].

(٣٨٠) إثبات صفة الغضب لله تعالى على ما يليق بجلال الله تعالى وعظمته[3]، ومن آثاره العقوبة العادلة والانتقام بالحق[4]، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزخرف: ٥٥]؛ والوصف بصفة الغضب مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ﴾، والفاعل هو الله تعالى، وحذف هنا تأدبًا في مقام الدعاء، وقد ورد التصريح بفاعل الغضب في آيات أخرى كقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ [المجادلة: ١٤].

(٣٨١) الغضب على أعداء الله تعالى لا يختص به تعالى وحده، بل ملائكته وأنبياؤه ورسله وأولياؤه يغضبون لغضبه؛ وهذا مأخوذ من المجيء بـ ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ على صيغة المبني للمفعول ليشمل غضبه تعالى وغضب ملائكته وأنبيائه ورسله وأوليائه[5]، بل إنَّ هؤلاء سيغضب عليهم أخلص أصدقائهم وأقرب المقربين إليهم يوم ينقطع حبل كلّ مودة في الآخرة إلا حبل المودة في الله، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ

(١) ينظر: جواهر الأفكار ومعادن الأسرار المستخرجة من كلام العزيز الجبار، ابن بدران، ص٤٣.

(٢) ينظر: تفسير ابن عرفة، ابن عرفة المالكي، ١/١٠٥.

(٣) ينظر: جامع البيان، الطبري، ١/١٨٩؛ وروح المعاني، الآلوسي، ١/٩٥.

(٤) ينظر: معارج التفكر ودقائق التدبر، الميداني، ١/٣١٠.

(٥) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٣٦؛ وتفسير ابن عرفة، ابن عرفة المالكي، ١/١٠٥.

﴿ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]؛ فيغضب بعضهم على بعض، ويتبرأ بعضهم من بعض حتى يتبرأ الإنسان من جلده وجوارحه التي تشهد عليه، فهم مغضوب عليهم من كلِّ شيء ومن كلّ أحد؛ فلهذا جاء الغضب بلفظ العموم والإطلاق(١).

(٣٨٢) إهانة المغضوب عليهم وتحقيرهم، وتصغير شأنهم؛ وذلك مأخوذ من ذكرهم باسم المفعول، وحذف فاعل الغضب(٢)؛ فلم يُعطوا حق اسم الفاعل لأنهم مغضوب عليهم مهانون مطرودون مبغَضون(٣).

(٣٨٣) إثبات كمال صراط الذين أنعم الله عليهم؛ لقوله تعالى بعد أن ذكر هذا الصراط ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، أي: غير صراط المغضوب عليهم، ولا صراط الضالين؛ لأنَّ الصفات السلبية يؤتى بها لثبات كمال ضدها كقول الله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] لإثبات كمال قيوميته، وكقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، ونحو ذلك(٤).

(٣٨٤) طريقة أهل الإيمان الذين أنعم الله عليهم مشتملة على العلم بالحق والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم؛ ولهذا كان الغضب لليهود، والضلال للنصارى؛ لأنَّ من علم وترك استحق الغضب، بخلاف من لم يعلم، وكلٌّ من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه، لكن أخص أوصاف اليهود وألصقها بهم الغضب، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠]، وأخص أوصاف النصارى وألصقها بهم الضلال، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧](٥).

---

(١) ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د. فاضل السامرائي ، ص٦٦.

(٢) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٣٦/١.

(٣) ينظر: أحكام من القرآن، ابن عثيمين، ٥٥/١.

(٤) ينظر: اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب، د. سليمان اللاحم، ص٣٣٤، ٣٣٥.

(٥) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٤١/١.

ويؤيد هذا قوله ﷺ في بيان المغضوب عليهم والضالين: ((إنَّ المغضوب عليهم اليهود، وإنَّ الضالين النصارى))[1]، ويدخل مع اليهود في وصف الغضب كل من عرف الحق وتركه، ويدخل مع النصارى في وصف الضلال كل من ترك الحق عن جهل[2]؛ فالحديث تفسير للآية على سبيل تفسير العام ببعض أفراده، من قبيل التمثيل لا التخصيص، ولا الحصر بالأَولى[3].

(٣٨٥) انقسام الناس إلى أقسام ثلاثة: قسم أنعم الله عليهم، وقسم مغضوب عليهم، وقسم ضالون، وقد ذكرت الآية السبب والجزاء للطوائف الثلاث بأوجز لفظ وأخصره؛ فإنَّ الإنعام على أصحاب الصراط المستقيم يتضمن إنعامه بالهداية التي هي العلم النافع والعمل الصالح، وهي الهدى ودين الحق، ويتضمن كمال الإنعام بحسن الثواب والجزاء، فهذا تمام النعمة، ولفظ ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يتضمن الأمرين، وذكر غضبه على المغضوب عليهم يتضمن أيضًا أمرين: الجزاء بالغضب الذي موجبه غاية العذاب والهوان، والسبب الذي استحقوا به غضبه سبحانه؛ فإنه أرحم وأرأف من أن يغضب بلا جناية منهم ولا ضلال، فكأنَّ الغضب عليهم مستلزم لضلالهم، وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم، فإن من ضل استحق العقوبة التي هي موجب ضلاله وغضب الله عليه؛ فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أبين استلزام، واقتضاه أكمل اقتضاء، في غاية الإيجاز والبيان والفصاحة[4].

(٣٨٦) الردّ على من أنكر المعاد، والثواب والعقاب؛ وهذا مأخوذ من ذكر انقسام الناس إلى منعم عليهم ومغضوب عليهم وضالين، وهذا يقتضي البعث والثواب للطائعين

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده عن عدي بن حاتم ﷺ في حديث طويل، ١٢٤/٣٢، رقم [١٩٣٨١]؛ والترمذي في سننه، ولفظه: ((اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضلال))، كتاب: تفسير القرآن، سورة فاتحة الكتاب، ٢٠٤/٥، رقم [٢٩٥٤]، والحديث ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري وحسنه. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، ١٥٩/٨؛ وصححه الألباني. ينظر: صحيح سنن الترمذي، الألباني، ١٨٣/٣.

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٩؛ والتحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٩٦/١.

(٣) ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٨٢/١؛ ومعارج التفكر ودقائق التدبر، الميداني، ٣١٢/١.

(٤) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٣٦/١، ٣٧.

والعقاب للمسيئين، وهذا هو الحق الذي خلقت به وله السموات والأرض والدنيا والآخرة، وهو مقتضى الخلق والأمر، ونفيه نفي لهما[١].

(٣٨٧) الردّ على الرافضة المنتقصين لصحابة رسول الله ﷺ؛ وذلك مأخوذ من تقسيم الناس في هذه الآية إلى ثلاثة أقسام: منعم عليهم، وهم أهل الصراط المستقيم، الذين عرفوا الحق واتبعوه، ومغضوب عليهم، وهم الذين عرفوا الحق ورفضوه، وضالون، وهم الذين جهلوه فأخطأوه، فكل من كان أعرف للحق، وأتبع له كان أولى بالصراط المستقيم، ولا ريب أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم هم أولى بهذه الصفة من الرافض، فإنه من المحال أن يكون أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم جهلوا الحق وعرفه الروافض، أو رفضوه وتمسك به الروافض[٢].

(٣٨٨) السلامة مما ابتلي به المغضوب عليهم والضالون نعمة جليلة في نفسها؛ وذلك مأخوذ من وصف ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بـ ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، والمعنى: الذين جمعوا بين النعمة المطلقة التي هي نعمة الإيمان ونعمة السلامة من الغضب والضلال[٣].

(٣٨٩) في الآية مع قوله ﷺ: ((من تشبه بقوم فهو منهم))[٤] أنَّ كل من سلك مسلك اليهود أو النصارى شمله وصف تلك الطائفة وهو الغضب أو الضلال[٥].

(٣٩٠) التحذير من مسالك الباطل؛ لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون[٦]؛ وهذا مأخوذ من نفي الاستقامة عن صراط المغضوب

---

(١) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٩٢/١.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ٩٣/١، ٩٤.

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١٩/١.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: اللباس، باب: في لبس الشهرة، ٤٤/٤، رقم [٤٠٣١]، والحديث حسنه الحافظ ابن حجر. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، ٢٧١/١٠؛ وقال الألباني: حسن صحيح. ينظر: صحيح سنن أبي داود، الألباني، ٥٠٤/٢.

(٥) ينظر: اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب، د. سليمان اللاحم، ص٣٣٦.

(٦) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٤٣/١.

عليهم والضالين، وبئس الرفيق رفيقهم يوم القيامة.

ومما يدل على سوء عاقبة المتبعين لأهل الباطل حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((من تشبه بقوم فهو منهم))[1].

(٣٩١) في الآية مع قوله ﷺ في بيان المغضوب عليهم والضالين: ((إنَّ المغضوب عليهم اليهود، وإنَّ الضالين النصارى))[2] إشارةٌ إلى التعريض بذمِّ هذين الفريقين اللذين حق عليهما هذان الوصفان؛ لأنَّ كلًّا منهما صار علَمًا فيما أريد التعريض به فيه[3].

(٣٩٢) التحذير من صنيع اليهود والنصارى وسلوك سبيلهم؛ حيث إنَّ الله تعالى ذكر اليهود بصفة الغضب، والنصارى بصفة الضلال، مما يقتضي البعد عن طريقهم وقبيح أفعالهم.

(٣٩٣) مفهوم الكلام مما يؤخذ بعين الاعتبار[4]؛ وهذا مأخوذ من معنى الآية، وكأنه تعالى يقول: اهدنا صراط المنعم عليهم، الذين لم تغضب عليهم ولم يضلوا؛ فلما وصفوا بنفي الغضب عليهم والضلال كان في ضمن ذلك إثباتهما لغيرهم ممن حاد عن الصراط المستقيم، وفي هذا حجة للقائلين بالمفهوم وفحوى الخطاب[5].

(٣٩٤) ينبغي أن يخص الدعاء بنعمة الهداية إلى الإسلام، وأن يفرد بمزيد من الاعتناء؛ وذلك مأخوذ من وصف المنعم عليهم بـ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ لأن الكفار قد شاركوا المؤمنين في إنعام كثير عليهم، فبيّن بالوصف أن المراد بالدعاء ليس هو النعم العامة، بل ذلك نعمة مخصوصة، وهي نعمة الإسلام[6].

---

(١) سبق تخريجه ص ١٧١.

(٢) سبق تخريجه ص ١٧٠.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٩٦.

(٤) للأخذ بالمفهوم ضوابط معتبرة ذكرها العلماء لا سيما في كتب أصول الفقه، وتمت الإشارة هنا إلى اعتبار المفهوم إحدى الهدايات المأخوذة من الآية ليُعلم أنَّ الكلام كما يستفاد من منطوقه فإنه يستفاد من مفهومه أيضًا.

(٥) ينظر: التفسير البسيط، الواحدي، ١/٥٦٠، ٥٦١.

(٦) ينظر: تفسير الراغب الأصفهاني، ١/٦٨.

(٣٩٥) ينبغي استحضار مقام الخوف والرجاء، والجمع بينهما؛ وذلك لأنَّ قوله: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم ﴾ يوجب الرجاء الكامل، وقوله: ﴿ غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ يوجب الخوف الكامل، وحينئذ يقوى الإيمان بركنيه وطرفيه، وينتهي إلى حد الكمال، والإيمان إنما يكمل بالجمع بين الخوف والرجاء؛ ولهذا لم يقتصر على ذكر الذين أنعم الله عليهم، مع أنَّ من أنعم الله عليه يمتنع أن يكون مغضوبًا عليه وأن يكون من الضالين، بل ذكر عقيبه ﴿ غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ خشية أن يستغرق في استحضار مقام الإنعام الذي يقتضي الرجاء، فيذهل عن المقام الآخر الذي يقتضي الخوف[١]، كما أنَّ في التذكير بنعمة الله على أوليائه ونقمته وغضبه على أعدائه جمعًا بين الترغيب والترهيب، واستثارة للرغبة والرهبة من صميم الفؤاد[٢].

(٣٩٦) الترغيب أبعث للنفوس وأحرى بالتقديم من الترهيب؛ يؤخذ هذا من تقديم ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم ﴾ الدال على الوعد على ﴿ غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ الدال على الوعيد؛ ولأن رحمته تعالى سبقت غضبه، كما جاء في الحديث القدسي: ((إنَّ رحمتي سبقت غضبي))[٣][٤].

(٣٩٧) إبراز الاستلذاذ بمناجاة الله سبحانه وتعالى؛ وهذا مأخوذ من عدم الاكتفاء بقوله: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم ﴾، بل زاد في البيان بالمجيء بضدِّ المنعَم عليهم ﴿ غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

(٣٩٨) ينبغي أن نتعرف على سيرة المغضوب عليهم والضالين؛ حتى نحذر من أفعالهم، ومن أسباب غضب الله عليهم وضلالهم[٥].

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١/٢٢٤، وتفسير ابن عرفة، ابن عرفة المالكي، ١/٣٨.

(٢) ينظر: تفسير الإمام الغزالي، جمع: د. محمد الربحاني، ص٦٧.

(٣) سبق تخريجه ص ٦١.

(٤) ينظر: حاشية السيوطي على البيضاوي، السيوطي، ١/٣٧.

(٥) ينظر: أحكام من القرآن، ابن عثيمين، ١/٤٩.

ويؤيد هذا أن القرآن الكريم أفاض في ذكر القصص عن الأمم السابقة لا سيما عن بني إسرائيل؛ وذلك لأخذ العبرة من أفعالهم ومما فعل الله بهم، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١].

(٣٩٩) إثبات المغايرة بين المسلمين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ وذلك مأخوذ من الوصف بـ ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، ولم يقل: لا المغضوب عليهم، فلم يكتف بمجرد النفي؛ فأهل الكتاب ادعوا أنهم هم المنعم عليهم دون أهل الإسلام، فكأنه قيل لهم المنعم عليهم غيركم لا أنتم، وقيل: للمسلمين المغضوب عليهم غيركم لا أنتم؛ فالإتيان بلفظة غير في هذا السياق أحسن وأدل على إثبات المغايرة المطلوبة[1].

(٤٠٠) عِظم ذنب من أوتي العلم، ولم يعمل به؛ لأنه يستحق الغضب؛ حيث إنَّ الله تعالى أنعم عليه بوجود السبب الذي به يهتدي، ولكنه استنكف واستكبر[2]، وهذا مأخوذ من المشابهة لليهود المغضوب عليهم الذين أوتوا العلم ولم يعملوا به.

(٤٠١) مَن علم الحق ولم يعمل به أسوأ حالًا ممن جهله؛ لأنَّ الأول جعلت عقوبته الغضب؛ حيث قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، وفي هذا تحذير من عدم العمل بما علم الإنسان؛ لأنَّ مَن علم قامت عليه الحجة[3].

(٤٠٢) السعي لكي يكون الإنسان محبوبًا عند الله وعند الناس من الأهمية بمكان؛ وذلك لا يكون إلا بمعرفة الحق والعمل به، بخلاف المنهج الذي يتبعه المغضوب عليهم، وهو معرفة الحق وعدم العمل به، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٩٦].

(٤٠٣) من أعظم أسباب الخسران أن يُعدم الإنسان التوفيق إلى معرفة الحق والعمل به؛ لأن هذا هو حال الخاسرين المغضوب عليهم.

---

(١) ينظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ٢/٢٤.

(٢) ينظر: أحكام من القرآن، ابن عثيمين، ١/٤٩.

(٣) ينظر: المصدر السابق، ١/٥٤.

(٤٠٤) في وصف الذين أنعم الله عليهم بأنهم ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ إشارة إلى أنه ينبغي التعوذ مما عرض لأمم أنعم الله عليهم بالهداية إلى صراط الخير – كاليهود والنصارى – ثم طرأ عليهم سوء الفهم فيها فغيروها، وما رعوها حق رعايتها، وضلوا عن سواء السبيل[١].

(٤٠٥) وجوب بغض المغضوب عليهم والضالين وعدم توليهم ومناصرتهم؛ لأنَّ الله تعالى حذر منهم ووصفهم بالغضب والضلال[٢].

(٤٠٦) وجوب التبرؤ من طريقة المغضوب عليهم وحالهم في بطر النعمة، وسوء الامتثال، وتغليب الشهوات الدنيوية على إقامة الدين؛ حتى حق عليهم غضب الله تعالى.

وكذلك وجوب التبرؤ من طريقة الضالين الذين هدوا إلى صراط مستقيم فما صرفوا عنايتهم للحفاظ على السير فيه باستقامة، فأصبحوا من الضالين بعد الهداية؛ إذ أساؤوا صفة العلم بالنعمة فانقلبت هدايتهم ضلالًا[٣].

(٤٠٧) ينبغي تقديم الأهم فالأهم، وذلك بتقديم نفي الغضب على نفي الضلال؛ لأنَّ نفي الغضب أهم من نفي الضلال[٤]، ومن جهة أخرى فإنَّ اليهود أغلظ كفرًا من النصارى؛ ولهذا كان الغضب واللعنة والعقوبة أخص بهم؛ فإن كفرهم عن عناد وبغي؛ فالتحذير من سبيلهم والبعد منها أحق بالتقديم وأهم[٥].

(٤٠٨) ينبغي تقديم الأشد فالأشد؛ وذلك لأنه تعالى قدم المغضوب عليهم على الضالين، لأنَّ المغضوب عليهم أشد مخالفة للحق من الضالين؛ فإنَّ المخالف عن علم يصعب رجوعه، بخلاف المخالف عن جهل[٦].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٩٦.

(٢) ينظر: أحكام من القرآن، ابن عثيمين، ١/٥٠، ٥١.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٩٦.

(٤) ينظر: التحقيقات الواضحة في تفسير سورة الفاتحة، محمد الظواهري، ص٣٤.

(٥) ينظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ٢/٣٣.

(٦) ينظر: تفسير القرآن الكريم (الفاتحة – البقرة)، ابن عثيمين، ١/٢٠.

(٤٠٩) العبرة بالوصف لا بالاسم[١]؛ وذلك لأنه تعالى قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، ولم يقل: اليهود والنصارى، مع أنهم هم الموصوفون بذلك تجريدًا لوصفهم بالغضب والضلال الذي به غايروا المنعم عليهم، ولم يكونوا منهم بسبيل؛ لأنَّ الإنعام المطلق ينافي الغضب والضلال، فلا يثبت لمغضوب عليه ولا ضال، فتبارك من أودع كلامه من الأسرار ما يشهد بأنه تنزيل من حكيم حميد[٢].

(٤١٠) ينبغي أن يتعلم الإنسان حتى لا يكون من الضالين، وأن يتعبد حتى لا يكون المغضوب عليهم[٣]؛ وذلك لأنَّ المغضوب عليهم علموا وفقدا العمل الذي هو أساس التعبد، والضالون جهلوا وفقدوا العلم الموصل للحق.

(٤١١) الغضب والضلال داءان قاتلان؛ بسبب فساد العلم وفساد القصد من أصحابهما، وهما ملاك أمراض القلوب جميعها؛ ولذا خُصَّا بالذكر في هذه الآية، وهداية الصراط المستقيم تتضمن الشفاء منهما[٤].

(٤١٢) جواز ذكر أعداء الدين بما يسوؤهم من الصفات الدنية، وتبكيتهم بما هم عليه من الكفر وسوء المصير؛ وذلك للمجيء بوصف المغضوب عليهم لليهود ومن شاكلهم، وبوصف الضالين للنصارى ومن شاكلهم[٥].

(٤١٣) الإيمان والهدى لا يجتمع مع غضب الله تعالى، ولا ضلال العبد؛ لأنَّ الله تعالى ميز المؤمنين المهتدين بنفي الغضب والضلال عنهم؛ فلا يجوز وصف المؤمن ولا سبه بهما[٦].

(٤١٤) ينبغي دفع التوهم في الكلام بزيادة البيان إذا كان الكلام يمكن أن يحمل

---

(١) ينظر: دراسات في هدايات سورة الفاتحة، د. طه عابدين، ص١١٤.

(٢) ينظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ٢/٢٤.

(٣) ينظر: أحكام من القرآن، ابن عثيمين، ١/٥١.

(٤) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٧٦.

(٥) ينظر: الفوائد اللائحة من معاني الفاتحة، ابن جماعة، ص٤٥.

(٦) ينظر: المصدر السابق، ص٤٦.

على غير محمله؛ وهذا مأخوذ من المجيء بلا قبل الضالين، حيث «دخلت (لا) على الضالين، ليعلم أنها معطوفة على (غير)، ولو لم تدخل (لا) لاحتمل أن يكون قوله: (والضالين) منسوقًا على قوله: (صراط الذين أنعمت عليهم والضالين)، فلما احتمل ذلك أدخل فيه (لا) ليحسم هذا الوهم»[1].

(٤١٥) العلم صفة كمال؛ لأنَّ في قوله: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ دلالة على مقت صفة الضلال التي تستلزم الجهل، والمؤمن يسأل الله تعالى أن يعصمه من طريق الضالين؛ فيتفرع على هذا أنَّ العلم صفة كمال، وهو كذلك؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩][2].

(٤١٦) جواز نسبة الفعل إلى من قام به، كإسناد الضلال إلى من قام به في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وإن كان الله تعالى هو الذي أضلهم بقدره، كما قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية والإضلال، لا كما تقوله الفرقة القدرية ومن حذا حذوهم، من أنَّ العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه، ويحتجون على بدعتهم بمتشابه من القرآن، ويتركون ما يكون صريحًا في الرد عليهم، وهذا حال أهل الضلال والغي[3].

(٤١٧) تأكيد التحذير من مسلك المغضوب عليهم ومسلك الضالين؛ فكلٌّ واحد منهما مسلك فاسد بمفرده، فمسلك المغضوب عليهم، الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، هو مسلك اليهود ومن عمل عملهم، ومسلك الضالين الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق هو مسلك النصارى ومن عمل عملهم؛ وهذا التأكيد من أنَّ ثَمَّ مسلكين فاسدين مستفاد من المجيء بالحرف (لا) حيث

---

(١) التفسير البسيط، الواحدي، ١/٥٥٥.

(٢) ينظر: أحكام من القرآن، ابن عثيمين، ١/٥٥.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/١٤٤.

لم يقل: والضالين، فجيء بها لتأكيد النفي، ولئلا يتوهم أنه معطوف على ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، وللفرق بين الطريقتين، لتجتنب كل منهما[1]؛ ولئلا يفهم أنَّ المباينة لمن جمع الغضب والضلال دون من لم يجمعهما، فلما ذكر (لا) جعل المباينة لكل صنف منهما[2].

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/١٤٠، ١٤١.

(٢) ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د. فاضل السامرائي ، ص٦٨.

المبحث الثاني:

الهدايات الكلية في السورة

افتتح الله كتابه الكريم بسورة الفاتحة؛ لأنها جمعت مقاصده، وجاءت من القرآن الكريم كله منزلة الديباجة للكتاب أو المقدمة للخطبة؛ ولذلك فإنها حوت الكثير من الهدايات الكلية والعامة[1]، ومن تلك الهدايات التي يمكن أن تستلهم وتؤخذ من هذه السورة العظيمة:

أوّلًا: تضمنت السورة أبرز قضايا الإيمان، ويمكن الحديث عنها من خلال الجوانب الآتية:

(١) الدعوة إلى تحقيق المقصد من خلق الخلق، وهو عبودية الله تعالى وحدة لا شريك، وهذا المقصد أُشير إليه صراحة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ فأول السورة فيه التعريف بالمعبود سبحانه وتعالى وبيان أسباب استحقاقه للعبودية: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾، وأوسطها فيه التعريف بطريق العبودية: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، وآخرها فيه وصف لمواقف الناس من تحقيق العبودية لله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[2].

(٢) الإيمان بالله تعالى وتوحيده في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وقد تضمنت ذلك الفاتحة أكمل انتظام؛ لأنَّ الإيمان بالله تعالى يقتضي توحيده.

وقول الله تعالى: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فيه الإيمان بربوبية الله تعالى؛ لأنَّ الرب هو المالك الخالق الرازق المدبر لهذا الكون، وإيمان العبد بذلك يستلزم إفراد هذا الرب بالعبادة

---

(١) سبق الحديث في المبحث الذي قبل هذا عن الهدايات الجزئية في السورة، والمقصود بها الهدايات التفصيلية المأخوذة بالنظر إلى كل كلمة وكل آية في السورة، أما هذا المبحث فالقصد منه صياغة الهدايات في كليات، وذلك بالنظر في مجموع آيات السورة كلها، أو آيات الموضوع الواحد داخل السورة.

(٢) سبق الحديث عن هذه الهداية بتفصيل في مبحث مقاصد السورة ص ٢٩.

وإخلاص الدين له سبحانه[١].

وقول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيه إفراد الله تعالى بالعبادة والألوهية، والتبرؤ من الشرك، ومن الأصنام وغير ذلك مما يُعبد من دون الله؛ وجميع ما في القرآن من آيات التوحيد ومقارعة المشركين هو تفصيل لهذا الإجمال الذي جاءت به الفاتحة.

والإيمان بالله تعالى يقتضي توحيده بإثبات صفات الكمال لله تعالى، ونفي الشبيه والمثال، والتنزيه عن العيوب والنقائص، وقد دل على هذا إثبات الحمد له سبحانه، وكذلك ذكر صفة الإلهية والربوبية، والرحمة والملك.

وأما دلالة الأسماء الخمسة الواردة في السورة – وهي: الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والملك – على التوحيد وعلى الأسماء والصفات؛ فلأن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماء، وهي أوصاف، وبذلك كانت حسنى[٢].

(٣) تقرير أصول الإيمان وأركانه الستة، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وهذا هو مقصود القرآن بالذات؛ ولذا سمي إيمانًا في قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]، كما فسره بذلك بعضهم[٣]، وهذه المقاصد كلها مشار إليها في الفاتحة[٤][٥].

● أما الإيمان بالله تعالى ففي قوله عز وجلّ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ فإنَّ إيجاب الحمد لله تعالى يقتضي أنه موجود مستحق له[٦].

---

(١) ينظر: من هدايات سورة الفاتحة، د. عبد الرزاق البدر، ص١١ – ١٥.

(٢) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٤٩/١، ٥١.

(٣) للوقوف على هذا التفسير ينظر: التفسير البسيط، الواحدي، ٢٧٥/٧؛ ومفاتيح الغيب، الرازي، ٢٩٦/١١.

(٤) ينظر: إيضاح البيان عن معنى أم القرآن، الطوفي، ص١٦.

(٥) ربما سبق في الهدايات الخاصة بالآيات شيء مما سيذكر هنا، ولكن أهمية الحديث عن هذه الهداية يستدعي إعادة بعض ما ذكر سابقًا بعبارة أو بأخرى، حتى تتقرر الهداية الكلية، وبالله التوفيق.

(٦) ينظر: إيضاح البيان عن معنى أم القرآن، الطوفي، ص١٧.

والإيمان بالله تعالى يقتضي توحيده كما سبق تقرير ذلك، ويقتضي كذلك إفراده بالعبادة والاستعانة، وقد دلَّ عليه في السورة قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وعبادة الله تعالى جامعة لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة[1]، وتقتضي كمال المحبة والخضوع والخوف، والاستعانة به تقتضي طلب العون منه وحده، والتبرؤ من الحول والقوة، وتفويض الأمر إلى الله تعالى[2].

● وأما الإيمان بالملائكة فهو في ضمن قوله عز وجلّ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ إذ العالمون من سوى الله تعالى، ومنهم الملائكة[3].

ويؤخذ أيضًا من قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ على القراءتين[4]؛ فإن المُلك يقتضي التصرف بالقول، كما أن المِلك يقتضي التصرف بالفعل، فالمَلِك هو المتصرف بأمره وقوله، فتنفذ أوامره ومراسيمه حيث شاء، والمالك هو المتصرف في ملكه بفعله، والله له المُلك، وله المِلك، فهو المتصرف في خلقه بالقول والفعل، وتصرفه بقوله نوعان: تصرف بكلماته الكونية، وتصرف بكلماته الدينية، وكمال الملك بهما؛ فإرسال الرسل موجب كمال ملكه وسلطانه، وهذا هو الملك المعقول في فطر الناس وعقولهم، فكل ملك لا تكون له رسل يبثهم في أقطار مملكته فليس بملك، وبهذه الطريق يعلم وجود ملائكته، وأنَّ الإيمان بهم من لوازم الإيمان بملكه، فإنهم رسل الله في خلقه وأمره[5].

وأمره[5].

وكذلك هو في ضمن قوله عزَّ وجلَّ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ فإنَّ الملائكة من جملة المنعَم عليهم ذوي الصراط المستقيم؛ لقوله تعالى في صفتهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ

(١) ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ١٤٩/١٠.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٣٤/١، ١٣٥.

(٣) ينظر: إيضاح البيان عن معنى أم القرآن، الطوفي، ص١٧.

(٤) قرأ عاصم والكسائي ويعقوب وخلف: ﴿مَٰلِكِ﴾ بالألف، وقرأ الباقون: ﴿مَلِكِ﴾ بدون ألف. ينظر: التيسير التيسير في القراءات السبع، الداني، ص١٨؛ والنشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ٢٧١/١.

(٥) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٩١/١.

أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]، وهذا هو مقصود الصراط المستقيم[١]، كما أنَّ الرسل عليهم صلوات الله وسلامه في مقدمة المنعَم عليه، والواسطة بين الله وبين رسله فيما يتعلق بالوحي هو جبريل عليه السلام؛ فهذا يستدعي الإيمان بالملائكة، ثم إنَّ صراط هؤلاء الذين أنعم الله عليهم متضمن للإيمان بالملائكة[٢].

● وأما الإيمان بالكتب فهو مأخوذ من وصف الله تعالى بـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾؛ فإن رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم، فمن أعطى اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه إنزال الغيث، وإنبات الكلأ، وإخراج الحب، فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظمُ من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح.

وكذلك مأخوذ من ذكر ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ فإنه اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات، ويعاقبهم على المعاصي والسيئات، وما كان الله ليعذب أحدًا قبل إقامة الحجة عليه، والحجة إنما قامت برسله وكتبه[٣].

وكذلك تضمنه قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، وهو القرآن على أحد الأقوال، وهي متلازمة، والقرآن مراد على جميع الأقوال قصدًا أو التزامًا، وسؤال الهداية يستلزم الإيمان به؛ إذ من لا يؤمن بشيء لا يسأل الهداية إليه، والإيمان به يستلزم الإيمان بجميع كتب الله عزّ وجلّ؛ لأنه موافق مصدق لها، آمر بالإيمان بها[٤].

● وأما الإيمان بالرسل فمأخوذ من وجوه عديدة، منها: إثبات حمده التام، فإنه يقتضي كمال حكمته، وأن لا يخلق خلقه عبثًا، ولا يتركهم سدى، لا يُؤمرون ولا يُنهون؛ ولذلك نزه الله نفسه عن هذا في غير موضع من كتابه، وأخبر أن من أنكر الرسالة والنبوة فإنه ما عرفه حق معرفته، ولا عظمه حق تعظيمه، ولا قدره حق قدره، بل

---

(١) ينظر: إيضاح البيان عن معنى أم القرآن، الطوفي، ص١٧.

(٢) ينظر: أحكام من القرآن، ابن عثيمين، ١/٦٠.

(٣) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٣٢.

(٤) ينظر: إيضاح البيان عن معنى أم القرآن، الطوفي، ص١٧.

نسبه إلى ما لا يليق به، ويأباه حمده ومجده، فمن أعطى الحمد حقه علمًا ومعرفة وبصيرة استنبط منه (أشهد أن محمدًا رسول الله) كما يستنبط منه (أشهد أن لا إله إلا الله).

ومنها اسم ﴿ٱللَّهِ﴾، وهو المألوه المعبود، ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله، ومنها قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ فلا يليق به أن يترك عباده سدى هملًا لا يعرِّفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما، فهذا هضم للربوبية، ونسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به.

ومنها قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ فإن من كمال رحمته أن يعرِّف عباده نفسه وصفاته ويدلهم على ما يقربهم إليه، ويباعدهم منه، ويثيبهم على طاعته، ويجزيهم بالحسنى، وذلك لا يتم إلا بالرسالة والنبوة، فكانت رحمته مقتضية لها.

ومنها ذكر ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فإنه اليوم الذي يُحاسب العباد فيه، فيُجزى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النجم: ٣١]، وما كان الله ليعذب أحدًا قبل إقامة الحجة عليه، والحجة إنما قامت برسله وكتبه.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ فإن ما يُعبد به الرب تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه، وطريق التعبد وما يعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله وبيانهم.

ومنها قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾؛ فالهداية: هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل.

ومنها كونه سبحانه منعمًا على أهل الهداية إلى الصراط المستقيم؛ فإنَّ إنعامه عليهم إنما تم بإرسال الرسل إليهم، وجعلهم قابلين الرسالة، مستجيبين لدعوته، وبذلك ذكرهم منته عليهم وإنعامه في كتابه[1].

- وأما الإيمان باليوم الآخر ففي قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، يعني يوم الجزاء

(١) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٣١ - ٣٤، ٩٠، ٩١.

على الأعمال والحساب، وهذه الآية فيها دلالة على إثبات المعاد والحشر والحساب[1].

كما أنَّ من تمام حمد الله تعالى أن يبعث العباد ويجازيهم، ويثيب مطيعهم أعظم الثواب وأفضل الجزاء[2].

● وأما الإيمان بالقدر ففي قوله عزّ وجلَّ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ إذ فيه بيان أنَّ الإعانة على عبادته منه، والاستعانة به، والهداية إليه[3].

كما أنَّ في قول العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى هذا الأصل؛ فالحمد لله على أسمائه وصفاته، وعظمته وجلاله، وكمال قدرته، وعظيم إرادته، وعلى تصرفه وتدبيره في هذا الكون؛ فالحمد فيه الإيمان بالقدر، وفي قول العبد أيضًا: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إشارة إلى الإيمان بالقدر؛ فإنَّ من معاني الربوبية الخلق والرزق والتصرف والتدبير والإحياء والإماتة[4].

(٤) الإشارة إلى الإيمان والعمل الصالح كليهما في هذه السورة، كما هي عادة القرآن في القرن بينهما؛ أما الإيمان فقد ذُكرت أركانه الستة ووجه أخذها من السورة كما سبق، وأما العمل الصالح فقد دخل في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إلى آخر السورة، فإتيان العبد بالعبادة، وطلب الاهتداء إلى الصراط المستقيم هو من العمل الصالح[5].

(٥) تضمنت الفاتحة أركان التعبد القلبية الثلاثة التي لا تستقيم العبادة إلا بها، وهي المحبة والخوف والرجاء، فالمحبة يشير إليها قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ وذلك لأنَّ «الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته والرضا عنه

(١) ينظر: البحر المحيط، أبو حيان، ١/١٣٩.

(٢) ينظر: من هدايات سورة الفاتحة، د. عبد الرزاق البدر، ص٤٣.

(٣) ينظر: إيضاح البيان عن معنى أم القرآن، الطوفي، ص١٨.

(٤) ينظر: من هدايات سورة الفاتحة، د. عبد الرزاق البدر، ص٥٨، ٥٩.

(٥) ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د. فاضل السامرائي، ص٧١، ٧٢.

والخضوع له»[1]، والرجاء يشير إليه قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ وذلك لأنَّ ذكر الرحمة يبعث الأمل والرجاء في العبد، والخوف يشير إليه قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾؛ وذلك لأنَّ ذكر الحساب والجزاء على الأعمال في يوم القيامة يبعث على الخوف والرهبة[2].

وكذلك فإنَّ المؤمن في سيره إلى الله تعالى يرجو الله تعالى ويسأله أن يهديه صراط المنعَم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ويخاف ويستعيذ بالله أن يكون مع المغضوب عليهم والضالين.

(٦) تحقيق مراتب الدين الثلاثة، الإسلام والإيمان والإحسان، أما الإسلام فهو الصراط المستقيم الذي جاء به محمد ﷺ، وما عداه فليس بمستقيم؛ فالآية فيها طلب الهداية إلى الصراط المستقيم ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، الذي هو دين الإسلام.

وأما الإيمان فقد سبق تقرير أركانه الستة من خلال ما تهدي إليه آيات السورة.

وأما الدعوة لمقام الإحسان فقد أشار إليه الخطاب في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾؛ فقد كان سياق الآيات في بداية السورة بالثناء على الله تعالى على سبيل الغيبة ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، وبهذا الثناء من العبد على الله تعالى في هذا الابتداء «كأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى؛ فلهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾»[3]، وخاطبه بخطاب الحاضر، فلما أقر بتمام العبودية لله تعالى وكمال الاستعانة به فكأنه أُذن له فسأل الله تعالى من فضله ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[4]؛ فهذه السورة ترشد إلى أن يستشعر العبد أثناء عبادته مراقبة الله تعالى كأنه يراه ويشاهده، وكأنه

---

(١) مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٤٩.

(٢) ينظر: تدبر سورة الفاتحة، د. ناصر العمر، ص٢٢؛ ومن هدايات سورة الفاتحة، د. عبد الرزاق البدر، ص٨٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/١٣٥.

(٤) ينظر: تدبر سورة الفاتحة، د. ناصر العمر، ص٢١.

حاضر ماثل بين يديه، وأن يلاحظ العبد نفسه كأنه واقف لدى مولاه، ماثل بين يديه، وهو يدعو بالخضوع والإخبات، ويقرع بالضراعة باب المناجاة[1].

(٧) الاشتمال على أعظم منازل العبودية، ومنها:

● **تعظيم الله عزَّ وجلَّ**: إنَّ تعظيم الله تعالى من مقاصد القرآن الكريم الرئيسة، وقد ظهر هذا في سورة الفاتحة جليًّا، فقد أرشد المولى سبحانه وتعالى في مقدمة سورة الفاتحة إلى حمده، وحمدُ العبد لمولاه اعترافٌ له تعالى بما هو أهله، وتعظيم له، وهذا الاعتراف الذي هو علامة الرضا والتسليم من شأنه أن يملأ النفس الإنسانية بالسكون والطمأنينة، وحين تمتلئ النفس بهما لا تعود بيئة صالحة للأمراض النفسية، ولا مقرًّا للشيطان.

واعتراف الإنسان لله بما هو أهله يجعله يمتلأ شعورًا بجلال الله تعالى فلا يستقلّ قليلًا يسديه إليه ربه؛ لأنَّ العطاء مهما قلّ فإنه يعظم بعظمة صاحبه الذي أسداه، وفي المقابل فإنه لا يغتر بكثير النعم؛ لأنها قد تكون محل اختبار[2].

ومدار سعادة العبد التامة موقوفةٌ على معرفة الله تعالى، وقد تضمنت الفاتحة ذلك وانتظمتها أكمل انتظام؛ فإنَّ قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يتضمن معرفة الرب تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله[3].

إنَّ معرفة الله تعالى تثمر توقيره وتعظيمه، والقرآن الكريم فصَّل هذا الجانب تفصيلًا، لكن الفاتحة أجملت هذا التفصيل في الشطر الأول من السورة، وهو قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، وهذه هي المعرفة الأساسية، وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هو الموقف العملي الذي تثمره تلك المعرفة[4].

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/١٦.

(٢) ينظر: رياض القرآن، د. سمير استيتيه، ١/٣٤، ٣٥.

(٣) ينظر: الفوائد، ابن القيم، ص١٩.

(٤) ينظر: نظرات في فاتحة الكتاب الحكيم، (ضمن أبحاث مجلة المجلة الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب)، د. محمد عبد الله دراز، ص٩٩.

ومن تعظيم الله تعالى الذي دلّت عليه السورة الثناء عليه سبحانه وتعالى بسعة مجده وكثرة سائليه؛ وذلك بالتعبير بضمير الجمع في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا﴾.

كما أنَّ السورة أشارت إلى تعظيم الله تعالى من جميع الجهات الموجبة للتعظيم؛ وذلك لأنَّ الذي يُحمد ويُمدح ويُعظَّم إنما يكون كذلك لأحد وجوه أربعة: إما لكونه كاملًا في ذاته وفي صفاته، منزهًا عن جميع النقائص والآفات وإن لم يكن منه إحسان إليك، وإما لكونه محسنًا إليك ومنعمًا عليك، وإما لأنك ترجو وصول إحسانه إليك في المستقبل من الزمان، وإما لأجل أنك تكون خائفًا من قهره وقدرته وكمال سطوته، فهذه الحالات هي الجهات الموجبة للتعظيم، فكأنه سبحانه وتعالى يقول: إن كنتم ممن يعظمون الكمال الذاتي فاحمدوني فإني إله العالمين، وهو المراد من قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وإن كنتم ممن تعظمون الإحسان فأنا (ربُّ العالمين)، وإن كنتم تعظمون للطمع في المستقبل فأنا (الرحمنُ الرحيم)، وإن كنتم تعظمون للخوف فأنا (مالكُ يوم الدين)[1].

● **الإخلاص**: يجب على الناس إخلاص العبادة لله تعالى واختصاصه بها، وتقديم المفعول به الذي هو الضمير ﴿إِيَّاكَ﴾ دليلٌ واضح على ذلك.

وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وإخلاص التوحيد (لا إله إلا الله) يتضمنه قول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وكل آيات الفاتحة يمكن أن تتضمن ذلك[2].

ومن هدايات هذه السورة العظيمة أنها اشتملت على الإخلاص الذي هو شرط في قبول الأعمال، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠]: «﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾: ما كان موافقا لشرع الله، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾: وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصًا لله، صوابًا على شريعة رسول الله

(١) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١/١٩٩.

(٢) سبق تقرير ذلك في مواضع عديدة من الهدايات الجزئية للآيات.

ﷺ»[1].

● **الإحسان:** سبقت الإشارة عند ذكر مراتب الدين أن السورة تضمنت مقام الإحسان.

والإحسان من أعلى مراتب العبودية لأنه يتضمن استشعار مراقبة الله تعالى قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلةُ الإحسان، وهي لب الإيمان، وروحه وكماله، وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل، فجميعها منطوية فيها ...»[2].

وقد ذكر النبي ﷺ هذا المقام وهذه المنزلة في قوله: ((أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك))[3]، والمعنى: أن يعبد المؤمن ربه في الدنيا على وجه الحضور والمراقبة كأنه يراه وينظر إليه في حال عبادته.

● **المحبة:** من مقتضيات عبادة الله تعالى وجوب كمال الحب لله تعالى، مع كمال الذل والخضوع له، وكمال الخوف منه، وإخلاص العبادة لله تعالى يقتضي أن لا يشرك العبد شيئًا مع الله لا في محبته، ولا في خوفه، ولا في رجائه ولا في غير ذلك من مقتضيات العبادة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته، الجامعة لكمال محبته، مع الخضوع له والانقياد لأمره، **فأصل العبادة محبة الله، بل إفراده بالمحبة**، وأن يكون الحب كله لله، فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه، فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحبه، وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها، فهي إنما تتحقق باتباع أمره، واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة»[4].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/٢٠٥.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم، ٢/٤٢٩.

(٣) سبق تخريجه ص ١١٩.

(٤) مدارج السالكين، ابن القيم، ١/١١٩.

● **التوكل**: أول لفظ في السورة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ يشير إلى التوكل على الله تعالى، والاستعانة به، والتبرؤ من الحول والقوة، وقوله تعالى في أثناء السورة: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ صريح في ذلك.

إنَّ إفراد الله جلَّ وعلا بالاستعانة يؤدي إلى حصول الطمأنينة والثقة بالله تعالى، فإن العبد المستعين بربه يعتقد أنَّ الأسباب التي يبذلها لتحصيل الأشياء في حياته ليست كل شيء، ولا تستقلّ بتحقيق مطلوبه، فلا حول ولا قوة إلا بالله، ولا يكون شيء إلا بإذن الله، وهذا لا يعني ترك الأسباب وعدم الالتفات إليها، فالعمل بالأسباب مطلوب شرعًا، والتوكل على الله تعالى والاستعانة به تتحقق ببذل الأسباب مع يقين القلب بالله تعالى والاعتماد عليه، والالتجاء إليه، واعتقاد أنه سبحانه وتعالى يملك مقاليد الأمور ويتصرف فيها كيف يشاء[1].

● **الشكر**: أشارت سورة الفاتحة إلى الشكر بجميع أحواله؛ فقوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وارد على الشكر اللساني، وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مشعرٌ بالشكر بالجوارح، وقوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مؤذن بالشكر القلبي[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة الشكر، وهي من أعلى المنازل ... وقد أمر الله به، ونهى عن ضده، وأثنى على أهله، ووصف به خواص خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سببًا للمزيد من فضله، وحارسًا وحافظًا لنعمته، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته، واشتق لهم اسمًا من أسمائه، فإنه سبحانه هو الشكور، وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره، بل يعيد الشاكر

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «... التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلًا للحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عجزه توكلًا، ولا توكله عجزًا». زاد المعاد، ابن القيم، ١٤/٤.

(٢) ينظر: حاشية الطيبي على الكشاف، شرف الدين الطيبي، ٧٢٦/١.

مشكورًا، وهو غاية الرب من عبده، وأهله هم القليل من عباده»[1].

● **الاستقامة:** تضمنت الفاتحة طلب الاستقامة بقوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، والاستقامة منزلة عظيمة من منازل العبودية.

والاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بحقوق الله تعالى على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد، والاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات، فالاستقامة فيها: وقوعها لله، وبالله، وعلى أمر الله[2].

(٨) موالاة المؤمنين الذين أنعم الله عليهم، ومحبتهم، والاهتداء بهديهم مطلب عظيم أشارت إليه سورة الفاتحة في قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، والتبرؤ من المغضوب عليهم والضالين، وبغضهم، والابتعاد عن باطلهم يشير إليه قوله تعالى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ فالولاء والبراء من الأصول الإيمانية التي تضمنتها سورة الفاتحة.

(٩) استحقاق الله تعالى وحده للحمد والثناء بما هو أهله؛ لأنَّ الأوصاف التي أُجريت على الله سبحانه من كونه ربًّا مالكًا للعالمين لا يخرج منهم شيء من ملكوته وربوبيته، ومن كونه منعمًا بالنعم كلها الظاهرة والباطنة والجلائل والدقائق، ومن كونه مالكًا للأمر كله في العاقبة يوم الثواب والعقاب، بعد الدلالة على اختصاص الحمد به وأنه به حقيق في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ – دليلٌ على أن من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه بالحمد والثناء عليه بما هو أهله[3].

وفي ذكر هذه الأسماء والأوصاف بعد الحمد، وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها ما يدل على أنه محمود في إلهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إله محمود، ورب محمود، ورحمن محمود، وملك محمود، فله بذلك جميع أقسام

(١) مدارج السالكين، ابن القيم، ٢/٢٣٢.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ٢/١٠٦.

(٣) ينظر: الكشاف، الزمخشري، ١/١٢، ١٣.

الكمال[1].

بل إنَّ من أسماء هذه السورة سورة الحمد[2]؛ وما ذاك إلا لعظم موقع الحمد فيها لله العظيم المحمود سبحانه وتعالى.

(١٠) الردّ على جميع المبطلين من أهل النحل والملل، وعلى جميع الفرق الضالة والمنحرفة من هذه الأمة؛ وقد سبق أثناء هدايات الآيات ذكر الكثير من تلك الردود، ويمكن أن يُجمل شيء منها في الآتي:

يؤخذ الرد على كل الفرق الضالة والمنحرفة عمومًا من ذكر الصراط المستقيم فإنه متضمن معرفة الحق، وإيثاره، وتقديمه على غيره، ومحبته والانقياد له، والحقُّ هو ما جاء به كتاب الله، وما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ ومن تبعهم بإحسان على منهاجهم إلى يوم الدين، وما خالف ذلك يدخل تحت مذمة الغضب والضلال، «وتالله لا تجد مقالة فاسدة، ولا بدعة باطلة إلا وفاتحة الكتاب متضمنة لردها وإبطالها بأقرب الطرق وأصحها وأوضحها»[3]، وحُقَّ لهذه السورة أن تسمى أم القرآن وأم الكتاب؛ فأم الشيء هي التي يرجع إليها الشيء، والقرآن كله يرجع إلى معاني ومقاصد هذه السورة العظيمة.

ويمكن أن تذكر أهمُّ الردود المستفادة من السورة على الوجه الآتي:

- الرد على من جحد الخالق سبحانه وتعالى من الملاحدة الذين لا يؤمنون بالرب، ويقولون: إنَّ الطبيعة هي التي تكوِّن الأشياء وتوجدها، وذلك بإثبات ربوبيته تعالى للعالمين.

- الرد على المشركين الذين يؤمنون بالرب لكن يشركون معه غيره، وذلك بإثبات حمده الكامل دون غيره، وبقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الذي يقتضي إفراده

(١) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٥٨.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/١٠١.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم، ٤/٣١٩.

بالعبودية وعدم الإشراك به.

● الرد على الجهمية معطلة الصفات من وجوه عديدة، منها: إثبات الحمد الكامل له سبحانه؛ فهو يقتضي ثبوت كل ما يحمد عليه من صفات كماله ونعوت جلاله.

● الرد على القدرية والجبرية من وجوه عديدة، منها: إثبات رحمته ورحمانيته؛ إذ لا يمكن اجتماع هذين الأمرين قط، أن يكون رحمانًا رحيمًا، ويعاقب العبد على ما لا قدرة له عليه، ولا هو من فعله.

● الرد على منكري الاختيار والمشيئة لله تعالى من وجوه عديدة، منها: إثبات حمده؛ إذ كيف يُحمد من ليس مختارًا لوجوده، ولا هو بمشيئته وفعله؟ وكذلك من إثبات ربوبيته تعالى للعالمين فإنها تقتضي فعله بمشيئته واختياره، وتدبيره وقدرته.

● الرد على منكري تعلق علمه تعالى بالجزئيات من وجوه عديدة، منها: كمال حمده سبحانه، فكيف يستحق الحمد من لا يعلم شيئًا من العالم وأحواله وتفاصيله؟

● الرد على من قال بقدم العالم من وجوه عديدة، منها: إثبات ربوبيته للعالمين، والعالم كل ما سواه، فثبت أنَّ كل ما سواه مربوب، والمربوب مخلوق بالضرورة، وكل مخلوق حادث بعد أن لم يكن، فإذًا ربوبيته تعالى لكل ما سواه تستلزم تقدمه عليه، وحدوث المربوب.

● الرد على الرافضة والخوارج المنتقصين لأصحاب رسول الله ﷺ؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ إلى آخر السورة، ووجه تضمنه إبطال قولهم: أنه سبحانه قسم الناس إلى ثلاثة أقسام: منعَم عليهم، وهم أهل الصراط المستقيم الذين عرفوا الحق واتبعوه، ومغضوب عليهم وهم الذين عرفوا الحق ورفضوه، وضالون وهم الذين جهلوه فأخطؤوه، وكلٌّ من كان أعرف للحق، وأتبع له كان أولى بالصراط المستقيم، ولا ريب أن أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم هم أولى بهذه الصفة من الروافض والخوارج[1].

(١) للوقوف على تفاصيل هذه الردود ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٨١ - ٩٣.

ثانيًا: إثبات الجزاء على الأعمال:

يدلّ قول الله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ على إثبات الجزاء على الأعمال، وعلى أنه يجب الاستعداد لهذا اليوم العظيم.

وكذلك قوله تعالى في السورة: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فيه تقرير لهذا الأصل العظيم؛ لأنَّ رب العالمين هو المتصرف في هذا الكون المدبر له، ومن جملة تصرفه في هذا الكون وتدبيره له أنه أعدَّ لمن أطاعه عظيم الثواب، وأعد لمن عصاه شديد العقاب؛ ولذلك أعقب ذلك بقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

ومن دلالات السورة على هذا الأصل قوله تبارك وتعالى في بيان حال أهل الإيمان: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾؛ فمن تأمل هذه الآية العظيمة يدرك أنَّ الله تعالى لا يسوي بين العابد الموحد وبين المكذب المتولي عن طاعة رب العالمين وعبادته.

ومن دلالات السورة أيضًا على الإيمان باليوم الآخر وعلى ما فيه من جزاء القسمة الثلاثية لحال الناس والتي ختمت بها السورة، قسم منعم عليهم، وهم أهل الإيمان الذين علموا الحق وعملوا به، وقسم مغضوب عليهم، وهم الذين علموا الحق وتركوه عن عمد وعناد، وقسم ضالون، وهم الذين تركوا الحق عن جهل وسوء فهم، ومن عدل الله تعالى أنه لن يسوي بين حال هؤلاء، بل هناك يوم يثاب فيه أهل الإيمان، ويعاقب فيه أهل الغضب والضلال[1].

والإيمان بالبعث واليوم الآخر من القضايا الكبرى في الدين؛ ولذا تقدم ذكره هنا في أولى سور القرآن التي يجب تلاوتها في كل ركعة من ركعات كل صلاة مما يجعلها من قضايا الدين الهامة، ثم توالت الإشارات إليها بأساليب متنوعة في القرآن، وحتى يمكن أن يقال إنها ذكرت في معظم سوره بإسهاب حينًا واقتضاب حينًا آخر، وصار الإيمان بها بمقتضى النصوص القرآنية ركنًا من أركان الإيمان، وحتى صارت تشغل حيزًا كبيرًا في القرآن، لا سيما في المكي منه بحيث يمكن أن يقال إنها كانت من أقوى وسائل الدعوة

(١) ينظر: من هدايات سورة الفاتحة، د. عبد الرزاق البدر، ص٤٣، ٤٤.

وتنبيه الناس وحثّهم على الإيمان بالله وحده والعمل الصالح وتحذيرهم من الآثام والمنكرات والفواحش[1].

ثالثًا: بيان المنهج الذي تستقيم عليه أمور الدنيا والدين، وهذا المنهج هو الاستقامة على شرع الله تعالى، واتباعه، وقد جاء في السورة بصيغة طلب الهداية إليه: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، والصراط المستقيم هو دين الإسلام، وقول الله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ يشير إلى الاقتداء بالسلف الصالح الذين هم من جملة المنعَم عليهم، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء: ٦٩].

إن شريعة الله تعالى التي أرسل بها رسوله ﷺ هي الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الشورى: ٥٢ - ٥٣]، ويجب اتباعها والسير على منهاجها حتى تستقيم أمور الدنيا والآخرة.

وشريعة الإسلام التي جاء بها الرسول ﷺ اعتنت بتنظيم أمور الدين والدنيا، وهي نظام شامل لجميع شؤون الحياة وسلوك الإنسان، وقد أرست القواعد في جميع الجوانب التي يحتاجها البشر سواء كانت عقدية أو تعبدية أو اجتماعية أو اقتصادية أو فكرية أو سلوكية، إلى غير ذلك من الجوانب.

رابعًا: الاعتناء والاهتمام بشأن الدعاء:

هذه السورة العظيمة هي سورة المناجاة[2]، والسورة في أغلبها تدور حول الدعاء، فهي مقسومة ما بين ثناء ودعاء، والثناء مقدمة للدعاء، فاشتملت هذه السورة على عُظم الدعاء وجملته؛ فنصفها فيه مجمع الثناء، وهو من بداية السورة إلى قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾، ونصفها فيه مجمع الحاجات، وهو من قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾

(١) ينظر: التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، ٢٩٦/١، ٢٩٧.

(٢) من الأسماء التي ذكرها العلماء لسورة الفاتحة (سورة المناجاة). ينظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ١٩١/١.

إلى آخر السورة[1].

ويؤيد هذا حديث أبي هريرة ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال: ((قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، يقول الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قال: مجدني عبدي - وقال مرة: فوض إليَّ عبدي -، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل))[2].

وكذلك فإنَّ ذكر الإعانة بعد العبادة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يدل على الدعاء، بل من أنفع الدعاء طلب العون على عبادة الله تعالى ومرضاته، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه؛ ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الربّ تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته، وهذا الذي علمه النبي ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ حيث قال له: ((يا معاذ، والله إني لأحبك، فلا تنس أن تقول في دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك))[3][4].

بل إنَّ الثناء متضمن للدعاء، ويؤيد هذا قوله ﷺ: ((أفضل الذكر لا إله إلا الله، **وأفضل الدعاء الحمد لله**))[5]، والحمد لله أفضل الدعاء لأنَّ من حمد الله يحمده على نعمته، والحمد على النعمة طلب المزيد، وهو رأس الشكر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧][6].

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤٧/١.

(٢) سبق تخريجه ص ١٤.

(٣) سبق تخريجه ص ١٢٥.

(٤) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١٠٠/١.

(٥) سبق تخريجه ص ٧٣.

(٦) ينظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، ٢٢٩/٩.

وقد تضمنت السورة شيئًا مهمًّا من آداب الدعاء:

● من ذلك تعليم الله عباده كيفية سؤاله؛ حيث أمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه، وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم: توسل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء، وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين، وهما التوسل بالحمد والثناء على الله تعالى وتمجيده، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده، ثم جاء سؤال أهم المطالب، وأنجح الرغائب، وهو الهداية، بعد الوسيلتين؛ فالداعي به حقيق بالإجابة[1].

يقول ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾: «تهيأ لأصحاب هذه المناجاة أن يسعوا إلى طلب حظوظهم الشريفة من الهداية بعد أن حمدوا الله ووصفوه بصفات الجلالة، ثم أتبعوا ذلك بقولهم: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾، الذي هو واسطة جامع بين تمجيد الله تعالى وبين إظهار العبودية، وهي حظ العبد بأنه عابد ومستعين وأنه قاصر ذلك على الله تعالى، فكان ذلك واسطة بين الثناء وبين الطلب، حتى إذا ظنوا بربهم الإقبال عليهم ورجوا من فضله، أفضوا إلى سؤال حظهم فقالوا: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، فهو حظ الطالبين خاصة لما ينفعهم في عاجلهم وآجلهم»[2].

● ومن تلك الآداب الإخلاص، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾، وكذلك الإلحاح في الدعاء فإنه مشروع، والفاتحة تقرأ في كل ركعة، ويُؤمّن على دعائها، فهي من هذا الجانب من الإلحاح بالدعاء العظيم الذي فيها، ومنها الدعاء للآخرين، وهو مستفاد من صيغة الجمع: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ بالدعاء لنفسه ولغيره، ومنها الجزم في الدعاء والعزم فيه، وهذا موجود في الفاتحة بطلب الهداية ورجائها من الله تعالى بدون تعليق، ومنها حضور القلب وعدم الغفلة، وذلك من جهة تهيؤ الداعي بالإقبال على الله تعالى والثناء عليه الذي بُدئت به السورة، ومنها الدعاء بجوامع الكلم

(١) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٤٧، ٤٨.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٨٧.

فقد جمع دعاء سورة الفاتحة خيري الدنيا والآخرة، ومنها الجمع في الدعاء بين الخوف والرجاء، فيطلب نعمة الهداية رجاءً، وهي صراط الذين أنعم الله عليهم، ويستدفع النقمة خوفًا، وهي صراط من سواهم(١).

● ولأهمية دعاء الفاتحة شُرع التأمين عقبها، لا سيما في الصلاة، ومعناه: اللهم استجب، وقد ورد في السنة المطهرة فضله واستحبابه(٢).

خامسًا: منهج الوسطية والاعتدال:

الشطر الثاني من سورة الفاتحة يبرز الجانب الإنساني الذي يتألف من عنصرين اثنين: عنصر نظري تعليمي، وعنصر عملي تنفيذي هو صدى تلك المعرفة وثمرتها، وقد انتظمت السورة هذين العنصرين بأوجز العبارات وأبلغها وأروعها، وذلك أنها حين حببت طريق الفضيلة بينت أوّلًا قيمته الذاتية، فوصفته بالاعتدال والاستقامة ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، ثم بينت ما في عاقبته من نفع وجدوى، فوصفته بأنه الطريق الموصل إلى رضوان الله تعالى ونعمته، وأشارت في الوقت نفسه إلى مثله التاريخية ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ولم تكتف بذلك بل وضعت معيارًا لأنواع الطرق المنحرفة، فبينت أن الانحراف على ضربين: انحراف عن قصد وعلم، عنادًا واستكبارًا، واتباعًا للهوى، وهذا طريق المغضوب عليهم؛ وانحراف عن جهل وطيش، وهذا هو طريق الضالين.

ومن عرف هذا الجانب النظري حق المعرفة، وتبينت له مسالك الهدى والاستقامة، ومشارب الاعوجاج والضلالة سيكون موقفه العملي منها أن يلتمس من هذه الطرق أقومها وأسلمها وأحسنها، وهذا هو منهج الوسطية الذي ترجمته سورة الفاتحة في قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾(٣).

---

(١) ينظر: تدبر سورة الفاتحة، د. ناصر العمر، ص٢٥، ٢٦.

(٢) سبق في مبحث فضائل سورة الفاتحة الأدلة على ذلك.

(٣) ينظر: نظرات في فاتحة الكتاب الحكيم، (ضمن أبحاث مجلة المجلة الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب)، د. محمد عبد الله دراز، ص١٠٣ – ١٠٥.

إنَّ دين الإسلام هو الدين الحق الخاتم الذي تكفل الله بحفظه وإظهاره، وما جعله الله بهذه المنزلة، وهذه المثابة إلا لما يحمله من مزايا ذاتية، أهمها الوسطية، ومظاهر الوسطية في الإسلام حديث ذو شجون، لأنها كثيرة متغلغلة في جميع عقائده، وفرائضه، وشرائعه[1].

وقد جاءت النصوص الشرعية بالتحذير من الغلو والتفريط، والانحراف والتطرف، ومن ذلك التحذيرُ من سلوك طرق المغضوب عليهم والضالين، المضيعين لحدود الله، والمجاوزين لها، والذين يمثلون جوانب الغلو والتفريط والانحراف، وتعليم المسلمين أن يدعوا الله أن يسلمهم من كلا الانحرافين، وتشريع ذلك لهم في كل صلاة مرات متعددة ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[2].

سادسًا: الدعوة إلى الوحدة والاجتماع:

أشارت السورة إلى الوحدة وأهمية لزوم الجماعة؛ وهذا يؤخذ من التعبير بالجمع حيث جاءت السورة على لسان الجماعة المؤمنة، وكأنَّ العبد يقول لربه: لما أردت تحميدك ذكرت حمد الجميع فقلت: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ﴾، ولما ذكرت العبادة ذكرت عبادة الجميع فقلت: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾، ولما ذكرت الاستعانة ذكرت استعانة الجميع فقلت: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾، ولما طلبت الهداية طلبتها للجميع فقلت: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، ولما طلبت الاقتداء بالصالحين طلبت الاقتداء بالجميع فقلت: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، ولما طلبت الفرار من المردودين فررت من الكل فقلت: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[3].

وفي هذا تعميق معنى الجماعة الربانية الواحدة المؤمنة العابدة لربها التي لا تشرك بعبادته أحدًا؛ فالعبد يتلو هذه السورة ويثني على مولاه بقوله: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ إلى أن

---

(١) ينظر: مظاهر الوسطية في الإسلام، (ضمن أبحاث ندوة أثر القرآن في تحقيق الوسطية ودفع الغلو)، د. سليمان العايد، ص٥٣ – ٥٥.

(٢) ينظر: مفهوم الغلو في الكتاب والسنة، (ضمن أبحاث ندوة أثر القرآن في تحقيق الوسطية ودفع الغلو)، د. صالح السدلان، ص١٨٩، ١٩٠.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢١٩/١، ٢٢٠.

يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخر السورة، فيذكر العبادة والاستعانة وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم، كل ذلك بضمير الجمع فيضم نفسه مع إخوانه المؤمنين، ويتمنى لهم ما يتمنى لنفسه.

وهذه السورة وردت في خطابها على لسان البشرية المؤمنة، وموقعها موقع القرار الجماعي الذي تعلن به الأمة المؤمنة حاجتها إلى المنهج العظيم – القرآن الكريم – وتؤكد طلبها من الله تعالى له قائلة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، بعد أن ذكرت أسباب توجهها إلى الله تعالى بهذا الطلب، بأنه المستحقُّ للحمد كله، وأنه ربُّ العالمين، الرحمنُ الرحيم، مالكُ يوم الدين، وأنه المخصوصُ وحده بالعبادة والاستعانة؛ فكانت أول سورة بعد الفاتحة تبين إجابة ذلك الهدى الذي طلبوه بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وبهذا كان القرآن الكريم هو المنهج العظيم النابع من حاجة الأمة إليه، وكانت الفاتحة هي أساس هذا المنهج[1].

سابعًا: تضمنت السورة مجموعة من أفضل الأساليب الدعوية والتربوية، ويمكن ذكر أبرزها في الجوانب الآتية:

(١) البدء بالحمد لله تعالى والثناء عليه لا سيما في الأمور المهمة كالخطب ودروس العلم والدعاء وغير ذلك؛ اقتداء بافتتاح هذه السورة الكريمة بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وكذلك الثناء على الله تعالى بأنه ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

(٢) التأنيس والتهيئة للمخاطب قبل إلقاء المقصود من الكلام؛ وذلك مأخوذ من جهة أنَّ «الشأن في الخطاب بأمر مهم لم يسبق للمخاطب به خطاب من نوعه أن يُستأنس له قبل إلقاء المقصود، وأن يُهيَّأ لتلقيه، وأن يُشوق إلى سماع ذلك، وتُراض نفسه على الاهتمام بالعمل به؛ ليستعد للتلقي بالتخلي عن كل ما شأنه أن يكون عائقًا عن الانتفاع بالهدى، من عناد ومكابرة، أو امتلاء العقل بالأوهام الضالة؛ فإنَّ النفس لا

(١) ينظر: نظرات في فاتحة الكتاب الحكيم، (ضمن أبحاث مجلة المجلة الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب)، د. محمد عبد الله دراز، ص١٠٥ – ١٠٧.

تكاد تنتفع بالعظات والنذر، ولا تشرق فيها الحكمة وصحة النظر ما بقي يخالجها العناد والبهتان، وتخامر رشدها نزغات الشيطان، فلما أراد الله أن تكون هذه السورة أولى سور الكتاب المجيد بتوقيف النبي ﷺ نبه الله تعالى قراء كتابه وفاتحي مصحفه إلى أصول هذه التزكية النفسية بما لقنهم أن يبتدئوا بالمناجاة التي تضمنتها سورة الفاتحة»[1].

(٣) الإشارة إلى أصول نجاح المرشد والمربي في إرشاده والمسترشد والمتعلم في تلقيه؛ وذلك لأنَّ الفاتحة تضمنت أصولًا عظيمة: أولها التخلية عن التعطيل والشرك بما تضمنه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، الثاني: التخلي عن خواطر الاستغناء عن الله تعالى بالتبري من الحول والقوة تجاه عظمته بما تضمنه قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، الثالث: الرغبة في التحلي بالرشد والاهتداء بما تضمنه قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، الرابع: الرغبة في التحلي بالأسوة الحسنة بما تضمنه قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، الخامس: طلب السلامة من الضلال الصريح بما تضمنه قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، السادس: طلب سلامة تفكيرهم من الاختلاط بشبهات الباطل المموه بصورة الحق، وهو المسمى بالضلال؛ لأنَّ الضلال خطأ الطريق المقصود بما تضمنه ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

كما أنه تعالى لم يهمل إرشادهم إلى التحلي بزينة الفضائل، وهي أن يقدروا النعمة حق قدرها بشكر المنعم بها؛ فأراهم كيف يتوجون مناجاتهم بحمد واهب العقل ومانح التوفيق سبحانه وتعالى[2].

(٤) الابتداء بالأهم فالأهم، وبالأصول قبل الفروع، وبجوامع التشريع والعقائد قبل التفاصيل؛ وهذا مأخوذ من وضع سورة الفاتحة في مقدمة القرآن وجمعها لمقاصده[3].

وفي قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إشارة إلى تقديم الأولويات والاهتمام بها، وذلك بتقديم الدعاء بالهداية إلى الصراط المستقيم قبل أي شيء آخر.

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٥٢.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ١/١٥٢.

(٣) ينظر: تدبر سورة الفاتحة، د. ناصر العمر، ص١٩.

(٥) إيجاز المقدمة في الخطب ونحوها لئلا تمل نفوس السامعين بطول انتظار المقصود؛ وهذا ظاهر في الفاتحة، وليكون سنة للخطباء فلا يطيلوا المقدمة كي لا ينسبوا إلى العجز؛ فإنه بمقدار ما تطال المقدمة يقصر الغرض، ومن هذا يظهر وجه وضعها قبل السور الطوال مع أنها سورة قصيرة[١].

(٦) ينبغي للخطباء ونحوهم أن يحيطوا بأغراض كلامهم، وأن يشيروا إلى الغرض المقصود منه في المقدمة، وهو ما يسمى براعة الاستهلال؛ وهذا يؤخذ من احتواء الفاتحة على مقاصد القرآن فهي براعة استهلال، والإشارة إلى الغرض المقصود في مقدمة الكلام أو الخطبة يهيء السامعين لسماع تفصيل ما سيرد عليهم فيتأهبوا لتلقيه إن كانوا من أهل التلقي فحسب، أو لنقده وإكماله إن كانوا في تلك الدرجة؛ ولأن ذلك يدل على تمكن الخطيب من الغرض وثقته بسداد رأيه فيه بحيث ينبه السامعين لوعيه[٢].

(٧) ينبغي أن تكون مقدمة الكلام في الخطب ونحوها من جوامع الكلم، وقد بين ذلك علماء البيان عند ذكرهم المواضع التي يحسُن للمتكلم أن يتأنق فيها؛ وهذا مأخوذ من الفاتحة؛ فقد جاءت على أروع ما يكون من جوامع الكلم، وهي مقدمة القرآن[٣].

(٨) الجمع بين التحلية والتخلية، وذلك لأنَّ سورة الفاتحة تخلية وتحلية، ولا بد منهما معًا؛ فهي تخلية من طريق الشيطان إلى تحلية بالانصراف لله رب العالمين، وتخلية من الكفر إلى تحلية بالشكر والحمد لله رب العالمين، وتخلية من اليأس إلى تحلية بالثقة برحمة الله الرحمن الرحيم، وتخلية من الغفلة إلى تحلية باليقظة والاستعداد ليوم الدين، وتخلية من الشرك إلى تحلية بإخلاص العبادة لله تعالى، وتخلية من العجز إلى تحلية بالاستعانة بالله تعالى، وتخلية من الضلال إلى تحلية بسؤال الله تعالى الهداية، وتخلية من الجهل والعناد إلى تحلية بالعلم والاتباع، وتخلية من طريق الضلال وأهله إلى تحلية باتباع طريق الهدى وأهله[٤].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٥٣.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ١/١٥٣.

(٣) ينظر: المصدر السابق، ١/١٥٣.

(٤) ينظر: تدبر سورة الفاتحة، د. ناصر العمر، ص٢٧.

(٩) رحمة الخلق من أسباب استجلاب رحمة الخالق سبحانه وتعالى؛ فينبغي استشعار هذا الخلق والتحلي به فـ ((الراحمون يرحمهم الرحمن))[١].

قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «حظ العبد من اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أن يرحم عباد الله الغافلين فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى الله عز وجل بالوعظ والنصح، بطريق اللطف دون العنف، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة، لا بعين الإزراء، وأن يكون كل معصية تجري في العالم كمصيبة له في نفسه، فلا يألو جهدًا في إزالتها بقدر وسعه؛ رحمة لذلك العاصي أن يتعرض لسخط الله ويستحق البعد من جواره.

وحظه من اسم ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ أن لا يدع فاقة لمحتاج إلا يسدها بقدر طاقته، ولا يترك فقيرًا في جواره وبلده إلا ويقوم بتعهده ودفع فقره، إما بماله، أو جاهه، أو السعي في حقه بالشفاعة إلى غيره، فإن عجز عن جميع ذلك فيعينه بالدعاء، وإظهار الحزن بسبب حاجته رقة عليه وعطفًا حتى كأنه مساهم له في ضره وحاجته»[٣].

(١٠) الجمع بين أسلوب الترغيب والترهيب؛ وذلك أنه تعالى لما ذكر رحمته، وأنه الرحمن الرحيم، وذلك مما يبعث الأمل والرجاء في العبد، أعقبه بقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾؛ ليكون من عمله على خوف ووجل.

(١١) التواضع وعدم التكبر على الآخرين؛ لأنه لما قال العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ كان معناه أنه واحد من عبيد الله، ومن تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله[٤]، ولو قال: إياك أعبد لكان فيه تعظيم لنفسه بجعله وحده أهلًا لعبادة الله تعالى الذي لا

---

(١) سبق تخريجه ص ٦٣.

(٢) أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، حجة الإسلام، زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي، من كبار فقهاء الشافعية، أخذ عن إمام الحرمين الجويني ولازمه، صنف الكتب المفيدة في فنون عديدة، منها: (الوسيط) في الفقه، و(المستصفى) في أصول الفقه، توفي – رحمه الله – سنة (٥٠٥هـ). ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، ٢١٦/٤؛ وطبقات الشافعية، ابن قاضي شهبة، ٣٢٦/١.

(٣) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، الغزالي، ص٦٤.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢١٢/١.

يستطيع أحد أن يعبده حق عبادته، ولا يثني عليه كما يليق به[1].

(١٢) أهمية تقديم أمور الدين والآخرة على أمور الدنيا، والاهتمام بالدين والآخرة أكثر من الاهتمام بالدنيا، وذلك مأخوذ من جهات عديدة، منها أنه بعد الثناء على الله بما هو أهله خُصَّ الدعاء بالهداية إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وذلك مشعر بتقديم أمور الآخرة، ولا شك أنَّ هؤلاء المنعم عليهم كانت الآخرة أهم شيء لديهم.

(١٣) الاعتناء بشأن القدوة، وذلك في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾، ففيه دعوة للاقتداء بالمنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهذه هي القدوة الحسنة التي يدعو إليها القرآن، والجانب الآخر من القدوة هو القدوة السيئة، وقد أشار إليه قوله تعالى: ﴿غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ وذلك تحذيرًا من الاقتداء بهم والسير على منوالهم.

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/١٣٥، ١٣٦.

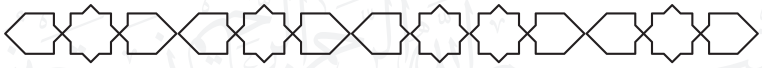

الباب الثاني

٢ دراسات تطبيقية في هدايات السورة ٢

ويتكون من ثلاثة فصول:

الفصل الثاني:

مناسبات السورة وخصائصها وأساليبها في عرض هداياتها.

- **المبحث الأول:** المناسبات المتعلقة بهدايات السورة.
- **المبحث الثاني:** خصائص هدايات السورة.
- **المبحث الثالث:** أساليب السورة في عرض هداياتها.

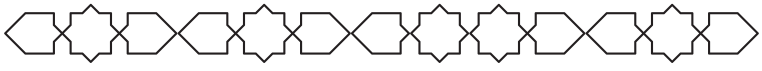

المبحث الأول:

المناسبات المتعلقة بهدايات السورة

مما يهدي الناظر في كتاب الله تعالى لاستنباط الهدايات من الآيات النظرُ في المناسبات[1]، والمتأمل في آيات سورة الفاتحة وكلماتها ومواضيعها يجدها مترابطة متناسبة بصورة رائعة تأخذ بالألباب، وقد تمت الإشارة إلى كثير من هذه المناسبات أثناء الحديث عن الهدايات الجزئية التفصيلية للآيات؛ لكون معظم المناسبات عبارة عن هدايات، ويمكن هنا إيضاح جانب من هذه المناسبات وإبرازها على الوجه الآتي:

۞ مناسبة افتتاح القرآن بسورة الفاتحة:

افتتح الله سبحانه وتعالى كتابه الكريم بهذه السورة العظيمة لأنها جمعت مقاصد القرآن، ولأنَّ فيها إجمال ما يحويه القرآن مفصَّلًا[2]، ولأنَّ البلاغة فيما هو مطلع التنزيل أن يتضمن ما سيق الكلام له؛ ولهذا فإنها تنزل منزلة ديباجة الخطبة أو الكتاب، وفي هذا براعة استهلال[3].

۞ المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها:

«أول السورة مشتمل على الحمد لله والثناء عليه والمدح له، وآخرها مشتمل على الذم للمعرضين عن الإيمان به والإقرار بطاعته، وذلك يدل على أن مطلع الخيرات وعنوان السعادات هو الإقبال على الله تعالى، ومطلع الآفات ورأس المخافات هو الإعراض عن الله تعالى والبعد عن طاعته»[4].

---

(١) سبق في المبحث الخاص بمنهج العلماء في استنباط الهدايات أنَّ المناسبات إحدى الطرق التي استعملها العلماء للوصول إلى الهدايات.

(٢) للوقوف على وجه جمعها لمقاصد القرآن وإجمال تفاصيله ينظر مبحث الهدايات الكلية في السورة، وستأتي إشارة إلى ذلك أيضًا في مبحث خصائص السورة بإذن الله تعالى.

(٣) ينظر: حاشية الطيبي على الكشاف، شرف الدين الطيبي، ٧١٨/١؛ وتناسق الدرر في تناسب السور، السيوطي، ص٦١، ٦٢؛ والتحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٣٥/١.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٢٣/١.

۞ المناسبة بين سورة الفاتحة وسورة البقرة:

لما ذكر الله سبحانه وتعالى أنَّ الحامدين طلبوا الهدى بقولهم: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، أخبرهم بأنه قد أعطاهم طلبهم، وبيَّن تلك الهداية بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، أي: هذا الكتاب هدى لكم فاتبعوه[1]، «وبيَّن لهم صفات الفريقين: الممنوحين بالهداية حثًّا على التخلق بها، والممنوعين منها زجرًا عن قربها، فكان ذلك أعظم المناسبات لتعقيب الفاتحة بالبقرة؛ لأنها سيقت لنفي الريب عن هذا الكتاب، ولأنه هدى للمتقين، ولوصف المتقين وما يجازون به بما في الآيات الثلاث، ولوصف الكافرين الذين لا يؤمنون لما وقع من الختم على حواسهم، والختم لعقابهم؛ ليُعلم أنَّ ما اتصف به المتقون هو الصراط المستقيم فيُلزم، وما اتصف به من عداهم هو طريق الهالكين فيُترك، وفي الوصف بالتقوى بعد ذكر المغضوب عليهم والضالين إشارة إلى أن المقام مقام الخوف»[2].

۞ المناسبة بين فاتحة الكتاب وخواتيمه:

محور سورة الفاتحة ومقصدها الأساسي يدور حول تحقيق عبودية الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، فقد أقر المسلم في هذه السورة وأعطى العهد والميثاق أنه يسلم نفسه لله، فلا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، وأعرب عن طلبه الهداية إلى طريق الذين آثرهم الله بنعمته واختصهم برحمته، كما أعرب عن كراهيته لأولئك الأشقياء الذين باؤوا بغضب من الله وحادوا عن الطريق.

وفي نهاية القرآن وخواتيم سوره عاد التركيز على هذه النقطة، وتناولها بطريقة عجيبة وروعة فائقة؛ فالمسلم مطالب أن يفاصل هؤلاء الكفار الأشقياء مفاصلة كاملة، ويصارحهم بكراهيته وضجره لهم ولما يعبدون من دون الله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ

(١) ينظر: تناسق الدرر في تناسب السور، السيوطي، ص٦٥.

(٢) نظم الدرر، البقاعي، ١/٧٧.

﴿مَآ أَعۡبُدُ ۝٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ - ٦]، ويقرع أسماعهم بذلك العهد الذي أبرمه مع ربه حين قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، وذلك بأن يقول: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]، أي الذي أعبده هو الله الذي يتفرد بهذه الصفات، وهي صفات لا بد من توافرها في الإله المعبود؛ فكان هذا تكملة للعهد الذي سبق في سورة الفاتحة.

ثم جاءت المعوذتان، ومعلوم أن الاستعاذة أخت الاستعانة؛ فلما تقدم المسلم إلى ربه بطلب العون في سورة الفاتحة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ استجاب الله دعاءه، وبين له الطريق، وبين له الشرائع، وبين له الأحكام، وبين له كل ما يساعده في عبادة الله تعالى وطاعته واتباع رضوانه، ثم علّمه بعدما حمّله الرسالة كيف يستعيذ بربه من الشرور والفتن التي تحيط به من كل جانب، وتريد أن تفسد عليه دينه وعبادته وسعادته، وذلك بأن يقول: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١ - ٥].

وهذه الشرور في الأغلب خارجية كما لا يخفى، وهناك شرور خفية تدب في نفس الإنسان، وهي الوساوس، وهذه الشرور الداخلية علمنا الله كيف نستعيذ منها بقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١ - ٦]، وهكذا يكون المؤمن في مأمن من الفتن كلها، ولا يُؤتى من داخله ولا من خارجه[1].

(١) ينظر: البرهان في نظام القرآن، د. محمد عناية الله أسد، ص٨٥، ٨٦.

المبحث الثاني:

خصائص هدايات السورة

سورة الفاتحة أعظم سورة في كتاب الله؛ وذلك لما تحمله من خصائص تميزها عن غيرها من السور، قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي الفاتحة من الصفات ما ليس لغيرها»[(١)]؛ ومن الخصائص التي تميزت بها سورة الفاتحة ما يأتي:

أوّلًا: خصائص عامة تميزت بها السورة:

(١) **كثرة أسمائها:** ثبت بالأدلة الصحيحة لسورة الفاتحة مجموعة من الأسماء، وهي: فاتحة الكتاب، وأم القرآن، أو أم الكتاب، والسبع المثاني، والقرآن العظيم، والصلاة، ولها الكثير من الأسماء الاجتهادية التي اشتهرت بين السلف، ولم تشتهر سورة من سور القرآن بالأسماء الكثيرة مثل سورة الفاتحة، فقد عدها بعض أهل العلم أكثر من عشرين اسمًا، وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى[(٢)].

(٢) **فضلها:** لسورة الفاتحة من الفضائل ما ليس لغيرها، ومن ذلك أنها أعظم سورة في القرآن، فقد ثبت في الحديث الصحيح عن أبي سعيد بن المعلى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال له: ((لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن ... ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته))[(٣)][(٤)].

(٣) **تعيّنها في الصلاة:** لا تصح الصلاة إلا بقراءة سورة الفاتحة للحديث الصحيح عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: ((لا صلاة لمن لم يقرأ **بفاتحة الكتاب**))[(٥)][(٦)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/١١٠.

(٢) للوقوف على المزيد من الأدلة والتفاصيل حول ذلك ينظر مبحث اسم السورة.

(٣) سبق تخريجه ص ١٣.

(٤) للوقوف على المزيد من الأدلة والتفاصيل حول ذلك ينظر مبحث فضائل السورة.

(٥) سبق تخريجه ص ١١.

(٦) مسألة وجوب قراءة الفاتحة وتعينها في الصلاة فيها خلاف بين أهل العلم، والجمهور على وجوب ذلك، وتفاصيل ذلك معلومة في كتب الفقه.

(٤) **تلاوتها وحفظها:** لسورة الفاتحة من التلاوة والحفظ ما ليس لغيرها؛ وذلك لما تتميز به هذه السورة العظيمة من كثرة ترددها وتكرارها، وبالتالي تكرر ورود ما تحمله من هدايات ودلالات على النفس، ولا شك أنَّ كثرة الترداد مما يقرر المعنى في النفس ويؤكده.

(٥) **تفردها ببعض الألفاظ:** كالضمير ﴿إِيَّاكَ﴾ بالإفراد حيث لم يرد إلا في سورة الفاتحة فقط، ولعل وروده في هذا الموضع من هذه السورة فقط دون سواها من القرآن الكريم يشير إلى تأكيد إخلاص العبادة لله تعالى وحده دون سواه.

ومن تفردات السورة أن قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ﴾ فيه قراءة أخرى ثابتة وهي: ﴿مَلِكِ﴾[1]، ولفظ ﴿مَٰلِكَ﴾ في سورة آل عمران لم يقرأ بغيره، ولفظ ﴿مَلِكِ﴾ في سورة الناس لم يقرأ أيضًا بغيره.

والآيات الثلاث ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ مدارها على تعريف العباد بأنه سبحانه الملك المالك، وتفردت آية الفاتحة بتقرير المعنيين بالقراءتين الواردتين فيها.

ثانيًا: خصائص السورة المتعلقة بمعانيها وهداياتها:

(١) **جمعها لمقاصد القرآن وأصول معانيه:** سورة الفاتحة تسمى أمَّ القرآن، وأم الكتاب، بل وتسمى القرآن العظيم[2]؛ لأنَّ كلماتها وآياتها وما تشتمل عليه من دلالات وهدايات تشعُّ بمقاصد القرآن الكريم، وبأصول المعاني التي يهدف القرآن إلى تقريرها في النفوس، ومما يؤيد ذلك ما يأتي:

- محتويات السورة مشتملة على أنواع مقاصد القرآن، وهي ثلاثة أنواع: الثناء على

(١) قرأ عاصم والكسائي ويعقوب وخلف: ﴿مَٰلِكِ﴾ بالألف، وقرأ الباقون: ﴿مَلِكِ﴾ بدون ألف. ينظر: التيسير في القراءات السبع، الداني، ص١٨؛ والنشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ٢٧١/١.

(٢) ثبتت هذه التسميات بالأحاديث الصحيحة، وللاستزادة والوقوف على الأدلة ينظر المبحث الخاص باسم السورة.

الله ثناء جامعا لوصفه بجميع المحامد وتنزيهه عن جميع النقائص، والأوامر والنواهي، والوعد والوعيد، فهذه هي أنواع مقاصد القرآن كله، وغيرها تكملات[١].

بل إنَّ المقصد الرئيس للقرآن الكريم هو الدعوة إلى عبادة الله تعالى بمعناها الجامع، وقد قررت الفاتحة هذا بجميع آياتها، لا سيما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٢].

- سميت سورة الفاتحة بـ (الكنز) و(الكافية) و(الوافية)[٣]؛ وذلك لاشتمالها على أصول معاني القرآن وتقريرها لذلك[٤].

- احتوت هذه السورة على أمهات المطالب العالية التي جاء القرآن لتقريرها، وتضمنتها أكمل تضمن؛ فاشتملت على التعريف بالمعبود تبارك وتعالى، وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة[٥].

- «تشتمل معانيها على جملة معاني القرآن من الحكم النظرية والأحكام العملية؛ فإن معاني القرآن إما علوم تقصد معرفتها، وإما أحكام يقصد منها العمل بها، فالعلوم كالتوحيد والصفات والنبوات والمواعظ والأمثال والحكم والقصص، والأحكام إما عمل الجوارح وهو العبادات والمعاملات، وإما عمل القلوب أي العقول وهو تهذيب الأخلاق وآداب الشريعة، وكلها تشتمل عليها معاني الفاتحة بدلالة المطابقة أو التضمن أو الالتزام ... فلا جرم يحصل من معاني الفاتحة – تصريحًا وتضمنًا – علم إجمالي بما حواه القرآن من الأغراض»[٦].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٣٣.

(٢) ينظر: مبحث المقاصد العامة للسورة ففيه بيان ذلك.

(٣) هذه من الأسماء الاجتهادية التي اشتهرت بين السلف للسورة. ينظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ١/١٩٠.

(٤) ينظر: نواهد الأبكار وشوارد الأفكار، (حاشية السيوطي على البيضاوي)، ١/٤٢.

(٥) ذكر هذه المطالب ابن القيم، ويكاد يكون كتابه (مدارج السالكين) تفصيلًا وشرحًا لما ذكره من هذه المعاني العامة. ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٣١.

(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٣٣.

ولعلّ من حِكَم فرض قراءة الفاتحة في كل ركعة من الصلاة التذكر لما انطوت عليه وأجملته هذه السورة من المعاني والمقاصد والأغراض التي جاء القرآن بتفصيلها[١].

(٢) **تقريرها لأصول الإيمان وأركانه:** قررت سورة الفاتحة أصول الإيمان وأركانه الستة: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وجاء هذا التقرير من وجوه عديدة بالرغم من وجازتها وقلة ألفاظها[٢].

(٣) **دلالتها على أعظم الأسماء الحسنى وأجمعها:** تضمنت سورة الفاتحة بما تحمله من هدايات «التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة أسماء مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها، وهي: الله، والرب، والرحمن، وبنيت السورة على الإلهية، والربوبية، والرحمة، فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مبني على الإلهية، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على الربوبية، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة، والحمد يتضمن الأمور الثلاثة، فهو المحمود في إلهيته، وربوبيته، ورحمته»[٣].

(٤) **تضمنها الرد على جميع المبطلين:** المتأمل في سورة الفاتحة وما تنطوي عليه من هدايات سيجد أنها تتضمن الرد على جميع المبطلين من أهل النحل والملل، ومن الفرق الضالة والمنحرفة، وعلى المقالات الفاسدة، والبدع الباطلة بأقرب الطرق وأصحها وأوضحها[٤]، وقد سبق تقرير هذا على وجه الإجمال والتفصيل[٥].

(٥) **أعظم سورة في الشفاء المعنوي والحسي:** من الأسماء التي سميت بها هذه السورة المباركة: الرقية والشافية والشفاء[٦]؛ ومع أنَّ القرآن كله شفاء إلا أنَّ هذه السورة تميزت عن غيرها، فقد ثبت في الحديث الصحيح الرقية بها من ذلك الصحابي لسيد

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٣٤.

(٢) للوقوف على تفاصيل ذلك ينظر: مبحث الهدايات الكلية في السورة ص ١٨٠.

(٣) مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٣١.

(٤) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٨١؛ وزاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم، ٤/٣١٩.

(٥) للوقوف على تفاصيل ذلك ينظر: مبحث الهدايات الكلية في السورة ص ١٩١.

(٦) هذه من الأسماء الاجتهادية التي اشتهرت بين السلف للسورة. ينظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ١/١٩٠؛ وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/١٠١.

ما أُنزل؛ فقد ذكر الله تعالى ﴿الحَمْد﴾، وهو أكمل أنواع العبادة، وهو أفضل الدعاء، وذكر اسمه ﴿الله﴾، وهو أعظم الأسماء وأشملها لمعاني الأسماء الأخرى، وذكر (ربوبيته للعالمين)، وهي أعظم أدلة قدرته وعلمه وكماله واستحقاقه للإفراد بالعبودية، وذكر (رحمته) وهي أقوى متعلَّق للعبد، وأكثر شيء يحتاجه ويضطر إليه، وذكر (ملكه ليوم الدين)، وهو أعظم الأيام، وملك ذلك اليوم من أكبر مظاهر ربوبيته الشاملة الكاملة، والعبادة والاستعانة في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أعظمُ حقوق الله، وأكبر حظوظ العبد، وقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أعظمُ الأدعية، وقال تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وهم أفضل الناس، وقال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، وهم أكثر الفرق ابتعادًا عن الدين الحق، وانحرافًا عنه، ومعاداة له[1].

(٧) **دلالتها على التوحيد الخالص من وجوه شتى:** أعظم مقاصد القرآن الكريم عبادة الله وحده وإخلاص التوحيد له سبحانه وتعالى، وقد تميزت سورة الفاتحة بتقرير هذه القضية تميزًا كبيرًا، والمتأمل في هدايات هذه السورة سيدرك تقريرها لهذا الغرض من وجوه عديدة، قال محمد صديق خان رَحِمَهُ اللَّهُ[2] عند تفسيره لسورة الفاتحة: «هذه فاتحة الكتاب العزيز التي يكررها كلُّ مصلٍّ في كلِّ صلاة، ويفتتح بها التالي لكتاب الله والمتعلم له، فإن فيها الإرشاد إلى إخلاص التوحيد في ثلاثين موضعًا: الأول: قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾؛ فإن علماء المعاني والبيان ذكروا أنه يقدر المتعلق متأخرًا ليفيد اختصاص البداية بسم الله تعالى لا باسم غيره، وفي هذا المعنى ما لا يخفى من إخلاص التوحيد ...»[3]، ثم واصل تقريره لإخلاص التوحيد إلى أن أتم ثلاثين موضعًا معتمدًا على هدايات هذه السورة ودلالاتها، وقد سبق أثناء الهدايات التفصيلية للآيات ذكر

---

(١) ينظر: تدبر سورة الفاتحة، د. ناصر العمر، ص٢٣.

(٢) أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن القنوجي، من رجال النهضة الإسلامية المجددين، ولد ونشأ في (قنوج) بالهند، له مصنفات كثيرة، منها: (أبجد العلوم)، و(نيل المرام من تفسير آيات الأحكام)، توفي – رحمه الله – سنة (١٣٠٧هـ). ينظر: الأعلام، الزركلي، ١٦٧/٦؛ ومعجم المؤلفين، كحالة، ٣٥٨/٣.

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، محمد صديق خان، ٥٦/١.

شيء من هذه الدلالات.

(٨) **بيانها الشافي لموقع الناس من هدى القرآن الكريم:** ففي قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ تقسيمٌ للناس إلى ثلاثة أقسام: منعمٍ عليهم، ومغضوبٍ عليهم، وضالين، وهذا الانقسام ضروري بحسب انقسامهم في معرفة الحق والعمل به إلى عالم به، عامل بموجبه، وهم أهل النعمة، وعالم به معاند له، وهم أهل الغضب، وجاهل به وهم الضالون[١].

وقد ذُكر في السورة السبب والجزاء للطوائف الثلاث بأوجز لفظ وأخصره؛ فإنَّ الإنعام على أصحاب الصراط المستقيم يتضمن إنعامه بالهداية التي هي العلم النافع والعمل الصالح، وهي الهدى ودين الحق، ويتضمن كمال الإنعام بحسن الثواب والجزاء، فهذا تمام النعمة، ولفظ ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ يتضمن الأمرين، وذكر غضبه على المغضوب عليهم يتضمن أيضًا أمرين: الجزاء بالغضب الذي موجبه غاية العذاب والهوان، والسبب الذي استحقوا به غضبه سبحانه؛ فإنه أرحم وأرأف من أن يغضب بلا جناية منهم ولا ضلال، فكأنَّ الغضب عليهم مستلزم لضلالهم، وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم، فإن من ضل استحق العقوبة التي هي موجب ضلاله وغضب الله عليه؛ فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أبين استلزام، واقتضاه أكمل اقتضاء، في غاية الإيجاز والبيان والفصاحة[٢].

(٩) **الدعاء الذي فيها أعظم دعاء وأكمله وأجمعه وأفضله وأنفعه:** ففيه طلب العون على مرضاة الله تعالى، والهداية إلى الصراط المستقيم، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه[٣]، وهذا أجلُّ مطلوب وأعظم مسؤول، فإن هذا الدعاء لم يدَعْ شيئا من خير الدنيا والآخرة إلا تضمنه، ولما كان بهذه المثابة فرضه الله تعالى على جميع عباده فرضًا متكررًا في اليوم والليلة لا يقوم

(١) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٩١، ٩٢.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ١/٣٦، ٣٧.

(٣) ينظر: المصدر السابق، ١/١٠٠.

غيره مقامه[1].

(١٠) **التأمين على دعائها**: الدعاء الذي جاء في الفاتحة والهداية إليه، والهدايات المأخوذة منه، كل هذا جدير بأن يُخصَّ بالتأمين؛ وقد شرع رسول الله ﷺ التأمين عقبها[2]، لا سيما في الصلاة، ومعناه: اللهم استجب، بل إنَّ الملائكة تتجاوب أيضًا لهذا الدعاء العظيم، وفي الحديث أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((إذا قال الإمام: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا: آمين، فإنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه))[3].

(١) ينظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ١٧/٢، ١٨.

(٢) ثبت ذلك بالأدلة الصحيحة، وللوقوف عليها ينظر المبحث الخاص بفضائل السورة.

(٣) سبق تخريجه ص ١٨.

المبحث الثالث:

أساليب السورة في عرض هداياتها

نزل القرآن الكريم باللسان العربي المبين، لكنه أعجز العرب بنظمه الباهر؛ فقد نُسج نظمه نسجًا بالغًا منتهى ما تسمح به اللغة العربية من الدقائق واللطائف لفظًا ومعنى، بما يفي بأقصى ما يُراد بلاغة إلى المرسل إليهم، وجاءت أساليب القرآن على هيئة أبدع مما كانوا يعهدون وأعجب[1].

وقد تضمنت هذه الأساليب الكثير من المعاني والدلالات والهدايات، وسيجد المتأمل لكتاب الله تعالى التعبير القرآني بأساليبه الرائعة محقّقًا لهدى القرآن على أكمل وجه وأبلغه، ومن الأساليب التي عُرضت بها هدايات سورة الفاتحة ما يأتي[2]:

(١) **التوكيد**[3]: من فوائد التوكيد تقرير المعنى وتقويته، وللتوكيد طرق كثيرة في اللغة العربية، وقد استعمل القرآن هذا الأسلوب كثيرًا لأهميته.

ومن الأمثلة على هذا الأسلوب في سورة الفاتحة التوكيد بذكر الخاص ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ بعد ذكر العام ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الذي يفيد أنَّ الله تعالى مالك كل شيء، ومن الهدايات التي يمكن أن تؤخذ من ذلك زيادة التنبيه والتأكيد على هذا الخاص[4].

ومن الأمثلة أيضًا توكيد الصراط في قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ بالبدل في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، ومن الهدايات المستفادة من هذا التوكيد الإشعار بأنّ الطريق المستقيم بيانه وتفسيره صراط المسلمين، ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٩٣/١.

(٢) يستفاد من هذه الأساليب – كما هو معلوم – في استنباط الهدايات القرآنية وعرضها، وسأتتبع أهم الأساليب التي وردت في سورة الفاتحة، وسأذكر بعد كل أسلوب نماذج من الهدايات المتعلقة بها، وربما يكون قد سلف ذكرها في الهدايات التفصيلية للآيات، لكن سيشار إليها هنا باختصار أو بذكرها كما هي إذا استدعى المقام.

(٣) من التعريفات التي عُرِّف بها أسلوب التوكيد ما ذكره أبو البقاء الكفوي رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «التأكيد: هو أن يكون اللفظ لتقرير المعنى الحاصل قبله وتقويته». الكليات، الكفوي، ص٢٦٧.

(٤) ينظر: الحجة للقراء السبعة، أبو علي الفارسي، ١٨/١؛ والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤٠/١.

بالاستقامة على أبلغ وجه وآكده[1]، وكأنه من البين الذي لا خفاء فيه أنَّ الطريق المستقيم هو طريق المسلمين[2]، وأنَّ طريق الذين أنعم الله عليهم – وهم المسلمون – هو العلَم في الاستقامة، والمشهود له بالاستواء، بحيث لا يذهب الوهم عند ذكر الطريق المستقيم إلا إليه[3].

(٢) **التكرار**: وهو أبلغ من التوكيد، وهو من محاسن الفصاحة، ومن فوائده التقرير، وقد قيل: الكلام إذا تكرر تقرر[4]، وهو من الأساليب التي استعملها القرآن كثيرًا في عرض الهدايات.

ومن الأمثلة على هذا الأسلوب في سورة الفاتحة تكرار الوصف بـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في أثناء السورة بعد المجيء به في البسملة، ومن الهدايات التي يمكن أن تؤخذ من هذا التكرار: التأكيدُ على رحمة الله تعالى ليتقرر ذلك في النفوس[5].

وكذلك التعظيم للموصوف، وهو الله تعالى؛ لأنَّ تكرار الوصف بـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مما يشعر بذلك[6]، ومنها أيضًا سبق رحمة الله غضبه؛ وذلك لتكرار هذين الوصفين المشعرين بالرحمة الواسعة والفضل العظيم، في هذه السورة المباركة[7].

ومن الأمثلة أيضًا تكرار الضمير ﴿إِيَّاكَ﴾ مع الفعل ﴿نَسۡتَعِينُ﴾، ومن الهدايات التي يمكن أن تؤخذ من هذا التكرار: التأكيد على أنه سبحانه المستعان به لا غير، وعلى إفراده وحده تعالى بالاستعانة[8].

وكذلك إبراز الاستلذاذ بالمناجاة والخطاب لملك الملوك سبحانه وتعالى؛ فتكرار ضمير الخطاب ﴿إِيَّاكَ﴾ مع الفعلين ﴿نَعۡبُدُ﴾ و﴿نَسۡتَعِينُ﴾، وعدم الاكتفاء بضمير واحد

(١) ينظر: الكشاف، الزمخشري، ١/١٥.
(٢) ينظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/٣٠.
(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/١٨.
(٤) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ٣/٢٢٤.
(٥) ينظر: تفسير السمعاني، أبو المظفر السمعاني، ١/٣٦.
(٦) ينظر: البحر المحيط، أبو حيان، ١/١٣٢.
(٧) ينظر: نظم الدرر، البقاعي، ١/٢٦.
(٨) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٩٨.

مشعرٌ بذلك الاستلذاذ[١].

(٣) **المقابلة:** وهي المواجهة بين معنيين أو أكثر لمناسبة بينهما، وقد تكون بين الألفاظ والمعاني أو المعاني دون الألفاظ[٢]، ومن فوائد المقابلة أنها تزيد المعنى وضوحًا في الفكرة، ورسوخًا في النفس[٣].

ومن الأمثلة على هذا الأسلوب في سورة الفاتحة: المقابلة بين الهداية والنعمة، والغضب والضلال، حيث ذكر المغضوب عليهم والضالين في مقابلة المهتدين المنعم عليهم، وهذا كثير في القرآن، يقرن بين الضلال والشقاء، وبين الهدى والفلاح؛ فالهدى والسعادة متلازمان، والضلال والشقاء متلازمان[٤].

ومن الهدايات التي يمكن أن تؤخذ من المقابلة في هذا الموضع الترغيب في سلوك سبيل المنعم عليهم والمؤمنين، والترهيب من سلوك طريق المغضوب عليهم والضالين[٥].

ومنها إثبات كمال صراط المهتدين الذين أنعم الله عليهم؛ لقوله تعالى بعد أن ذكر هذا الصراط ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، أي: غير صراط المغضوب عليهم، ولا صراط الضالين؛ لأنَّ الصفات السلبية يؤتى بها لثبات كمال ضدها[٦].

(٤) **الالتفات:** وهو العدول في الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر مخالف للأول[٧][٨]، والكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/١٧.

(٢) ينظر: أسلوب المقابلة في القرآن الكريم، د. كمال عبد العزيز إبراهيم، ص١٣٣؛ والمقابلة بين الأضداد في القرآن الكريم، د. عبد الرحمن الأهدل، ص٢٩.

(٣) ينظر: من بلاغة القرآن، د. أحمد بدوي، ص١٤٣.

(٤) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/٣٧.

(٥) ينظر: اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب، د. سليمان اللاحم، ص٣٣٩.

(٦) ينظر: المصدر السابق، ص٣٣٤.

(٧) ينظر: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، ٢/٧١.

(٨) الالتفات هو أحد الأساليب البلاغية التي يشيع استخدامها في لغة القرآن الكريم، وقد حصر بعض البلاغيين البلاغيين الالتفات في التحول من ضمير إلى ضمير، والصحيح أنَّ أي تحول من أسلوب إلى أسلوب في الكلام يُعد التفاتًا كما أشار إليه ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه (المثل السائر)، وكما هو واضح من التعريف الذي عرفه به يحيى بن حمزة العلوي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه (الطراز)، وبهذا المفهوم الواسع تظهر الكثير من قيم وأسرار هذا الأسلوب في التعبير القرآني البديع. ينظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، د. حسن طبل، ص٥٥.

السامع، وأكثر إيقاظًا له، وأولى من إجرائه على أسلوب واحد، وقد يختص كل موقع له بفائدة مناسبة لذلك الموضع[1].

ومن أمثلة هذا الأسلوب في سورة الفاتحة قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ فقد كان الكلام قبله على سبيل الغيبة، ثم انتقل إلى خطاب الله تعالى، ومن الهدايات المستفادة من هذا الانتقال أنَّ الله سبحانه وتعالى جدير بأن يخص بالعبادة والاستعانة، وألا تصرف إلا له؛ وبيان هذا أنه تعالى لما ذكر أحقيته بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات، فقيل: إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة، لا نعبد غيرك ولا نستعينه؛ ليكون الخطاب أدل على أنّ العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به[2].

ومنها أنَّ الثناء على الله تعالى سبب للقرب منه؛ لأنه لما أثنى العبد على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى؛ فلهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[3].

ومنها أنَّ الخطاب للحاضر والطلب منه والاستعانة به أقوى وأقرب إلى حصول المطلوب من خطاب الغائب[4]؛ فإنه لما أجرى الحامد تلك الصفات على اسم الذات صار كالحاضر المشاهد فصلح لأن يخاطب بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[5]، وفي هذا الخطاب من التلطف على بلوغ المقصود ما لا يكون في لفظ إياه[6].

ومن أمثلة الالتفات والهدايات المستنبطة منه في هذه السورة التصريحُ بالخطاب لما ذكر النعمة في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، ثم عدل عن ذلك الخطاب فقال:

---

(١) ينظر: الكشاف، الزمخشري، ١/١٤.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ١/١٤؛ وأنوار التنزيل، البيضاوي، ١/٢٩.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/١٣٥.

(٤) ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ابن جماعة، ص٨٦.

(٥) ينظر: نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس البسيلي، ٢/٦١.

(٦) ينظر: البحر المحيط، أبو حيان، ١/١٤١.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾؛ «لأنَّ الأول موضع التقرب من الله بذكر نعمه، فلما صار إلى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفًا عن ذكر الغاضب؛ فأسند النعمة إليه لفظًا، وزوى عنه لفظ الغضب تحننًا ولطفًا، فانظر إلى هذا الموضع، وتناسب هذه المعاني الشريفة ... وهذه السورة قد انتقل في أولها من الغيبة إلى الخطاب؛ لتعظيم شأن المخاطب، ثم انتقل في آخرها من الخطاب إلى الغيبة؛ لتلك العلة بعينها، وهي تعظيم شأن المخاطب أيضا؛ لأنَّ مخاطبة الربّ تبارك وتعالى بإسناد النعمة إليه تعظيم لخطابه، وكذلك ترك مخاطبته بإسناد الغضب إليه تعظيم لخطابه»[1].

(٥) **الترغيب والترهيب**: الترغيب هو كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة، وقبول الحق والثبات عليه، وعكسه الترهيب وهو كل ما يخيف المدعو ويحذره من عدم الاستجابة، أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله[2].

وقد سلك القرآن الكريم سبيلي الترغيب والترهيب لأنَّ ذلك يلائم طبيعة النفس البشرية التي تحتاج دائمًا إلى هاتين الوسيلتين المهمتين؛ ترغيبًا في الخير والحث عليه، وترهيبًا من الشر وما يترتب عليه[3].

ومن الأمثلة على هذا الأسلوب في سورة الفاتحة قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فيه دلالة على الترغيب، وقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فيه دلالة على الترهيب، ومن الهدايات المأخوذة من هذا الأسلوب هنا الإشارة إلى أن يكون المؤمن بين الخوف والرجاء، وبين الرغبة والرهبة.

ومن الأمثلة أيضًا قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، ومن الهدايات التي يمكن أن تؤخذ من هذه الآية ترغيب العباد في الأعمال الصالحة

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، ٢/٥.

(٢) ينظر: أصول الدعوة، د. عبد الكريم زيدان، ص٤٣٧.

(٣) ينظر: الترغيب والترهيب في السياق القرآني، (ضمن أبحاث مجلة القسم العربي بجامعة بنجاب – باكستان)، د. كفايت الله همداني، ص٩٧.

ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والترهيب من الأعمال السيئة حذرًا من أن يكونوا مع المغضوب عليهم والضالين.

(٦) **التقديم والتأخير**: هذا الأسلوب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية[١]، ومن فوائده وحكمه وأسراره الاهتمام بالمقدم، أو التعظيم، أو الاختصاص، أو غير ذلك[٢].

ومن الأمثلة على هذا الأسلوب في سورة الفاتحة تقديم المتعلق ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ على الفعل المقدر متأخرًا (أبدأ أو أقرأ أو أتلو)، ومن الهدايات المستفادة من هذا التقديم الاهتمام باسم الله تعالى، ومزيد تعظيم له[٣].

ويؤخذ من هذا التقديم أيضًا الردّ على المشركين الذين كانوا يبدؤون بأسماء آلهتهم كاللات والعزى؛ لأنَّ الله تعالى أرشد عباده إلى الافتتاح باسمه واختصاص ذلك به دون ما سواه[٤].

ومن الأمثلة أيضًا تقديم الضمير ﴿إِيَّاكَ﴾ على الفعل ﴿نَعْبُدُ﴾، ومن الهدايات المأخوذة من ذلك وجوب إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادات، واختصاصه بها، وإخلاص العبادة له، وتعظيمه تعالى، والأدب معه، والاهتمام باسمه، والعناية به[٥].

ويؤخذ من ذلك أيضًا حسن الأدب في الخطاب، لا سيما في مقام السؤال؛ لتقديم ذكر المعبود والمستعان به تعالى[٦].

(٧) **القصر**: القصر والحصر والاختصاص مصطلحات متقاربة، وتفيد إثبات الحكم للمذكور ونفيه عن غيره، وله طرق كثيرة[٧].

---

(١) ينظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ١٠٦/١.

(٢) وممن ذكر كثيرًا من فوائد هذا الأسلوب السيوطي. ينظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ٤٠/٣.

(٣) ينظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢٥/١.

(٤) ينظر: الكشاف، الزمخشري، ٣/١.

(٥) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٩٨/١.

(٦) ينظر: الفوائد اللائحة من معاني الفاتحة، ابن جماعة، ص٣٤.

(٧) أوصلها السيوطي إلى أربعة عشر طريقًا. ينظر الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ١٦٧/٣ – ١٧٣.

ومن طرق القصر التي وردت في الفاتحة تقديم المعمول في قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وقد سبقت الإشارة قريبًا إلى شيء من الهدايات التي تؤخذ من التقديم في هذين الموضعين، وأبرز تلك الهدايات إفراد الله تعالى بالعبادة واختصاصه بها.

ومنها تعريف الجزأين في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ﴿الْحَمْدُ﴾ معرف بالألف واللام، ولفظ الجلالة ﴿الله﴾ أعرف المعارف، ومن الهدايات المأخوذة من هذا الموضع اختصاص الحمد بالله تعالى وانحصاره؛ فالله سبحانه وتعالى مختص بالحمد من جميع الوجوه[1].

(٨) **براعة الاستهلال**: وهو أن يجعل المتكلم مبدأ كلامه حسن النظم، عذب اللفظ، صحيح المعنى، مع اشتماله على الإشارة إلى المقصود، والمثلُ الأعلى في ذلك هو القرآن الكريم[2].

ويمكن أن تؤخذ الهدايات من هذا الأسلوب في الفاتحة من جهتين:

الأولى: أنَّ الفاتحة هي مقدمة للقرآن كله، وهذا فيه براعة استهلال، ومن الهدايات التي يمكن أن تؤخذ من ذلك أنه ينبغي إيجاز المقدمة في الخطب ونحوها لئلا تمل نفوس السامعين بطول انتظار المقصود، وأنه ينبغي الإشارة إلى الغرض المقصود من الكلام في مقدمته؛ لأن ذلك يهيء السامعين لسماع تفصيل ما سيرد عليهم فيتأهبوا لتلقيه، وأنه ينبغي للخطباء ونحوهم أن يحيطوا بأغراض كلامهم، ويشيروا إلى المقصود منه في المقدمة، وأنه ينبغي أن تكون مقدمة الكلام في الخطب ونحوها من جوامع الكلم، وهذا كله موجود في الفاتحة التي هي مقدمة للقرآن؛ فقد جاءت على أروع ما يكون الكلام[3].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٦٠.

(٢) ينظر: البديع في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، ص١٧٧.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/١٥٣.

الثانية: من جهة ابتداء الفاتحة بالبسملة، ومن الهدايات التي يمكن أن تؤخذ من هذا الافتتاح أهمية البسملة وعظيم مقدارها؛ وذلك لاشتمالها على المعاني العظيمة التي تجعلها جديرة بأن تكون أول آية في كتاب الله، ففيها تعريف العباد بألوهية الله سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته، وفيها نسبةٌ للأمور كلها إليه سبحانه وتعالى، وأنه هو الإله وحده، المستحق للإفراد بالعبادة، وهذا كله إجمال لتفصيل الفاتحة، كما أنَّ الفاتحة إجمال لتفصيل القرآن كله؛ فهي أم القرآن، ولما كانت نسبة البسملة من الفاتحة نسبة الفاتحة من القرآن صدرت بها الفاتحة كما صدر القرآن بالفاتحة، وهذا براعة استهلال لكلام المولى الجليل سبحانه وتعالى[1].

قال أبو حيان رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «فإن كان أولها ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ – على قول من عدها منها – فناهيك بذلك حسنًا إذ كان مطلعها، مفتتحًا باسم الله، وإن كان أولها ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ فحمد الله والثناء عليه بما هو أهله، ووصفه بماله من الصفات العلية أحسن ما افتتح به الكلام، وقدم بين يدي النثر والنظام»[3].

(٩) **الاستعارة:** هي أحد أنواع علم البيان، ولها تعلق بالتشبيه، فـ«أصلُها تشبيهٌ حُذِفَ منه المشَبّه وأداةُ التشبه ووجه الشَّبه، ولم يبق منه إلاَّ ما يدلُّ على المشبّه به»[4].

والمقصود هنا هو استخدام هذا الأسلوب في سورة الفاتحة، ومن الأمثلة على ذلك: قوله تعالى: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فإنه مستعار للدين الحق، وهو دين الإسلام[5]، فقد شبه الدين الحق بالطريق المستقيم الذي ليس به أي انحراف، ومن الهدايات التي يمكن أن تؤخذ من هذه الاستعارة أنَّ دين الإسلام يستقيم بمن تمسك به حتى ينجيه، ويدخله

---

(١) ينظر: نظم الدرر، البقاعي، ٢٥/١.

(٢) أبو حيان محمد بن يوسف بن علي، الأندلسي، نحوي لغوي مفسر أديب، تفقه على مذهب الشافعية، من أشهر مؤلفاته: (تفسير البحر المحيط)، و(التذييل والتكميل في شرح التسهيل)، توفي – رحمه الله – سنة (٧٤٥هـ). ينظر: بغية الوعاة، السيوطي، ٢٨٠/١؛ وطبقات المفسرين، الداوودي، ٢٨٧/٢.

(٣) البحر المحيط، أبو حيان، ١٥٢/١.

(٤) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ٢٢٩/٢.

(٥) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ٦٦/١.

الجنة[1]، لأنَّ الصراط المستقيم يؤدي إلى الغرض المطلوب، وكذلك فإنَّ دين الإسلام يؤدي إلى رضاء الله تعالى والخلود في النعيم المقيم[2].

ومنها كمال حكمة الله تعالى وكمال رحمته؛ حيث جعل الصراط الموصل إليه – وهو دين الإسلام – صراطًا مستقيمًا لا متاهة فيه ولا ضلال، ومعلوم أنَّ الصراط المستقيم يوصل إلى المقصود بسرعة بخلاف الطريق المعوج الذي ينحرف بالإنسان يمينًا وشمالًا؛ فإنه – على تقدير إيصاله إلى المطلوب – يكون بعيدًا وشاقًّا بسبب التعرجات أو الطلوع أو النزول[3].

(١٠) **الحذف**: عدَّه بعض أهل اللغة من شجاعة العربية[4]، و«هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانًا إذا لم تُبن»[5].

وللحذف فوائد وحكم كثيرة يمكن أن تستنبط منها الهدايات القرآنية، كالتعظيم، والتشريف، والتخفيف، وغير ذلك[6].

ومن الأمثلة على هذا الأسلوب في سورة الفاتحة حذف الألف من قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾، ومن الهدايات التي يمكن أن تؤخذ من هذا الحذف أنَّ التخفيف والتيسير على العباد مطلوب في الشريعة المطهرة؛ وذلك لأنَّ كلمة ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ مذكورة في أكثر الأوقات عند أكثر الأفعال، فلأجل التخفيف حُذفت الألف، بخلاف سائر المواضع فإن ذكرها قليل فأثبتت فيها[7].

---

(١) ينظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٣٦٧/١.

(٢) ينظر: التفسير البسيط، الواحدي، ٥٣٠/١.

(٣) ينظر: أحكام من القرآن، ابن عثيمين، ٤٤/١، ٤٥.

(٤) ينظر: الخصائص، ابن جني، ٣٦٢/٢.

(٥) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ١٤٦/١.

(٦) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ١٩٠/٣ – ١٩٣.

(٧) بنظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٠٣/١.

ومنها حذف متعلق البسملة، ومن الهدايات التي يمكن أن تؤخذ من هذا الحذف أنَّ دلالة الحال والمشاهدة أبلغ من دلالة المقال؛ وذلك لأنَّ المتكلم بهذه الكلمة ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ كأنه يدعي الاستغناء بالمشاهدة عن النطق بالفعل؛ لأن المشاهدة والحال دالة على أن هذا وكل فعل فإنما هو باسمه تبارك وتعالى، والحوالة على شاهد الحال أبلغ من الحوالة على شاهد النطق[1]، وحينما يقول القائل: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثم يفتتح سورة يقرؤها، فالحال شاهدة على أن معنى كلامه: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ أقرأ، فأغنت هذه الحال عن التصريح بما هو محذوف في الكلام، والذي هو الفعل المتعلق به[2].

ومنها أنَّ البسملة صالحة ليبتدئ بها كل شارع في فعل أو قول؛ وذلك لأنَّ المتعلق بـ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ محذوف، وعندئذٍ فلا يخالف المبتدئ لأي فعل أو قول لفظ القرآن عند اقتباسه[3]، وبهذا كان الحذف للمتعلق أعم من الذكر، فيصح الابتداء بالتسمية في كل عمل وقول وحركة، وليس فعل أولى بها من فعل[4].

ومن الأمثلة على الحذف أيضًا حذف حرف الجر من معمول ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾ فتعدى بنفسه، ويؤخذ من هذا شمول طلب الهداية لهداية العلم والإرشاد، وهداية التوفيق والعمل[5].

ومن الأمثلة أيضًا حذف فاعل الغضب في قوله تعالى: ﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾، والفاعل هو الله تعالى، ويؤخذ من ذلك التأدب مع الله تعالى، فإنَّ من طُلبت منه الهداية، ونُسب الإنعام إليه لا يناسب نسبة الغضب إليه؛ لأنه مقام تلطف وترفق وتذلل لطلب الإحسان، فلا يناسب مواجهته بوصف الانتقام[6].

---

(١) ينظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ٢٥/١.

(٢) ينظر: جامع البيان، الطبري، ١١٤/١؛ والتفسير البسيط، الواحدي، ٤٣٨/١.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٤٧/١.

(٤) ينظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ٢٥/١.

(٥) ينظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ٢١/٢؛ وتفسير القرآن الكريم (الفاتحة – البقرة)، ابن عثيمين، ١٦/١.

(٦) ينظر: البحر المحيط، أبو حيان، ١٥١/١؛ وروح المعاني، الآلوسي، ٩٧/١.

ومما يؤخذ من هذا الحذف أيضًا إهانة المغضوب عليهم وتحقيرهم، وتصغير شأنهم؛ لذكرهم باسم المفعول[1]؛ فلم يُعطوا حق اسم الفاعل لأنهم مغضوب عليهم مهانون مطرودون مبغَضون[2].

(١١) **الإيضاح بعد الإبهام:** وهو من الأساليب البلاغية التي وردت في القرآن الكريم، حيث يرد الكلام أولًا بإيجاز واختصار لغرض بلاغي، ثم يتبعه البيان والتفصيل[3]، ومن فوائده البيان والتوكيد[4].

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، هذا مجمل، ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾، وهذا الإيضاح والبيان؛ ومن الهدايات التي يمكن أن تؤخذ من هذا الأسلوب مزيد التوكيد للصراط المستقيم، ومنها أيضًا دقة أسلوب القرآن وحسنه؛ لأنَّ النفس إذا جاء المجمل تترقب وتتشوف للتفصيل والبيان، فإذا جاء التفصيل ورد على نفس مستعدة لقبوله متشوفة إليه[5].

ومنها أنَّ المقصود من الطلب ابتداء هو كون المهدى إليه وسيلة للنجاة واضحة سمحة سهلة، وأما كونها سبيل الذين أنعم الله عليهم فأمر زائد لبيان فضله، ومنها تمكُّن معنى الصراط للمطلوب فضل تمكن في نفوس المؤمنين الذين لقنوا هذا الدعاء فيكون له من الفائدة مثل ما للتوكيد المعنوي، ومنها تقرير حقيقة هذا الصراط وتحقيق مفهومه في نفوسهم فيحصل مفهومه مرتين[6].

(١٢) **الاسمية والفعلية:** «الجملة القرآنية بناء قد أحكمت لبناته، ونسقت أدق تنسيق، لا تحس فيها بكلمة تضيق بمكانها، أو تنبو عن موضعها، أو لا تعيش مع

(١) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٣٦/١.
(٢) ينظر: أحكام من القرآن، ابن عثيمين، ٥٥/١.
(٣) ينظر: أسلوب التفصيل بعد الإجمال وأغراضه في القرآن الكريم، هاني خضر، ص١٣.
(٤) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ٢٣٧/٣.
(٥) ينظر: تفسير القرآن الكريم (الفاتحة – البقرة)، ابن عثيمين، ١٩/١.
(٦) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٩٢/١.

أخواتها، حتى صار من العسير بل من المستحيل، أن تغير في الجملة كلمة بكلمة، أو أن تستغني فيها عن لفظ، أو أن تزيد فيها شيئًا، وصار قصارى أمرك إذا أردت معارضة جملة في القرآن، أن ترجع بعد طول المطاف إليها»[١].

وللتعبير بإحدى الجملتين الاسمية أو الفعلية دلالاته الأسلوبية، فمن المعلوم أنَّ الفعل يدل على الحدوث والتجدد، والاسم يدل على الثبوت والاستقرار، وقد استعمل القرآن الكريم الجملة الاسمية والجملة الفعلية استعمالًا في غاية الدقة والجمال[٢].

ومن الأمثلة على هذا الأسلوب في سورة الفاتحة مجيء قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بالجملة الاسمية دون الفعلية كأحمد الله أو نحمد الله، ومن الهدايات التي يمكن أن تؤخذ من هذا التعبير الدلالة على الدوام والثبات[٣]، وعلى أنَّ ثبوت الحمد له تعالى لذاته لا لإثبات مثبت، وعلى أنَّ ذلك أمر دائم مستمر لا حادث متجدد[٤].

أما التعبير بجملة (أحمد الله)، أو (نحمد الله) فإنه مرتبط بزمن معين؛ لأنَّ الفعل له دلالة زمنية معينة، فالفعل المضارع يدل على الحال، أو الاستقبال، ومعنى ذلك أن الحمد لا يحدث في غير هذا الزمان الذي تحمده فيه، فيكون الحمد أقل مما ينبغي، فإن حمد الله لا ينبغي أن ينقطع ولا يحد بفاعل أو بزمان، في حين أن التعبير بالجملة الاسمية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مطلقة غير مقيدة بزمن معين، ولا بفاعل معين، فالحمد فيها مستمر غير منقطع[٥].

ومن الأمثلة أيضًا قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ عبر عن العبادة بالجملة الفعلية، ولم يقل العبادة لك، ومن الهدايات التي يمكن أن تؤخذ من هذا التعبير أنَّ عبادة العباد مبنية على تجددها وحدوثها منهم؛ فهي فعل من العباد يتحقق بعد وجودهم؛ ولذا جيء بالجملة

---

(١) من بلاغة القرآن، د. أحمد بدوي، ص٨٥.

(٢) ينظر: التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي، ص٢٢.

(٣) ينظر: الكشاف، الزمخشري، ٩/١؛ والتحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٥٧/١.

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١٣/١.

(٥) ينظر: لمسات في نصوص من التنزيل، د. فاضل السامرائي، ص١٤.

الفعلية الدالة على الحدوث، بخلاف الحمد في بداية السورة فقد جيء معه بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت؛ لأنَّ الحمد له سبحانه أمر ثابت قبل كل الخلق وإن لم يحمدوه[1].

ومن الأمثلة أيضًا قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم ﴾ حيث عبر عن المنعم عليهم بالفعل الماضي، ثم قال: ﴿ غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ فعبر عنهم بالصورة الاسمية، ومن الهدايات التي يمكن أن تؤخذ من هذا التعبير طلبُ الهداية إلى صراط من تحقق إنعام الله تعالى عليه، وهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون؛ وهذا الثبوت والتحقق مأخوذ من المجيء بالفعل ﴿أَنعَمتَ﴾ ماضيًا[2]، ولو قال: صراط الذين تنعم عليهم لأغفل كلَّ من مضى من رسل الله والصالحين؛ لأنَّ الفعل المضارع أكثر ما يدلّ على الحال، ولاحتمل أن يكون صراط الأولين غير صراط الآخرين، ولم يفد التواصل بين زمر المؤمنين من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة، بل إنَّ الإتيان بالفعل الماضي يدلُّ على أنه كلما مرّ الزمن كثر عدد الذين أنعم الله عليهم؛ لأنَّ الحاضر يلتحق بالماضي، وهكذا تتسع دائرة المنعَم عليهم بمرور الزمن، وأما قوله: ﴿ غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ بالاسم؛ فليشمل سائر الأزمنة، ولم يقل: (صراط المنعم عليهم) ليشمل سائر الأزمنة أيضًا؛ لأن كل تعبير في مكانه أمثل وأحسن، فلو قال: (المنعم عليهم) لم يبين المنعم الذي أنعم عليهم، والنعمة إنما تقدر بقدر المنعم[3].

(١٣) **الدعاء:** واحد الأدعية، ولهذا الأسلوب في اللغة العربية صور ودلالات، ودعاء الله تعالى يمكن أن يكون على ثلاثة أوجه: الأول: توحيد الله والثناء عليه كقول: ربنا لك الحمد، والحمد لله، وسمي ذلك دعاء لأنه بمنزلته في حصول ثواب الله وجزائه، الثاني: مسألة الله العفو والرحمة وما يقرب منها كقول: ربنا اغفر لنا وارحمنا، الثالث:

(١) ينظر: قطف الأزهار في كشف الأسرار، السيوطي، ١/١٣٦.

(٢) ينظر: روح المعاني، الآلوسي، ١/٩٧.

(٣) ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د. فاضل السامرائي ، ص٦٣ – ٦٥.

مسألة الحظ من الدنيا كقول: اللهم ارزقني مالًا وولدًا[1].

وقد جمعت الفاتحة هذه الأنواع بأجمع العبارات وأبلغها، بل إنَّ الفاتحة كلها دعاء؛ فهي سورة الدعاء وسورة المناجاة، فنصفها فيه مجمع الثناء، وهو من بداية السورة إلى قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾، ونصفها فيه مجمع الحاجات، وهو من قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ إلى آخر السورة[2]، وذكر الإعانة بعد العبادة في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ يدلُّ على أنَّ أنفع الدعاء طلب العون على عبادة الله تعالى ومرضاته[3].

ومن الهدايات التي يمكن أن تؤخذ من هذا الأسلوب أنه ينبغي التعرض لإحسان الله تعالى وثوابه؛ لأنَّ من أثنى على واحد فقد تعرض لإحسانه وثوابه[4]، ومنها أنَّ الحمد يتضمن الحب والثناء، والحب أعلى أنواع الطلب للمحبوب، فالحامد طالب لمحبوبه، فهو أحق أن يسمى داعيًا من السائل الطالب من ربه حاجة ما[5].

ومنها تعليم الله عباده كيفية سؤاله؛ حيث أمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم، توسل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء[6].

ومنها أنَّ أهمَّ الدعاء وأفضله، وأنفعه، وأعظمه، وأحكمه، دعاءُ الفاتحة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾؛ لأنه إذا هداه هذا الصراط أعانه على طاعته وترك معصيته، فلم يصبه شر لا في الدنيا ولا في الآخرة[7]، وهذا أجل مطلوب وأعظم مسؤول، فإنه لم يدَعْ شيئا

---

(١) ينظر: من أساليب القرآن، د. إبراهيم السامرائي، ١٢ – ١٤.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤٧/١.

(٣) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١٠٠/١.

(٤) ينظر: التفسير البسيط، الواحدي، ٤٦٦/١.

(٥) ينظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ٩/٣، ١٠.

(٦) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٤٧/١، ٤٨.

(٧) ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ٣٢٠/١٤.

من خير الدنيا والآخرة إلا تضمنه، ولما كان بهذه المثابة فرضه الله على جميع عباده فرضًا متكررًا في اليوم والليلة لا يقوم غيره مقامه[1].

(١٤) **الأساليب التربوية**: الأساليب السابقة معظمها أساليب لغوية وبلاغية، وهناك أساليب أخرى يحسُن أن يُشار إليها هنا، ومن أهمها الأساليب التربوية.

تضمنت سورة الفاتحة كثيرًا من الدلالات والهدايات التربوية، ولا عجب في ذلك فهي أمّ القرآن، ومن الأساليب التربوية التي يمكن أن تؤخذ منها الهدايات القرآنية: غرس معاني الثقة بالله عزّ وجل، واللجوء إليه، وتعظيمه في النفوس، فقول ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يتضمن اللجوء إلى الله تعالى، والأنس به، والفزع إليه، ومن مقتضيات الاستعانة بالله تعالى الثقة به، والاعتماد عليه، ولا ريب أنَّ النصف الأول من السورة الذي يتضمن الثناء على الله تعالى فيه من التعظيم لله تعالى ما لا يخفى.

ومنها التحبب إلى الناس، ويؤخذ من تحبب الله عزَّ وجلَّ إلى عباده بقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ لأنه عرفهم أنَّ ربوبيته ربوبية رحمة وإحسان ليتعلقوا به ويقبلوا على اكتساب مرضاته، منشرحة صدورهم، مطمئنة قلوبهم.

ومنها القدوة الحسنة، وقد ذكرت السورة خير قدوة على وجه الأرض، وهم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ومنها حسن الأدب، وفي إسناد النعمة إلى الله تعالى، وعدم إسناد الغضب إليه وإيراده باسم المفعول ما يدل على هذا.

ومنها تكريم الإنسان؛ لأنَّ الله تعالى أجرى على لفظ الجلالة نعت الربوبية للعالمين، ليكون كالاستدلال على استحقاقه تعالى للحمد وحده؛ إذ الأمر بغير توجيه فيه إيماء إلى إهمال عقولهم، أما إذا كان موجهًا ومعللًا فإنه يكون فيه إشعار لهم برعاية ناحية العقل فيهم؛ وفي تلك الرعاية تشريف وتكريم لهم[2].

---

(١) ينظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ١٨/٢.

(٢) ينظر: التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي، ١٩/١.

ومنها أسلوب الثواب والعقاب، ويشير إلى هذا الأسلوب الترغيب والترهيب الواردين في هذه السورة، وقد سبق بيانه في أسلوب مستقل، ويشير إليه أيضًا الوعد والوعيد الذي تضمنته السورة، وعد المؤمنين المهتدين بالإنعام عليهم، والوعيد بالغضب والضلال على من خالف منهج المهتدين.

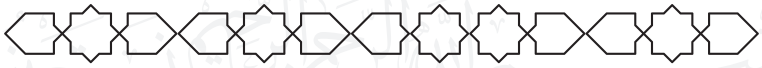

الباب الثاني

٢ دراسات تطبيقية في هدايات السورة ٢

ويتكون من ثلاثة فصول:

الفصل الثالث:

واقع الأمة في ضوء هدايات السورة، وأثر ذلك عليها.

- **المبحث الأول:** واقع الأمة من هدايات السورة.
- **المبحث الثاني:** سبل تحقيق هدايات السورة في واقع الأمة.
- **المبحث الثالث:** أثر تطبيق هدايات السورة على واقع الأمة.

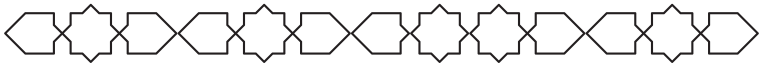

تمهيد

كتاب الله تعالى هو المعجزة الخالدة والآية المتجددة، والنهر الذي يتدفق بالعطاء والخيرات، ويجود بالعلوم والهدايات، وهو المنهج الذي يناسب كل عصر، ويواكب كل مرحلة، والخطاب الذي يلائم كل جيل، قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وهداية القرآن الكريم عامة موجهة لجميع الناس، وشاملة تستوعب جميع مناحي الحياة، ومما ينبغي على المفسر أن يتعايش مع هموم الأمة، ويتفاعل مع قضاياها في ضوء هدايات القرآن الصالح لكل زمان ومكان[(١)]؛ فالحاجةُ شديدةٌ إلى بيان هذه الهدايات على الوجه الذي يتفق مع الآيات الكريمة المنزلة في وصفه وما أنزل لأجله، من الإنذار والتبشير والهداية والإصلاح[(٢)].

ومن حِكم نزول القرآن منجّمًا معالجة الواقع وتقويمه، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «نزل مفرقًا منجمًا على الوقائع، بحسب ما يحتاج إليه العباد إليه في معادهم ومعاشهم»[(٣)].

ومن أمثلة ذلك إجابة القرآن عن التساؤلات التي يطرحها الناس على النبي ﷺ كالآيات التي ابتدأت بـ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أو ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ سواء كان السؤال صادرًا من المسلمين أو من غيرهم.

وقضية معالجة الواقع في كل زمن وعصر من خلال آيات القرآن الكريم هي امتثال لتلك الحكمة الجليلة، كما أنَّ القرآن الكريم كتاب الزمن الذي لم يكن محصورًا في وقت دون غيره[(٤)].

---

(١) ينظر: التجديد في تفسير القرآن، (ضمن أبحاث المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية)، د. أحمد الشرقاوي، ص٣٩٠.

(٢) ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ١٠/١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤٣٤/٢.

(٤) ينظر: تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، د. عبد العزيز الضامر، ص٣٨ - ٤٠.

وقد دلت الآيات الكريمات من القرآن على صلاحيته في كل زمان ومكان، وأنه الحاكم في كلِّ عصر ومصر، قال الله تعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، أي: من بلغه هذا القرآن على مر الأزمان إلى يوم القيامة؛ ولهذا يُلاحظ أنَّ القرآن الكريم لم تُذكر فيه كثير من الشخصيات المخاطبة فيه؛ وذلك لأنَّ هذه الشخصيات رموز تتعدد أشكالها وألوانها على مرِّ العصور والدهور[1].

وسورة الفاتحة هي أعظم سورة في القرآن، وقد استوعبت على إيجازها مقاصده وأصول معانيه، واختيرت من بين سور القرآن لترددها في كلِّ صلاة، ولا شك أنَّ سورة بهذه الأهمية وبهذا العرض اليومي سيكون فيها العلاج الناجع والحل الكامل لكل ما يعترض الأمة في واقعها.

وهذه السورة فيها العديد من الهدايات العظيمة جزئية وكلية، وهي كثيرة ومتنوعة، وسيكون التركيز في هذا الفصل بعون الله تعالى على أهم الهدايات البارزة والكلية التي أشارت إليها السورة، والمتعلقة بالقضايا الكبرى التي تمسّ واقع الأمة.

(١) ينظر: المصدر السابق، د. عبد العزيز الضامر، ص١٨، ١٩.

المبحث الأول:

واقع الأمة من هدايات السورة

إنَّ الأمة الإسلامية اليوم تعيش واقعًا يختلف عن واقع السلف مع كتاب ربهم؛ فقد كان واقعهم العلم والعمل، حيث كانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، فتعلموا العلم والعمل جميعًا[1]؛ ولذا سعدوا وعزُّوا، ولما ابتعدت الأمة عن هدي القرآن والعمل به كثرت مشاكلها، وتسلط عليها أعداؤها.

ويمكن إبراز أهم ما يتعلق بواقع الأمة – أفرادًا ومجتمعات – في ضوء الهدايات الكلية لسورة الفاتحة من خلال الجوانب الآتية:

أولًا: تحقيق العبودية الخالصة:

مقصود السورة الأعظم هو تحقيق العبودية الخالصة لله تعالى، ومن القضايا المهمة التي يمكن أن يوصف الواقع من خلالها، والتي ركزت عليها سورة الفاتحة تحقيقًا لهذا المقصد ما يأتي:

۞ **تعظيم الله تعالى:** تعظيم الله عزَّ وجلَّ من مقاصد القرآن الكريم الرئيسة، وقد ظهر هذا في سورة الفاتحة جليًّا، فالاستفتاح بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ ثم وصفه بـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فيه من التعظيم ما لا يخفى، كما أنَّ هذا التعظيم ظاهرٌ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ بالصيغة المفيدة للاستغراق، وكذلك في إجراء هذه الأوصاف على الاسم الجليل: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، والمتأمل في السورة ستظهر له الكثير من الهدايات والدلالات في هذا الشأن، الذي جاءت الشريعة المطهرة لأجل تحقيقه في الواقع[2].

---

(١) هذا الأثر أخرجه أحمد في مسنده عن أبي عبد الرحمن السلمي ونصه: عن أبي عبد الرحمن قال: «حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل». مسند أحمد، ٣٨/٤٦٦، رقم [٢٣٤٨٢]، وقال محقق المسند: إسناده حسن.

(٢) وقد سبق في الهدايات الجزئية للآيات الإشارة إلى شيء من تلك الدلالات.

والناظر في واقع الأمة يرى أنَّ التعظيم لله تعالى ولحرماته ولشعائره ليس كما عُهد في السلف الصالح، والمظاهر المنتشرة التي تدل على ضعف تعظيم الله تعالى في واقع الأمة كثيرة، منها قلة استشعار الرضا والاطمئنان والتسليم بما أعطى الله تعالى، ومنها كثرة المعاصي والمنكرات كالتكاسل عن الصلاة، والتعامل بالربا والغش والخداع في البيع والشراء، والحلف الكاذب وقول الزور، وربما أصبح هذا ظاهرة في بعض المجتمعات الإسلامية، ومن مظاهر ضعف تعظيم الله تعالى تعظيم المال والمادة حتى انجر إلى واقع المسلمين بعض الممارسات المأخوذة مما يُسمى بالرأسمالية.

والأدهى من ذلك ما قد يحصل من بعض الأفراد في المجتمع المسلم من التنقص للدين والملة، والتعرض لجناب الله تعالى أو رسوله ﷺ.

❁ **عبادة الله تعالى والاستعانة به:** في قول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ التأكيد على أنه سبحانه المعبود وحده، وعلى إفراده وحده سبحانه وتعالى بالاستعانة؛ وذلك لتقديم الضمير ﴿إِيَّاكَ﴾ على فعل العبادة ﴿نَعْبُدُ﴾، ثم المجيء به مقدَّمًا أيضًا مع فعل الاستعانة ﴿نَسْتَعِينُ﴾، والتوحيد الخالص يقتضي ألا يتوجه العبد بالعبادة بشتى أنواعها إلا إلى الله تعالى وحده، وألا يستعين بغير الله تعالى قط.

وهناك الصور الكثيرة المنافية للتوحيد الخالص في واقع الأمة، كالتوجه ببعض أنواع العبادة لغير الله خوفًا أو قصدًا ودعاء أو غير ذلك.

ومن الصور المنافية للتوحيد الخالص والتي أخذ زماننا وواقعنا حظًّا وافرًا منها التشريعُ والتقنين لبعض المسائل والقضايا – تحليلًا أو تحريمًا – بما يخالف شرع الله، ومن ثَمَّ الاستجابة والعمل بها من قبل الناس، وهذا إن كان بجهل فما أقبح الجهل بالدين، وإن كان بعلم منهم واستحلال فإنه يدخل تحت عبادة غير الله، ويؤكده ما ورد عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقرأ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال ﷺ: «أما إنهم لم يكونوا

يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه))[1]، فعبادة الله تعالى تقتضي إفراده وحده بالتحليل والتحريم لا أن يخضع الإنسان لإنسان مثله يُحلّ له ما شاء متى ما شاء، ويحرم عليه ما شاء كيف شاء.

إنَّ سورة الفاتحة تعطي درسًا عظيمًا في جانب إفراد الله وحده بالعبادة؛ فالله عزّ وجلّ هو الذي يجب أن يُعبد وحده لا شريك له، وإنَّ واجب العباد أن يعوا هذه الحقيقة جيدًا وأن يترجموها إلى عمل، ومن أسباب الشقاء الذي تعانيه الإنسانية اليوم هو اتخاذ الأهواء آلهة تعبد من دون الله، من جمع للمال، وحب للجاه، وغير ذلك مما يعتبره البعيدون عن الصراط المستقيم غاية المنى ونهاية المطاف[2].

ومن المظاهر السيئة في واقع الأمة الفصل بين العبادة وآثارها التربوية والاجتماعية؛ حيث تحولت العبادة عند كثيرين إلى مجرد عادة دون تحقُّق بالمضامين التربوية والاجتماعية للعبادات، ولا سيما القلبية منها[3].

أما ضعف الاعتماد على الله تعالى والاستعانة به فمن مظاهره في الواقع الالتفاتُ إلى الأسباب عند حصول النوازل قبل الالتفات إلى مسببها سبحانه، والاعتماد على الأسباب والركون إليها بالكلية ونسيان المسبِّب سبحانه ودعائه والاعتماد عليه، وقد ساعد على مثل هذه الظواهر ضعفُ الإيمان، وبعضُ الممارسات التربوية الخاطئة في واقعنا كتربية النشء على التعلق بالأسباب دون غرس المعاني الإيمانية في نفوسهم، والغزوُ الفكري والإغوائي من قبل أعداء الإسلام بإعطاء الأسباب المقام الأول في التأثير، والتشكيك فيما وراء ذلك.

❁ **الإخلاص:** في قول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تذكيرٌ بمقام الإخلاص، والإخلاصُ من أعمال القلوب؛ فقول العبد: ﴿إِيَّاكَ﴾ شهادة على النفس بالتوحيد الكامل، والتزام

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: تفسير القرآن، سورة التوبة، ٢٧٨/٥، رقم [٣٠٩٥]، والحديث حسنه الألباني. ينظر: صحيح سنن الترمذي، الألباني، ٢٤٧/٣.

(٢) ينظر: تأملات في سورة الفاتحة، د. حسن باجودة، ص١٠١.

(٣) ينظر: تدبر سورة الفاتحة، د. ناصر العمر، ص٥٢.

منها بالإخلاص التام، وكلُّ نقض لصفاء الإخلاص عبادةً واستعانةً إنما هو نقض لعهد الله، الذي يقطعه العبد شهادة على نفسه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1].

ومع كون الإخلاص عملًا قلبيًّا إلا أنَّ هناك مظاهر تدلُّ عليه، فاستواء العمل في حضور الناس وغيابهم، وعند الثناء وعدمه، كل هذا من دلائل الإخلاص، ومما بُليت به الأمة في واقعها حبُّ الظهور والتمدح والثناء من قبل كثيرين من أبناء الأمة إلا من رحم الله، ووجودُ التقنية المعاصرة لوسائل التواصل الاجتماعي يسَّر ذلك بشكل كبير، فمظاهر الرياء والسمعة وحب الشهرة - وكلها تعارض الإخلاص - منتشرة بشكل كبير في وسائل التواصل الاجتماعي؛ فقد يفعل بعض الناس شيئًا من الأعمال التي يُتقرب بها إلى الله ثم يذهب ينشرها في تلك الوسائل، فإن كان قصده أن تتزاحم التعليقات والإعجابات لتنوه وتشيد بفعله فهذا هو الأمر الخطير الذي يناقض الإخلاص، وإن لم يكن قصده كذلك فهل يأمن على نفسه من الرياء والسمعة بعد أن ينهال الثناء والتعليقات؟ وقد يكون القصد من النشر شيئًا حسنًا، لكنَّ هذا لا ينبغي فعله إلا إذا رأى المصلحة راجحة، وكان يأمن على نفسه من الوقوع فيما يضادّ الإخلاص، فقد كان دأب الصحابة ﷺ والسلف الصالح الإخلاص في العبادات، والعمل على إخفائها حذرًا من الوقوع في الرياء.

۞ **الإحسان:** في سورة الفاتحة إشارة إلى أن يستشعر العبد أثناء عبادته مراقبة الله تعالى كأنه يراه ويشاهده، وكأنه حاضر ماثل بين يديه، وأن يلاحظ العبد نفسه كأنه واقف لدى مولاه، ماثل بين يديه، وقد أشار إلى هذا المعنى الانتقال من الغيبة إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

واستشعار مراقبة الله تعالى بالإحسان غير مقصور على العبادة فقط، بل ينسحب ذلك على كل عمل يؤديه المسلم، وقد استشعر ذلك السلف الصالح فكانوا خير مثال في مقام الإحسان.

---

(١) ينظر: مجالس القرآن، د. فريد الأنصاري، ص١٣٨.

أما في واقعنا اليوم فقد قلَّ استشعار مراقبة الله تعالى، فالعبادات لا تكاد تؤدَّى بإحسانها الذي أُثر عن أسلافنا الصالحين، وفي معاملة الخلق كذلك، وفي مجال العمل قلَّ الإتقان لما يوكل إلى الكثير من الناس، والشواهد كثيرة، منها أنَّ الالتزام بالعمل ومواعيده ليس على الدرجة المطلوبة من الإتقان إلا قليلًا، ومنها ما يوجد في الصناعات من غش أو قلة جودة، فالغالب على المنتجات المحلية قلة جودتها وإتقانها وربما الغش فيها مقارنة بمنتجات بعض الدول المتقدمة، مع أنَّ أخلاقيات ديننا تدعونا إلى أن نكون أفضل منهم.

ومن الناس مَن يباشر عمله وهو خامل، ويُقبل عليه دون مبالاة بنتائجه، ويشغل نفسه بأشياء لا تصب في مصب العمل – كوسائل التواصل التي شغلت أوقات كثير من الناس – مما ينتج عن هذا تضييع ما يقتضيه العمل، وتضييع حقوق الآخرين، وهذا بلا شك مما يضاد الإحسان ويناقضه، بل هذا من الفساد الذي لا يرضاه الله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

ثانيًا: الإيمان باليوم الآخر:

في قول الله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ إثبات للمعاد والحساب والجزاء، وتنبيه للعباد إلى الإيمان بهذا اليوم العظيم؛ استعدادًا للعرض على الله تعالى في ذلك اليوم.

والفرق بين من يحاسب نفسه ويسعى للاستعداد لذلك اليوم وبين من نسيه أو تناساه وألهته الدنيا كالفرق بين العاقل الفطن وبين العاجز، فقد رُوي في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله))[1].

والذي يلاحظ حال كثير من الناس في واقعنا المعاش يرى الافتتان بالدنيا، والتكالب عليها، وحبها، والتعلق والاهتمام بها، والعمل لها، وكأنهم سيخلدون فيها ولن يحاسبوا على أعمالهم التي يجترحونها؛ فانتشرت ظاهرة السطو على حقوق الآخرين، وتهاون الكثير

(١) سبق تخريجه ص ١٠٩.

بما عليهم من مسؤوليات فلم يقوموا بها حق القيام، فضلًا عن الوقوع في المعاصي والمنكرات، ومن الأسباب الرئيسة لذلك ضعف الاستعداد لهذا اليوم العظيم، وضعف الخشية للملك الحق رب العالمين.

وقد كثرت الملهيات والمغريات في ظل التقدم التقني المعاصر، بل منها ما قرَّب المعصية وسهلها؛ فألهت كثيرًا من الناس عن المقصد الأساسي لوجودهم، وعن الدار الحقيقية التي هي المستقر، قال الله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

ومما انتشر ظهوره ما يعرف بالأمراض النفسية والمشكلات المعقدة، وما ينتج عنها من قلق واكتئاب وحياة بائسة، مما قد تؤدي بصاحبها إلى التسخط على قدر الله تعالى أو الانتحار.

ومما يُلاحظ أيضًا التعلُّق بالأشخاص والأشياء، والخوف غير الطبيعي مما سوى الله عز وجل، مع أنَّ المسلم يجب أن يكون أبعد الناس من هذا لأنه يعلم أنَّ الجميع سيقفون سواء أمام الله يوم الدين وسيحاسبهم الملك العدل سبحانه وتعالى.

ثالثًا: الدين والحياة:

الصراط المستقيم الذي تُطلب الهداية إليه في قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ هو دين الإسلام، الدين الكامل الشامل لجميع شؤون الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية وغيرها، بل شامل لجميع مصالح الدارين؛ فدين الإسلام عقيدةٌ وشريعة ومنهج حياة.

ومن أخطر ما ابتُليت به الأمة المسلمة في واقعها الدعوةُ إلى فصل الدين عن الحياة، وهو ما يُعرف أيضًا بفصل الدين عن الدولة، وهذا منهج غربي تسلل إلى بلدان المسلمين عن طريق الغزو الفكري، وغدا يسمى بالعلمانية؛ حيث يدعو إلى إبعاد الدين عن المجالات العامة، وتركه داخل المسجد وقلوب الناس اعتقادًا فقط، وقد وجدت هذه الدعوات من يروج لها في أوساط المسلمين، وكان لها الأثر السيء على كثيرين من أبناء الأمة.

ومن آثار ذلك أنَّه خُيِّل وزُيِّن لبعض الناس أنّ العبادة لها ممارسات معينة في أماكن وظروف معينة، ولا علاقة لها بجوانب الحياة المختلفة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية وغيرها، وأنَّ الدين هو الشعائر التعبدية فقط كالصلاة والزكاة والصيام والحج.

وللعلمانية مظاهر كثيرة تسربت إلى بلاد المسلمين في جوانب كثيرة من الحياة، ومن ذلك الحكم والتشريع، والتربية والثقافة، والاجتماع والأخلاق، وغيرها، وقد بلغت صورة الانحراف في تلك الجوانب مبلغًا كبيرًا.

ومن جانب آخر فإنَّ هذا الدين الحنيف له ثوابت [1] دلَّت عليها أدلة قطعية الثبوت والدلالة، كأركان الإسلام الخمسة، وثوابت العقيدة، والعبادات، والقيم والأخلاق الثابتة، والأسس والأحكام العامة للمعاملات والجهاد والعلاقات الدولية وغيرها[2].

وهذه الثوابت والمُحْكمات والأسس والمُسلَّمات لا تقبل المساومة فيها من عامة الأمة فضلًا عن علمائها ومفكريها، ولا يجوز التفريط والتهاون فيها بدعوى التحديث والتعامل مع المستجدات، ومن المؤسف أنَّ في واقع الأمة من يتبنى بعض الدعوات المستوردة من أعداء الإسلام حول تلك الثوابت، ومن ذلك دعوى أنَّ النص القرآني يحق لكل أحد أن يفسره ويفهمه بما يمليه عليه عقله وهواه دون أي ضابط في ذلك، ودعوى أنه لا فرق بين الإسلام وغيره من الأديان، والدعوة إلى تقارب الأديان، ومن ذلك دعوى أن إحلال النظم الوضعية مكان حكم الله تعالى جزئيًّا أو كليًّا أمرٌ سائغ ويقبل النظر والاجتهاد، إلى غير ذلك من الدعوات في مجالات شتى، كالشبهات التي تطرح حول قضية المرأة، أو الأحوال الشخصية، أو الشؤون الاقتصادية، ونحوها[3].

---

(١) يقابل الثوابتَ المتغيراتُ، وهي الأحكام الاجتهادية التي يمكن أن يعتريها التغيير والتبديل والتأويل تبعًا لاختلاف المجتهدين، ومن المعلوم أنَّ الحوادث والوقائع متجددة ومتغيرة، وقد يختلف الاجتهاد تبعًا للمصالح والمقاصد والظروف والأحوال. ينظر: الثوابت والمتغيرات في الشريعة الإسلامية، (ضمن أبحاث مؤتمر مكة المكرمة الثالث عشر – المجتمع المسلم، الثوابت والمتغيرات)، د. محمد طاهر حكيم، ١٢٩/٢.

(٢) ينظر: الثوابت والمتغيرات في الشريعة الإسلامية، (ضمن أبحاث مؤتمر مكة المكرمة الثالث عشر – المجتمع المسلم، الثوابت والمتغيرات)، د. محمد طاهر حكيم، ١٣١/٢، ١٣٢.

(٣) ينظر: مسؤولية علماء الأمة في مواجهة التحديات المعاصرة في ضوء القرآن الكريم، (ضمن أبحاث مؤتمر تداعيات انحسار المد الإسلامي – الأردن)، د. يحيى زمزمي، ص٩، ١٠.

رابعًا: الاتباع والاقتداء:

أشارت سورة الفاتحة إلى هذين الأصلين العظيمين؛ فقول الله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ يشير إلى وجوب اتباع الشريعة؛ لأنَّ الصراط المستقيم هو الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ[1]، وقول الله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ يشير إلى الاقتداء بالسلف الصالح، وأن يسلك المسلم من الطرق أحسنها وأصلحها وأقومها، وأن يختار لنفسه القدوة الحسنة، والأسوة الصالحة، بسلوك طريق المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين[2].

وكثيرة هي المظاهر الموجودة في واقع الأمة مما فيه مخالفة لما شرعه الله تعالى في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، فالبدع المنكرة، والمعاصي، واتباع الهوى – وما أكثر ذلك في الواقع – مخالفةٌ للاتباع الذي جاءت به الشريعة، قال الله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ [الأعراف: ٣]، وكلُّ جري وراء الهوى والشهوات التي يزينها الشيطان مخالفة للاتباع الذي جاءت به الشريعة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ ﴾ [النور: ٢١].

أما الاقتداء السيء الذي أصبح جزءًا من واقع الأمة فمن أبرز مظاهره استيراد المبادئ والقيم والنظم من أعداء الإسلام، وهو أمر سيء وخطير من كل وجه.

إنَّ المبادئ والقيم إما موافقةٌ لما جاء من عند الله فالمسلم يتلقاها من المصدر الرباني وحده، وإما مخالفة لما عند الله فيجب تركها والحذر منها، أما التنظيمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فهي أيضًا متصلة بالتشريع، والمستورد منها وإن كان فيه شيء من الصلاح إلا أنه اختلط بالفساد، وهي بجملتها تشريع بغير ما أنزل الله، قائم على قاعدة غير إسلامية، وهي تعبيد البشر بعضهم لبعض بالتشريع بدلًا من تعبيدهم لربهم وخالقهم، ومن ثَمَّ فقاعدته جاهلية وإن كان في بعض جزئياته يلتقي التقاء عارضًا

(١) ينظر: تفسير القرآن الكريم (الفاتحة – البقرة)، ابن عثيمين، ١/١٦.

(٢) ينظر: اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب، د. سليمان اللاحم، ص٣٣٦.

بشريعتنا الربانية كبعض الحقوق والضمانات، وهذه الأمور المتصلة بالتشريع يأخذها المسلم من التشريع الرباني، ولا يأخذها من مصدر سواه[1].

ومن هنا يتحدد الموقف الذي يجب على المسلمين أن يقفوه تجاه ما يسمى في مجموعه بالحضارة الغربية، فما يتصل بالتقدم العلمي، والتقدم المادي، والناحية التنظيمية، وروح الجلد والصبر على العمل، والروح العلمية في الدراسة والتنفيذ، فليأخذوه وليصرفوا جهدهم فيه، وما عدا ذلك فليتركوه وليحذروه.

لكن الذي حدث بالفعل غير ذلك، فأما الأشياء النافعة فقد اتجهوا إليها بجهد متقاعس متخاذل متعثر الخطوات، وأما الفساد فما أكثر المسارعة إليه![2].

إنَّ الانسياق وراء الحضارة الغربية بجملتها دون تمييز بين صحيحها وسقيمها يمكن أن يطلق عليه التقليد الأعمى[3]؛ ومن ذلك ما فُتن به بعض المسلمين في واقعهم – لا سيما الشباب – كالتقليد في لبس فلان، أو حلاقة فلان، أو حركة فلان، أو التقليد للّاعبين أو المطربين أو المغنين أو الممثلين، في أزيائهم الفاضحة، أو حركاتهم الماجنة، أو لبسهم الحِلق والذهب والسلاسل، أو تقليدهم في أعيادهم ومناسباتهم، أو اعتنائهم بالكلاب أو غير ذلك من السلبيات والشذوذ مما هو مذموم في شرعنا.

وهذا التقليد دليل الهزيمة النفسية، وذهاب الشخصية الإسلامية المتميزة، وتضييعٌ للهوية الإسلامية، بل إنه قد يورث نوع محبة ومودة في الباطن، وبذلك يقود إلى التأثر بالعقائد الباطلة والأفكار الهدامة.

خامسًا: الوسطية والاعتدال:

من هدي القرآن الذي أشارت إليه سورة الفاتحة منهج الوسطية، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، فهذه الآية وما بعدها صريحة في تحديد المنهج الوسط؛

(١) ينظر: واقعنا المعاصر، محمد قطب، ص٣٢٣ – ٣٢٦.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ص٣٢٦.

(٣) هو التقليد الذي لا يقوم على وعي ولا بصيرة ولا تمحيص في اتباع الكفار والتشبه بهم في الحياة والسلوك والأخلاق، أما التقليد على بصيرة مما فيه خير للمسلم كالأمور المفيدة والمثمرة من صناعة وإتقان وتنظيم فهذا لا حرج فيه؛ فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق الناس بها.

وذلك لأنه تعالى بيَّن أنَّ هذا الصراط هو صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأنه هو المنهج الوسط الخيار المعتدل، حيث قال واصفًا الصراط المستقيم: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾؛ فمنهج المغضوب عليهم يمثل التفريط، بينما يمثل منهج الضالين الإفراط، فالصراط المستقيم هو المنهج الوسط بين طريقين منحرفين، وكل طريق منحرف عن منهج الصراط المستقيم له حظ من أحد هذين السبيلين[١].

فالوسطية تعني استقامة المنهج والبعد عن الميل والانحراف، والأمة المهدية إلى هذا الصراط المستقيم هي الأمة الوسط بين الأمم التي سلكت الطرق الزائغة، والأمة الوسط متصفة بالخصال الحميدة، خيارًا وعدولًا مزكّين بالعلم والعمل، فالخصال الحميدة تدلّ على الوسطية لكون تلك الخصال أوساطًا للخصال الذميمة المكتنفة بها من طرق الإفراط والتفريط[٢].

والوسطية تعني العدل والخيار؛ وذلك لأن الزّيادة على المطلوب في الأمر إفراط، والنّقص عنه تفريط وتقصير، فالخيار هو الوسط بين طرفي الأمر أي: المتوسّط بينهما[٣].

والوسطية هي الشعار المميز لهذه الأمة التي هي آخر الأمم، وخير الأمم، قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلنَٰكُم أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

والمتأمل في الواقع الذي تعيشه الأمة اليوم عمومًا يرى البون الشاسع، والبعد الكبير عن منهج الوسطية، فيرى الإفراط والتفريط، والغلو والجفاء، والإسراف والتقتير، وانعكس هذا أيضًا على بعض من يتصدى للدعوة، فمنهم من غلا وأفرط في الغلو؛ فنشأت جماعات تكفير وهجرة، والبعض فرّط وجفا وأضاع معالم الدين وأصول العقيدة حرصًا على جمع الناس دون تربيتهم[٤].

---

(١) ينظر: تدبر سورة الفاتحة، د. ناصر العمر، ص١٦، ١٧.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/١٧٢.

(٣) ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٢/٤.

(٤) ينظر: تدبر سورة الفاتحة، د. ناصر العمر، ص١٥، ١٦.

ومن مظاهر ذلك الغلو والإفراط في عصرنا الحاضر القول بتكفير المجتمعات المسلمة المعاصرة، وموقف طائفة من هؤلاء الغلاة في المسلمين عدم الحكم بإسلامهم إلا بعد امتحانهم وتبين حالهم، ومن ذلك تشريع الاغتيالات للمسلمين أو معصومي الدماء كالمعاهدين ونحوهم والقيام بأعمال تخريبية، إلى غير ذلك من المبادئ التي تبتعد عن المنهج الوسط الذي جاءت به شريعة الإسلام(١).

وبهذا المنهج البعيد عن وسطية الإسلام يجلب هؤلاء للأمة الإسلامية شرورًا كثيرًا، ويشوهون سمعة الإسلام الجميلة المشرقة؛ لأنَّ الدعايات العالمية المغرضة المعادية للإسلام تريد أن تلصق هذا الانحراف الخطير بالإسلام، وتخطط لهذا وتعمل له(٢).

سادسًا: الوحدة والاجتماع:

الأخوة والوحدة هي شعار المسلمين الذي ربى عليه الرسول ﷺ أصحابه، وجعله منهجًا لهذه الأمة، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وسورة الفاتحة التي هي أم القرآن أشارت إلى هذه الروح الأخوية وهذه الوحدة بين المسلمين بالتعبير بضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا﴾، فالمسلم فرد من جماعة، يعبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين.

إنَّ الوحدة الإسلامية أول ما نشأت على يد الحبيب محمد ﷺ بعد التفرق الذي كان مخيّمًا على الناس في ذلك الوقت، وبعد العصبية الجاهلية التي كانت سائدة في ذلك الزمان، فآخى بين المسلمين، ونهى عن العنصرية والعصبيات الجاهلية، والتفاخر بالآباء والأجداد(٣)؛ فتكونت دولة الإسلام القوية المتحدة المتآخية المتآلفة، وحافظ عليها المسلمون من بعده، ومع مرور الزمن ضعفت هذه الوحدة، ثم تطور الحال بتأثير عوامل عديدة، وانتهى الأمر بعد عدة قرون إلى تجزؤ الدولة إلى دول، مع بقاء الشعوب في بداية

(١) ينظر: مؤسسات تعليم القرآن الكريم وأثرها في نشر الوسطية، (ضمن أبحاث ندوة أثر القرآن في تحقيق الوسطية ودفع الغلو)، د. أحمد بن موسى السهلي، ص٣٣٨.

(٢) ينظر: الوسطية في الإسلام، الميداني، ص١٩١.

(٣) ينظر: الوحدة الإسلامية، أبو زهرة، ص٨٩.

الأمر مجتمعة في أمة واحدة منسجمة رغم اختلاف الألسن والقوميات، ثم أخذت هذه الشعوب في القرون الأخيرة تتجزأ أيضا بعض التجزؤ، وجاء عهد الاستعمار في القرون الأخيرة ليكون عاملًا قويًّا في إكمال عملية التجزئة والفصل، فتكونت دول تفصلها حدود حاجزة، وتكونت لها عصبيات قومية أو إقليمية انعكست آثارها في نفوس الشعوب، وتجسدت في كيانات وطنية وقومية متنافسة تنافس القبائل قديمًا، بل متصارعة ومتعادية أحيانًا[1]، واختلفت النظم في هذه الدول القائمة في العالم الإسلامي على مستوى التربية والتعليم، وعلى مستوى التشريع والتقنين، وعلى مستوى الاقتصاد، وعلى مستوى السياسة، وغير ذلك مما دهى الأمة الإسلامية في العصر الحديث[2].

أضف إلى ذلك أنَّ الأفراد والمجتمعات فقدت شيئًا كبيرًا من التربية النبوية على التآخي والتآزر والتناصر، ونبذ العصبيات والعنصريَّات، والنصوصُ القرآنية والنبوية في ذلك أكثر من أن تحصى، والبعد عن هذه التربية وعدم تمثلها في الواقع زاد من حدة الفرقة والاختلاف المذموم والمشؤوم، وكان له الأثر الكبير على واقع الأمة جمعاء.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ[3] أثناء حديثه عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]: «المشكلة الثالثة: هي اختلاف القلوب الذي هو أعظم الأسباب في

---

(١) انقسام الدول الإسلامية ظاهرة قديمة، ولكن حكام الدول الإسلامية كانوا يشعرون كما يشعر المسلمون جميعًا يومئذ أنهم يقتسمون أرضًا واحدة ومجتمعًا واحدًا، وكان الفرد المسلم لا يشعر بالانفصال عن المسلمين الذين هم تحت حكم حاكم آخر؛ فالشعور بوحدة المسلمين أو المجتمع كان واضحًا وقويًّا، حتى إن الانتقال من دولة إلى دولة كان أمرًا عاديًّا وميسورًا، وكذلك تغيير محل الإقامة من دولة إلى دولة، وكان المسلم ينتقل إلى بلد آخر وإلى سلطة حاكم آخر دون أن ينتقص أي حق من حقوقه، فيمكن أن يتولى فيها أي ولاية من الولايات كالقضاء والوزارة وغيرها، كما حصل لابن خلدون وابن بطوطة وعدد كبير من العلماء الذين تولوا القضاء في الشام أو مصر أو المغرب أو غيرها، أما الانقسام الذي حصل في القرن الأخير ولاسيما في عهد الاستعمار وبعد الاستقلال فهو انقسام يختلف اختلافًا كبيرًا عما عهد من قبل، وما ذُكر في متن البحث إشارة يسيرة إلى سوء ذلك الانقسام. ينظر: الوحدة الإسلامية، (ضمن أبحاث مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة)، محمد المبارك، ص٤٣.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ص٤١ – ٤٤.

(٣) محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، مفسر مدرس من علماء شنقيط بموريتانيا، ولد وتعلم بها، درَّس في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، من أشهر مؤلفاته: تفسيره (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن)، و(دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)، توفي – رحمه الله – بمكة المكرمة سنة (١٣٩٣هـ). ينظر: الأعلام، الزركلي، ٦/٤٥؛ وعلماء ومفكرون عرفتهم، محمد المجذوب، ١/١٧١.

القضاء على كيان الأمة الإسلامية، لاستلزامه الفشل، وذهاب القوة والدولة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٦] ... **فترى المجتمع الإسلامي اليوم** في أقطار الدنيا يضمر بعضهم لبعض العداوة والبغضاء، وإن جامل بعضهم بعضًا فإنه لا يخفى على أحد أنها مجاملة، وأن ما تنطوي عليه الضمائر مخالف لذلك، وقد بين تعالى في سورة الحشر أن سبب هذا الداء الذي عمت به البلوى إنما هو ضعف العقل، قال تعالى: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾ [الحشر: ١٤]، ثم ذكر العلة لكون قلوبهم شتى بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤]، ولا شك أن داء ضعف العقل الذي يصيبه فيضعفه عن إدراك الحقائق، وتمييز الحق من الباطل، والنافع من الضار، والحسن من القبيح، لا دواء له إلا إنارته بنور الوحي؛ لأن نور الوحي يحيا به من كان ميتًا ويضيء الطريق للمتمسك به، فيريه الحق حقا والباطل باطلًا، والنافع نافعًا، والضار ضارًا، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]»[(١)].

سابعًا: الولاء والبراء:

من الهدايات الواضحة في سورة الفاتحة طلب الانتماء إلى الذين أنعم الله عليهم، ومحبتهم، والاهتداء بهديهم، والتبرؤ من المغضوب عليهم والضالين، وبغضهم، والابتعاد عن باطلهم، وهذا أصل من الأصول التي يُبنى عليها الولاء والبراء في الإسلام.

وفي واقع أمتنا اليوم خللٌ كبير في قاعدة الولاء والبراء الذي جاءت سورة الفاتحة مؤكدة عليه، وللولاء والبراء صور ومظاهر عديدة منها ما يوجب الردة والكفر كمن يحب الكفار لأجل كفرهم، ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمحرمات كتعظيمهم والثناء عليهم[(٢)].

ومن الصور والمظاهر المتعلقة بمفهوم الولاء والبراء، والموجودة في واقع الأمة الهزيمةُ النفسية والشعور بالضعف والذلة، وبالتالي السعي إلى طلب العزة والمنعة من العدو

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، ٥٣/٣.

(٢) ينظر: الولاء والبراء في الإسلام، د. محمد بن سعيد القحطاني، ص٢٣٠.

القوي، وقد ردّ الله تعالى على هؤلاء بقوله عزّ وجلّ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٩].

ومنها التشكك وضعف اليقين بمنهج هذا الدين، وعدم التسليم الكامل لحكم الله تعالى ورسوله ﷺ، والظن بأنّ ما عند أولئك الكفرة من العقائد والقيم والمفاهيم مقارب لما في ديننا أو يساويه، وبناء عليه يرى إمكانية الجمع بين المنهجين، والسير على الطريقين، وحال مثل هؤلاء يصوره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٢].

ومنها التخوّف من الخصم القوي مما يؤدي إلى المسارعة فيه، ومحاولة كسب رضاه، وقد ذكر الله سوء صنيع أمثال هؤلاء في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٢][1].

والواجب على الأمة الإسلامية - أفرادًا ومجتمعات - أن تعطي ولاءها الكامل لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، وأن تتبرأ من كل جهة غير تلك الجهة، وهذا هو الذي يحقق لها قوتها، وعزتها بدينها، ويقينها بمنهجه وثوابته، لكنَّ التصدّع والتمزق الذي تعيشه الأمة أدى إلى وجود تنازلات كثيرة وخطيرة في هذا الجانب، والله المستعان.

(١) ينظر: مسؤولية علماء الأمة في مواجهة التحديات المعاصرة في ضوء القرآن الكريم، (ضمن أبحاث مؤتمر تداعيات انحسار المد الإسلامي - الأردن)، د. يحيى زمزمي، ص١٠، ١١.

المبحث الثاني:

سبل تحقيق هدايات السورة في واقع الأمة

إنَّ تحقيق الهداية لا يمكن إلا بتوفيق الله تعالى، فمن ابتغى الهدى من عند غير الله أضله الله، ولكن هذا وإن كان بتوفيق من الله تعالى إلا أنه تعالى قد هيَّأ السبل، وبيَّن الوسائل لتحقيقها، وفي مقابل ذلك أوضح الموانع التي تمنع منها؛ فمن اتبع تلك السبل والوسائل تحققت له الهداية بأمر الله عزَّ وجلَّ[1].

وسورة الفاتحة حوت الكثير من الهدايات الجزئيَّة والكليَّة، ولأجل أن تتحقق تلك الهدايات في واقع الأمة لا بدَّ من اتباع السبل والوسائل التي تعين على ذلك، وهذه السبل متنوعة ومتعددة، ويمكن إبراز أهمها في الجوانب الآتية:

أولًا: الإيمان والتقوى:

لا يمكن أن يتحقق الاهتداء بالقرآن الكريم إلا بالإيمان الذي هو النور، ومن لم يكن عنده نور الإيمان لا يستفيد من هدي القرآن.

يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «لقد عشنا برهة من دهرنا، وإنَّ أحدنا يُؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها، وما ينبغي أن يوقف عنده فيها كما تعلَّمون أنتم القرآن»، ثم قال: «لقد رأيت رجالًا يؤتى أحدهم القرآن، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، ما يدري ما آمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه، ينثره نثر الدَّقل[2]»[3].

---

(١) ينظر: الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية، د. طه عابدين، د. ياسين قاري، د. فخر الدين الزبير، ٦٨٢/٢.

(٢) هو رديء التمر ويابسه، وما ليس له اسم خاص فتراه ليبسه ورداءته لا يجتمع ويكون منثورًا. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ١٢٧/٢.

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب: الإيمان، ٩١/١، رقم [١٠١]، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولا أعرف له علة ولم يخرجاه؛ وأخرجه البيهقي في سننه الكبرى، جماع أبواب صلاة الإمام وصفة الأئمة، ١٧٠/٣، رقم [٥٢٩٠]؛ والأثر قال فيه ابن منده: هذا إسناد صحيح. ينظر: الإيمان، ابن منده، ٣٦٩/١؛ وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. ينظر: مجمع الزوائد، الهيثمي، ١٦٥/١.

والمؤمن المهتدي بحاجة إلى الثبات على الهدى؛ حيث أرشده الله تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمده بالمعونة والثبات والتوفيق، بقوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[1]، وإذا حصل التوفيق والتثبيت للعبد فإنَّه أنفع الطرق والوسائل لتحقيق الاهتداء بهدايات أم القرآن خصوصًا وبهدايات القرآن كله عمومًا، وبالتالي سيحصل الخير في واقع الأمة.

أما التقوى فهي من آثار الإيمان الخالص، فكلما قوي الإيمان زادت التقوى من العبد لله تعالى، وكان مؤهلًا للانتفاع والاهتداء بكتاب الله جلَّ وعلا، قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢]: «وخصت الهداية للمتقين، كما قال: ﴿ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾ [فصلت: ٤٤]، ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴾ [الإسراء: ٨٢]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن؛ لأنه هو في نفسه هدى، ولكن لا يناله إلا الأبرار، كما قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧]»[2].

إنَّ الإيمان والتقوى سبيلٌ من سبل تحقيق هدايات سورة الفاتحة في واقع الأمة، وأصلٌ أصيل في هذا الباب؛ فلا فلاح ولا نجاح إلا بهما، وهما السبيل الأول للتخلص من جميع المشاكل والأمراض التي أصيبت بها الأمة، والتي وُصف شيء منها في ضوء هدايات هذه السورة في المبحث السابق.

ثانيًا: معرفة الله تعالى:

سعادة العبد التامة موقوفة على معرفة الله تعالى، وقد تضمنت الفاتحة التعريف بالله تعالى، ومن ذلك ذكر بعض أسمائه التي هي أصول الأسماء الحسنى، وهي اسم الله والرب

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/١٣٩.

(٢) المصدر السابق، ١/١٦٣.

والرحمن، فاسم الله متضمن لصفات الألوهية، واسم الرب متضمن الربوبية، واسم الرحمن متضمن لصفات الإحسان والجود والبر، ومعاني أسمائه تعالى تدور على هذا[1].

ومعرفة الله تعالى بأسمائه أحد السبل المهمة التي من خلالها تتحقق العبودية الخالصة لله تعالى؛ حيث تزيد المؤمن إيمانًا بالله، وحبًّا له، وتعلّقًا به، وحياء منه، وتعظيمًا له، وذلك كله يورث الخشية، واستشعار رقابة الله تعالى، والاستعداد ليوم الدين، «فكلما كان العبد بالله أعلم كان له أخوف»[2]، ومن ثَمَّ فإنَّه سيسارع إلى رضى مولاه العظيم، فيكون ذلك حاملًا على فعل الطاعات، واجتناب المنكرات.

إنَّ معرفة الله تعالى طريق إلى تعظيمه، ومن عظَّم الله تعالى عرف أحقيته بالعبادة والتذلل بين يديه والخضوع والانكسار له، ومن عظم الله تعالى عظم شرعه، وعظم دينه، وعظم رسله وعرف مكانتهم، ومن عظَّم الله تعالى أخلص له، وكان المحسنين؛ لأنه يستشعر رقابة الله رب العالمين.

ثالثًا: الاتباع والاقتداء[3]:

أشارت سورة الفاتحة إلى اتباع النهج القويم الذي جاء به الرسول ﷺ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، والصراط المستقيم يشمل دين الإسلام واتباع القرآن وما جاء به الرسول ﷺ، وهذا الصراط المستقيم هو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وحذرت السورة من اتباع صراط المغضوب عليهم الذين تركوا الحق عن علم وعمد كاليهود، والضالين الذين تركوا الحق عن جهل وسوء فهم كالنصارى.

---

(١) ينظر: الفوائد، ابن القيم، ص١٩.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم، ص٢٨٣.

(٣) هذا العنوان ذُكر في المبحث السابق كمدخل لوصف واقع الأمة من خلاله، وهنا ذُكر كوسيلة لتحقيق هدايات سورة الفاتحة في واقع الأمة.

واتباع الرسول ﷺ والشرع الذي جاء به هو سبيل الهداية، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور: ٥٤]، وهو ﷺ القدوة المثلى، والأسوة الحسنة، وصحابته الكرام ﷺ هم خير الأمة، ولا شك أنهم في مقدمة الذين أنعم الله عليهم.

والاجتهاد في اتباع صراط المنعم عليهم والاقتداء بهم هو أحد السبل التي تحقق الاهتداء بالقرآن، وفي مقدمته أم الكتاب التي أكدت على هذا الاتباع والاقتداء، واتباع صراط المغضوب عليهم والضالين والاقتداء بهم هو سبيل الغواية؛ لأنَّ القدوة الصالحة من أسباب الهداية، والقدوة السيئة من أسباب الضلال والغواية.

إنَّ اتباع دين الله القويم، الذي هو الصراط المستقيم، والاقتداء بالمنعم عليهم أهل الصراط المستقيم، كفيلٌ بأن يحقق في الأمة المنهج الوسط المعتدل البعيد عن الإفراط والتفريط؛ لأنَّ هذا المنهج هو الذي دعا إليه الدين القويم، وهو الذي سار عليه المنعم عليهم، وكفيلٌ بأن يحقق للأمة المتفرقة وحدتها وعزتها؛ لأنَّ نصوصَ الشرع الآمرة بالاتحاد والاعتصام والتآخي، والتي سار عليها المنعم عليهم من سلف هذه الأمة، أكثرُ من أن تحصى، سواء أكانت بالتصريح كقوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، أم بالإشارة والتلويح كالتعبير بضمير الجمع في سورة الفاتحة.

وكذلك فإنَّ اتباع الدين القويم، والاقتداء بالمنعم عليهم سبيل مهم لدحض الدعاوى حول ثوابت الدين ومحكماته، تلك الدعاوى التي استوردت من أعداء الإسلام، ونعق بها بعض أبناء جلدتنا والمقيمين بين ظهرانينا.

وإنَّ الاقتداء بأصحاب الغضب والضلال لا سيما اليهود والنصارى طريق إلى التطرف والغلو، وبعد عن الوسطية والسماحة واليسر، بل يُخشى على صاحبه من الانسلاخ من الدين إذا كان هذا الاقتداء عن موالاة ومحبة.

رابعًا: الدعاء:

من أهم أسباب تحقيق الهداية سؤالُ العبد ربه رب العالمين، والتضرع واللجوء إليه، والانكسار بين يديه، حتى يصل بأمره تعالى إلى تحقيق الهداية في حياته، ثم في حياة مجتمعه وواقعه، وقد بيَّن القرآن الكريم أنَّ طلب الهداية من الله تعالى من صفات عباده المؤمنين، وأوليائه المتقين، قال الله تعالى على لسانهم: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، وهذا الطلب في مفتتح سور القرآن الكريم الذي ضمن الله تعالى لمن طلبه خالصًا خاشعًا الاستجابة له وتحقيق الهداية في قلبه فقال تعالى في الحديث القدسي: ((هذا لعبدي ولعبدي ما سأل))[1][2].

وهذا الدعاء هو أفضل الدعاء وأهمه وأجمعه وأنفعه؛ لأنه إذا هداه هذا الصراط أعانه على طاعته وترك معصيته، فلم يصبه شر لا في الدنيا ولا في الآخرة[3]، وهذا هو عين الاهتداء والتحقق به.

ومن آداب الدعاء الإلحاح فيه[4]، والفاتحة تقرأ في كل ركعة، ويُؤمّن على دعائها، فهي بهذا الاعتبار من الإلحاح بالدعاء العظيم الذي فيها، وإذا صاحب هذا الإلحاح حضور القلب والإخلاص فإنه خير معين وخير وسيلة لتحقيق الهدى والهدايات في واقع المسلمين.

---

(١) سبق تخريجه ص ١٤.

(٢) ينظر: الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية، د. طه عابدين، د. ياسين قاري، د. فخر الدين الزبير، ٧٢٨/٢.

(٣) ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ٣٢٠/١٤.

(٤) مما يدل على استحباب الإلحاح في الدعاء حديث أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي)). أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الدعوات، باب: يستجاب للعبد ما لم يعجل، ٧٤/٨، رقم [٦٣٤٠]؛ ومسلم في صحيحه، كتاب: الذكر والدعاء، باب: بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل، ٢٠٩٥/٤، رقم [٢٧٣٥]، قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه للحديث: «وفي هذا الحديث أدب من آداب الدعاء وهو أنه يلازم الطلب، ولا ييأس من الإجابة؛ لما في ذلك من الانقياد والاستسلام وإظهار الافتقار». فتح الباري، ابن حجر، ١٤١/١١.

إنَّ استشعار الفرد من أفراد الأمة وهو يدعو في كل صلاة ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ أنه فرد من جماعة، وأنه يدعو لنفسه ولإخوانه المؤمنين إن كان صادرًا عن حضور قلب ويقين وإخلاص فإنه من السبل المهمة لتحقيق معنى الأخوة والوحدة في واقع الأمة المتفرقة.

خامسًا: التلاوة والتدبر:

إنَّ بداية الطريق إلى الاهتداء بالقرآن هو تلاوته وترتيله؛ فكلام الله تعالى له حلاوة في الألفاظ، ووقع في النفوس، حتى وإن لم تُفهم معانيه، ولابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (زاد المعاد في هدي خير العباد) كلام ماتعٌ حول هدي النبي ﷺ في تلاوة القرآن الكريم، وقد عقد لذلك فصلًا عنوانه: (فصل في هديه ﷺ في قراءة القرآن واستماعه وخشوعه وبكائه عند قراءته)[1].

والقرآن الكريم ليس كتابًا للتلاوة فحسب، بل هو هداية الخالق لإصلاح الخلق، وهو التشريع العام الخالد الذي تكفل بجميع ما يحتاج إليه البشر في أمور دينهم ودنياهم، في العقائد، وفي الأخلاق، وفي العبادات، وفي المعاملات: المدنية، والجنائية، وفي الاقتصاد، والسياسة، والسلم، والحرب، والمعاهدات، والعلاقات الدولية، وهو في كل ذلك حكيم كل الحكمة، لا يعتريه خلل ولا اختلاف، ولا تناقض ولا اضطراب، وصدق الله إذ يقول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء: ٨٢]؛ فالسعادة الحقة والشفاء لأمراض النفوس وأدواء المجتمع لا تنال إلا بالاهتداء بهديه، والتزام ما جاء به، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴾ [الإسراء: ٨٢][2].

(١) ينظر: زاد المعاد، ابن القيم، ٤٦٣/١.

(٢) ينظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، ص١٠، ١١.

وقد أرشد الله تعالى عباده إلى طلب هذه الهداية وهذا الاهتداء منه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، ثم بين أنَّ هذه الهداية إنما هي في كتابه الكريم، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]: «إنَّ هذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا ﷺ يرشد ويسدّد من اهتدى به ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ﴾ يقول: للسبيل التي هي أقوم من غيرها من السبل»[1].

وهذه الهداية لا سبيل لتحقيقها في واقع الأمة بمجرد التلاوة والقراءة، بل لا بد مع ذلك من التدبر والنظر، قال الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]، ثم الفهم والعمل، وهذا هو غاية إنزال القرآن الكريم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما التأمل في القرآن فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر ... فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما ...»[2].

وسورة الفاتحة جمعت مقاصد القرآن، وفيها أعظم الهدايات، وقد ارتبطت بأعظم الشعائر في الإسلام، وهي شعيرة الصلاة، وطُلب تكرار هذه السورة في كلِّ ركعة من الصلاة، ومعلومٌ أنَّ الصلاة روحها الخشوع، فمن أقبل على صلاته بقلب واعٍ خاشعٍ متدبر فإنَّ هذا بلا شك من أعظم السبل للوصول إلى هدايات هذه السورة العظيمة، ومن ثم التحقق بتلك الهدايات في الواقع؛ لأنَّ صلاة بهذه المنزلة ستدعو صاحبها لكل خير، وستنهاه عن كل سوء، قال الله تعالى: ﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

---

(١) جامع البيان، الطبري، ٣٩٢/١٧.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم، ٤٤٩/١.

ولهذا ينبغي إعادة النظر في طريقة قراءتنا للقرآن الكريم، وأن نجعل التدبر والتأمل في آياته في مقدمة أهدافنا، لا سيما سورة الفاتحة التي نقرؤها في كل صلاة، وقد حوت مقاصد القرآن الكبرى، وفيها العلاج الناجع لكثير من مشاكل الأمة التي أشير إليها في المبحث السابق.

سادسًا: تدارس القرآن[1]:

يقول الرسول ﷺ: ((... وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده))[2].

إنَّ تدارس القرآن الكريم له فوائد كبيرة، وتترتب عليه آثار وثمرات عديدة على الفرد والمجتمع، فهو خير معين لفهم كتاب الله تعالى، وهو أحد سبل تحقق الاهتداء بالكتاب العزيز، وهو طريق لتزكية النفس بفضائل الخير، وتحليتها بقيم الصلاح، وهدايتها سبل الرشاد، وهو سبيل لربط المجتمع المسلم بمصدر العزة والهداية (القرآن الكريم)[3].

والقرآن الكريم هو مجمع الهدى والنور، لا تنقضي هداياته، وكل آية منه فيها الدروس والعبر، وإيحاءاته وهداياته متجددة بتجدد التأمل وإمعان النظر، والجلوس لتدارس القرآن وتدبره وتأمله خير معين لفتح الآفاق في استنباط تلك العبر والإيحاءات والهدايات المتجددة، ومن ثَمَّ ربطها بحياة الناس وواقعهم.

إنَّ سورة الفاتحة التي يُكثر المسلم من ترددها أحقُّ سور القرآن بالتدارس الذي يقود إلى الفهم الصحيح والعميق لما فيها من هدايات كبرى تنتشل الأمة من واقعها المتردي، إن هي قامت بها حق القيام، وتمثلتها تمام التمثل.

---

(١) تدارس القرآن الكريم هو الاجتماع على تلاوته، بأن تحصل القراءة من المجتمعين، ثم العيش مع تلك الآيات المتلوة، والمشاركة في فهمها، وتفهم معانيها؛ للعمل بما جاء فيها. ينظر: تدارس القرآن الكريم أحكامه وضوابطه، (ضمن أبحاث مجلة معهد الإمام الشاطبي)، د. ناصر الصائغ، ص٢٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ، كتاب: الذكر والدعاء، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، ٤/٢٠٧٤، رقم [٢٦٩٩].

(٣) ينظر: تدارس القرآن الكريم أحكامه وضوابطه، (ضمن أبحاث مجلة معهد الإمام الشاطبي)، د. ناصر الصائغ، ص٦٦ - ٧٠.

سابعًا: الجمع بين العلم والعمل:

طريقةُ أهل الإيمان الذين أنعم الله عليهم مشتملةٌ على العلم بالحق والعمل به، وقد أشارت سورة الفاتحة إلى الإنكار على فئتين من الناس خالفت الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم، الطائفة الأولى لم تعمل بما علمت فخالفت الحق عن عمد وهوى فاستحقت بذلك غضب الله تعالى، وهم اليهود ومن كان على شاكلتهم، والطائفة الثانية عملت بدون علم فتاهت وضلت، وهم النصارى ومن كان على شاكلتهم[1].

وبهذا يُعلم أنَّ من أهم سبل التحقق بهدايات الكتاب الجمع بين العلم والعمل الذي هو طريقة أهل الإيمان، فالعمل بالعلم هو الثمرة والغاية، وعلى هذا سار السلف الصالحون، وقد كان أصحاب النبي ﷺ يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل[2]، وبهذا تحقق الاهتداء بالقرآن في واقعهم، وصاروا مناراتٍ يُهتدى بها.

واتباع القرآن الكريم والعمل به هو التلاوة الحقيقية له، وإقامة حروفه بتلاوتها وسيلة إلى ذلك، وتلاوة المتابعة والعمل هي التلاوة التي أثنى الله على أهلها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١]، والمعنى يتبعون كتاب الله حق اتباعه؛ فحقيقة التلاوة في مثل هذه المواضع هي التلاوة المطلقة التامة، وهي تلاوة اللفظ والمعنى، فتلاوة اللفظ وسيلة وطريقة، والمقصود التلاوة الحقيقية، وهي تلاوة المعنى واتباعه، تصديقًا بخبره، وائتمارًا بأمره، وانتهاء بنهيه، وائتمامًا به، حيث ما قادك انقدت معه، وتلاوة المعنى أشرف من مجرد تلاوة اللفظ، وأهلها هم أهل القرآن الذين لهم الثناء في الدنيا والآخرة؛ فإنهم أهل تلاوة ومتابعة حقًّا[3].

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/١٤١.

(٢) سبق تخريج هذا الأثر ص ٢٣٦.

(٣) ينظر: مفتاح دار السعادة، ابن القيم، ١/٤٢.

إنَّ تدارس القرآن الكريم وتلاوته وتدبره – لا سيما سورة الفاتحة التي يلازمها المسلم يوميًّا – أمور مهمة تجاه كتاب ربنا عزَّ وجلَّ، ومما يورث العلم النافع، لكن هذا يحتاج إلى عمل يترجم في الواقع؛ حتى يكون له الأثر الملموس في الاهتداء بهدى الكتاب الكريم.

كان ما مضى إيجازًا لأهم السبل التي من شأنها أن تحقق في واقع الأمة هدايات السورة، أما الموانع التي تمنع التحقق بتلك الهدايات فهي كثيرة، ويمكن أن يقال إنها تتلخص في ضد السبل التي ذُكرت آنفًا، فالكفر بالله والبعد عن تقواه وتعظيمه، وعدم الاقتداء والاتباع لرسول الله ﷺ وشريعته الغراء، وعدم الالتجاء إلى الله بالمناجاة والذلة والانكسار بين يديه، وهجر القرآن قراءة وتدبرًا ومدارسة وعملًا كلُّ ذلك من الأسباب التي تمنع من تحقق الاهتداء بالقرآن الكريم في واقع الأمة[1].

(١) للاستزادة حول هذه الموانع يراجع الدراسة التأصيلية للهدايات القرآنية فهناك بحث كامل حولها للدكتور ياسين قاري، ٢/٧٥٥ – ٨٤١.

المبحث الثالث:

أثر تطبيق هدايات السورة على واقع الأمة

إنَّ سلف هذه الأمة من الصحابة الكرام ﷺ، والتابعين لهم بإحسان قد تحققت فيهم الهدايات القرآنية لأنهم سلكوا مسالكها، واتبعوا سبلها، واجتنبوا موانعها، فأثَّر ذلك في واقعهم، فانتقلوا في فترة وجيزة من الزمن من أمة أمية، تابعة لغيرها، مغلوبة على أمرها، تعيش في شتات وتفرق، وتباعد وتمزق إلى أمة متقدمة في شتى المجالات، ففتحت البلدان، وصار لها شأن بين الأمم، بل قادة لها، منارة للعلم، منبعًا للحضارة[1].

والمتأمل في واقعنا اليوم لا يجد ذلك العزّ والتمكين الذي كان لأولئك السلف الصالحين، والسبب في ذلك هو البعد عن طريقهم الذي سلكوه، وعدم التحقق بما تحققوا به.

إنَّ القرآن الكريم أنزله الله تعالى منهجًا للعباد إلى قيام الساعة يحكمون به حياتهم، ويضبطون به تصرفاتهم، ويحتكمون إليه في معاملاتهم، ويطبقونه واقعًا عمليًّا في جميع شؤونهم، ومع ذلك كثيرًا ما نقرأ القرآن الكريم ونغفل عن ربطه بواقع حياتنا، وننسى تطبيقه على أحوالنا[2].

وكثير من الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحت القرآن الكريم، وتضمنه له، وهذا مما يحول بين القلب وبين فهم القرآن الكريم[3].

وسورة الفاتحة تزخر بالهدايات العظيمة جزئية وكلية، وقد تمت الإشارة في مبحث سابق إلى واقع الأمة من أبرز هدايات هذه السورة المباركة، وهنا سيكون الحديث عن آثار تطبيق هذه الهدايات على واقع الأمة، ويمكن إيراد أهم تلك الآثار من خلال الجوانب الآتية:

---

(١) ينظر: الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية، د. طه عابدين، د. ياسين قاري، د. فخر الدين الزبير، ٨٤٣/٢.

(٢) ينظر: تنزيل الآيات على الواقع عند ابن القيم، (ضمن أبحاث مجلة البحوث والدراسات القرآنية الصادرة عن مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف)، د. يحيى زمزمي، ص٢٢.

(٣) ينظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٣٥١/١.

أولًا: تحقيق العبودية الخالصة لله تعالى:

إنَّ تحقيق العبودية الخالصة لله تعالى هو أساس عزِّ الأمة ورفعتها، وبقدر التقصير في هذه العبودية، والاتجاه إلى عبودية الشهوات والأهواء بقدر ما يصيب الأمة من الذلّ والضعف والوهن.

ومن القضايا التي ركزت عليها سورة الفاتحة تحقيقًا لهذه العبودية الخالصة:

۞ **تعظيم الله تعالى:** أرشد المولى سبحانه وتعالى في مقدمة سورة الفاتحة إلى حمده، وحمدُ العبد لمولاه اعترافٌ له بما هو أهله، وتعظيم له، والثناء عليه تعالى بذكر الأوصاف الجليلة في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ تعظيمٌ له، واختصاصه بالعبادة والاستعانة في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تعظيمٌ له.

إنَّ تعظيم الله تعالى ومعرفته حق معرفته تجعل العبد يحسّ بأن كل شيء في هذا الكون محل عناية الله تعالى، وعند تحقق هذا الإحساس في نفس العبد يشعر بأنه كذلك محل هذه العناية، وإذا غاب ذلك عنه أصبحت نفسه منفذًا للتقصير في الواجبات، ومرتعًا خصبًا لغياب الشعور بالمسؤولية؛ فيؤدي ذلك إلى حدوث الاستهتار.

والأمة الإسلامية إذا أرادت السعادة والعزَّ والاستقرار لا بدَّ أن تقوم على هذا المنهج الذي أرسته سورة الفاتحة، وهو تعظيم الله تعالى بحمده واستشعار ربوبيته؛ فالحمد والربوبية مبدآن يغطيان كل جوانب الحياة الإسلامية والمجتمع المسلم؛ فلا ينبغي أن يكون في الأمة الإسلامية كبر؛ لأنَّ المسلم يشعر أنَّ الله تعالى أكبر من الجميع؛ فكيف يتكبر من كان عبدًا لغيره؟

والاعتراف لله عزَّ وجلَّ بالربوبية هو القاعدة الفكرية للاقتصاد الإسلامي، خلافًا للنظم الاقتصاديَّة الوضعية؛ فالربوبية في المجتمع الرأسمالي لرأس المال؛ فكان أن طغت المادة وسيطر رأس المال؛ فأصبح الناس عبيدًا للمادة والمال، والربوبية في المجتمع الاشتراكي لفئة من الناس لم تحسن استخدام المال، أما في الاقتصاد الإسلامي فإنَّ الربوبية تكون لله وحده، ويكون تصريف المال فيه عبادة من العبادات، وطاعة من الطاعات، وهذا لا يوجد في أي نظام آخر[1].

(١) ينظر: رياض القرآن، د. سمير استيتيه، ١/٣٥، ٣٦.

۞ **عبادة الله تعالى والاستعانة به:** أكدت سورة الفاتحة على إفراد الله سبحانه وتعالى وحده بالعبادة والاستعانة وذلك في قول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وأفادت هذه الآية تحقيق العبودية الخالصة لله سبحانه وتعالى.

وقد وسع الإسلام دائرة العبادة فلم يقصر مفهومها على الأعمال التعبدية الخالصة كالصلاة والصيام، بل إنَّ الأفعال الاعتيادية والمباحة – كالعمل الذي يسترزق منه العبد، والأكل، والشرب، والنوم، وبشاشة الوجه، وإماطة الأذى عن طريق الناس، ونحوها – يمكن أن تتحول إلى عبادات يؤجر عليها صاحبها وذلك بحسن القصد فيها، وبأدائها وفق شرع الله، فعلى الفرد أن يجتهد في أداء أعماله كلها ليُثاب عليها، وأن يؤديها بإخلاص وإتقان وفق شرع الله، وبجهود الأفراد تنهض الأمة وتتقدم.

بل تتسع دائرة العبادة لتشمل أعمالًا يستمر أجرها لصاحبها بعد موته، كالعلم النافع، والتنشئة الصالحة للأولاد، والصدقة الجارية، وهذا له الأثر العظيم في رفع همة الأفراد، وصلاح المجتمع، وسعادة الأمة.

ومن العبادات التي لها الأثر الكبير في صلاح الفرد والمجتمع الكف عما حرم الله تعالى، فكما أنَّ فعل الطاعات عبادة يؤجر العبد عليها فإن كفه عن المحرمات قاصدًا بذلك الامتثال للشرع عبادةٌ أيضًا ينال بها الأجر الكبير، وهذا يدخل تحت قوله ﷺ: ((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى))[1].

ومنها أيضًا الحكم بما أنزل الله، والتحاكم إلى شرع الله، أما اتخاذ التشريعات والقوانين التي فيها مخالفة لحكم الله وشرعه[2] فهذا يدخل تحت عبادة غير الله تعالى إذا كان عن علم ورضًا بها، وقد ذكر النبي ﷺ في قول الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب ﷺ، كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ١/٦، رقم [١].

(٢) وفيما يتعلق بتقنين الأحكام بما يوافق الشريعة فيه خلاف بين العلماء المعاصرين، وقد أجازه جمع منهم، وللتوسع في المسألة ينظر كتاب (محاولات تقنين أحكام الفقه الإسلامي) تأليف: د. محمد جبر الألفي.

﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] أنَّ اتخاذهم أربابًا إنما هو باستحلالهم ما أحلوه لهم، وتحريمهم ما حرموه عليهم مما لا يوافق شرع الله[١].

ومن الآثار التي يحققها إفراد الله عز وجل بالعبادة في حياة الفرد المسلم وواقعه أنه يتحرر من عبودية غير الله تحررًا مطلقًا؛ فالإسلام وصل العابد بالمعبود مباشرة دون وساطة، وهذا من شأنه أن يُشعر العابد الصادق بأنه لا ينبغي أن يكون عبدًا لغيره بأي شكل من أشكال العبودية؛ ولذلك لم يكن غريبًا أن ينشأ من ضعاف الناس قادة يفتحون الدنيا، وهم لا يملكون من القوة المادية معشار ما يملكه غيرهم.

وللعبادة أثر ملموس في راحة النفس، والتخفيف مما يثقلها من الأعباء؛ لأنها اتصال بخالق الأرض والسماء وبمن بيده الأمور وتصاريفها، كما أنَّ للعبادة أثرًا في تربية الهمم في النفوس؛ ففي العبادات يبذل العبد من راحته أو ماله أو جسده وجهده، وهذا يخلق الهمة في نفس من يؤديها بنفس راضية[٢].

ومن آثار العبادة أنها تربط القلب بالله، وهذا هو مفرق الطريق بين المنهج التربوي الإسلامي، وبين غيره من المناهج التربوية البشرية البعيدة عن شرع الله.

والعبادة تربي الإنسان على القوة وعلى مقاومة الضعف البشري؛ فالعبادة تعطي الإنسان قوة الضبط والاعتدال في مواجهة ما يجول بداخله من الأهواء والشهوات.

والعبادة تزكي النفس البشرية وتطهرها وتشذبها، وما لم يحصل ذلك فإن الهدف من العبادة لم يتحقق، فإذا زكت النفس وسمت وتطهرت فاضت بالخير والبذل والتضحية على من حولها، وهذا هو الأثر الاجتماعي للعبادة على الأمة[٣].

أما الاستعانة بالله تعالى وحده فإنها تمكن الإنسان من أداء أعماله، وتعطيه ثقة بنفسه وهو يؤديها؛ لأنه يعلم أن الله لا يرده وهو يستعين به، كما أن الاستعانة باب

---

(١) سبق ذكره بنصه وتخريجه ص ٢٣٨.

(٢) ينظر: رياض القرآن، د. سمير استيتيه، ٥٢/١.

(٣) ينظر: تدبر سورة الفاتحة، د. ناصر العمر، ص٥١، ٥٢.

عظيم من أبواب الصبر، الذي يؤدي إلى ضبط ردود الأفعال تجاه المؤثرات الخارجية في الحياة[1].

ومن آثار إفراد الله جلَّ وعلا بالاستعانة في واقع الفرد والمجتمع أنها تجنب مظاهر الإحباط والفشل، وهذا واضح من قوله ﷺ: ((استعن بالله ولا تعجز))[2]، وهكذا تربى السلف الصالح؛ ولذلك آتاهم الله العلم ونور المعرفة، ولن يصلح واقع الأمة إلا بتلك القيم التي صلح بها أسلافنا الصالحون.

والذي يستشعر إفراد الله تعالى بالاستعانة يكون من أشدّ الناس إحساسًا بضرورة مساعدة الناس ونجدتهم؛ فيغيث الملهوف، ويعين الضعيف والمحتاج؛ لأنَّ الاستعانة بالله تعالى تذكره بضعفه وحاجته إلى معونة الله تعالى، وهذا الشعور يدفعه إلى أن يعين غيره، ومعنى هذا أنَّ الاستعانة بالله تعالى تؤدي إلى الإحساس بالتعاون والتضامن الاجتماعي والتواد والتواصل، وهذا له الأثر الكبير في صلاح الأمة وسعادتها[3].

ومن آثار إفراد الله جلَّ وعلا بالاستعانة أيضًا حصول الطمأنينة والثقة بالله تعالى، فإن العبد المستعين بربه يعتقد أنَّ الأسباب التي يبذلها لتحصيل الأشياء في حياته ليست كل شيء، ولا تستقلّ بتحقيق مطلوبه، فلا حول ولا قوة إلا بالله، ولا يكون شيء إلا بإذن الله، وبهذا تحصل الطمأنينة والسكينة والرضا بالله تعالى، وعندئذٍ يسعد الفرد ويطمئن، ويتحقق الخير في الأمة.

إنَّ الشقاء الذي تعاني منه أمتنا الإسلامية اليوم على وجه الخصوص، والبشرية على وجه العموم، هو بمقدار البعد عن الله تعالى، وعن عبادته حق العبادة، وعن الاستعانة به حق الاستعانة، وهو بسبب عبادة الهوى والدينار والدرهم، وجعل ذلك الغاية والمنتهى، ولن تتحقق سعادة الأمة، والحياة الطيبة لها إلا بإفراد الله جل وعلا بالعبادة، وبكمال

---

(١) ينظر: رياض القرآن، د. سمير استيتيه، ١/٥٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ، كتاب: القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، ٤/٢٠٥٠، رقم [٢٦٦٤].

(٣) ينظر: رياض القرآن، د. سمير استيتيه، ١/٥٤.

التوجه إليه بها، تحقيقًا لوعد الله عز وجل في قوله: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]، وقد حذق هذا المسلمون المتقون الذين تربوا في مدرسة النبوة، فكانت لهم الكلمة الأولى في الدنيا؛ حيث كانوا يعبدون الله حق العبادة، ويقصدون بأعمالهم وجه ربهم الأعلى؛ وبهذا تحولوا إلى طاقة هائلة تجمع بين الاستعانة بالله والتوكل والاعتماد عليه في كل أمورهم، وبين تحويل كل ما منَّ الله به عليها إلى طاقة مسخرة لخدمة الدين الذي رضي الله تعالى لعباده؛ وبسبب ذلك كانوا منسجمين مع العالم الخارجي؛ لأنَّ القرآن علمهم أنَّ ما يحدث في هذا الكون هو بعلم الله وإرادته؛ ولذلك هم راضون وسعداء بكل ما يأتون ويدعون، ولن يتحقق الفلاح للأمة اليوم وتكون لهم الكلمة إلا بهذا المنهج[1].

۞ **الإخلاص**: الإخلاص هو روح العبادة ولبها، وقد تضمنت سورة الفاتحة الإشارة إلى ذلك، ودلت آياتها على إخلاص التوحيد لله تعالى في المقام الأول[2]، ثم الإخلاص في عبادة الله تعالى وتصفيتها عن كل ما يكدرها من الرياء والعجب والسمعة؛ فقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تذكير بمقام الإخلاص لله رب العالمين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار ... فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص، فإن قلت: وما الذي يسهل عليَّ ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؟ قلت: أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقينًا أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه، لا يملكها غيره، ولا يؤتي العبد منها شيئًا سواه، وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده»[3].

وللإخلاص مظاهر كثيرة، أولها الإخلاص في التّوحيد، ثم في العبادة كما سبقت

---

(١) ينظر: تأملات في سورة الفاتحة، د. حسن باجودة، ص١٠١، ١٠٢.

(٢) وهذا المقام تدل عليها كل آيات السورة، وقد سبق تقرير هذا أثناء عرض الهدايات الجزئية والكلية في السورة.

(٣) الفوائد، ابن القيم، ص١٤٩.

الإشارة قريبًا إلى هذا، ومن مظاهر الإخلاص الإخلاصُ في الأقوال، وفي الالتزام بمكارم الأخلاق، وفي كافة الأعمال الموكلة إلى الإنسان[1].

إنَّ حقيقة الإخلاص تقود الإنسان إلى النظر في كيفية أداء العمل لا في كميته؛ فالعمل وإن كان صغيرًا فإنه مع الإخلاص يصبح كبيرًا، والعمل مع فقد الإخلاص لا قيمة له، والإسلام لا يهتم بصورة العبادة بقدر ما يهتم بجوهرها، وهو الإخلاص، وقد يكون العمل صورته صورةَ عبادة لكن حقيقته ليست بعباده؛ لانعدام الإخلاص فيها بقصد الشهرة أو الرياء أو السمعة أو غيرها مما يضاد الإخلاص ويناقضه، والرسول ﷺ علّق قبول الأعمال على المقاصد والنيات فقال: ((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى))[2].

ومما سبق يتضح أنَّ قبول العبادات مبنيٌّ على الإخلاص فيها؛ فلذلك يجب وجوبًا مؤكَّدًا قصد وجه الله تعالى بأدائها، وهذا هو المعنى الذي أشارت إليه سورة الفاتحة بتخصيص العبادة لله وحده، أخذًا من تقديم المعمول ﴿إِيَّاكَ﴾ على الفعل ﴿نَعْبُدُ﴾.

وهناك أعمال لا يجب ملاحظة ذلك القصد عند أدائها كالمباحات من الأكل والشرب والنوم ونحوها، لكن ينبغي التنبه أنَّ هذه الأعمال بالإخلاص وبحسن القصد تتحول لعبادات يؤجر عليها صاحبها، وبهذا تنفتح مجالات واسعة للعمل أمام الفرد المسلم؛ فتصبح حركاته، وسكناته، ونومه، ويقظته، كلها في ميزان حسناته لأنه ابتغى بها وجه الله تعالى، وهذا له الأثر البالغ على واقع الأمة.

ويؤيد هذا قوله ﷺ: ((... وفي بُضع أحدكم صدقة))، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: ((أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر))[3].

---

(١) ينظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، مجموعة مؤلفين بإشراف د. صالح بن حميد، ١٤٠/٢.

(٢) سبق تخريجه ص ٢٦٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي ذر ﷺ، كتاب: الزكاة، باب: بيان أنَّ اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، ٦٩٧/٢، رقم [١٠٠٦].

ووجود الإخلاص يدفع الفرد للعمل والمبادرة؛ فالمخلص يعلم أن الذي سيجازيه على عمله هو اللهُ سبحانه وتعالى؛ لذا هو يسعى جاهدًا لإرضاء الله تعالى، فيجيد عمله بما يرضي الله تعالى، سواء أكان عبادة أم غيرها.

كما أنَّ الإخلاص يدفع إلى الاستمرارية في العمل فإنَّ الذي يقصد بعمله ثناء الناس فإنه بمجرد صرف أنظارهم عنه سيترك العمل لأنه لم يعمل لوجه الله، أما الذي يعمل لوجه الله فإنه سيستمر في عمله متقنًا له سواء راقبه الناس أم لا، وستزداد الفاعلية في العمل؛ فهو يستشعر رقابة الحي القيوم الذي لا ينام، ويدفعه الدافع الأخروي قبل الدافع الدنيوي، وبهذا تتضافر الجهود وتستمر، ويزداد البذل والعطاء، كل فرد في مجاله مما يؤدي إلى سعادة الأمة ورقيها.

بل إنَّ إنتاج الفرد واهتمامه بالآخرين سيكون على المدى الطويل؛ لأنَّ الدافع لديه هو الحصول على الثواب العظيم عند الله، وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((إنَّ مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علمًا علّمه ونشره، وولدًا صالحا تركه، ومصحفًا ورثه، أو مسجدًا بناه، أو بيتًا لابن السبيل بناه، أو نهرًا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته، يلحقه من بعد موته))[1].

ومن آثار الإخلاص على الفرد والمجتمع أنه سبب التأييد والمعونة عند الأزمات والشدائد، ومما يدل له قوله تعالى في حق يوسف عليه السلام لما ابتلي بمراودة امرأة العزيز له: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وفي قراءة متواترة[2] باسم الفاعل (المخلِصين)، ومن شواهد ذلك في السنة الصحيحة قصة الثلاثة النفر الذين انطبقت عليهم الصخرة فتوسل كل واحد منهم بأخلص عمل قام به

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب: الإيمان، باب: ثواب معلم الناس الخير، ٨٨/١، رقم [٢٤٢]، والحديث حسنه الألباني. ينظر: صحيح سنن ابن ماجه، الألباني، ٩٨/١.

(٢) قرأ الكوفيون (عاصم وحمزة والكسائي)، والمدنيان (نافع وأبو جعفر) بفتح اللام على أنه اسم مفعول، وقرأ الباقون بكسرها على اسم الفاعل. ينظر: التيسير في القراءات السبع، الداني، ص١٢٨؛ والنشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ٢٩٥/٢.

ففرج الله عنهم وأنجاهم[1].

ومن آثاره كذلك استقامة المجتمع وصلاح الأمة؛ فثمار الإخلاص ليست مقصورة على الثواب في الآخرة، بل إنَّ له ثمارًا عاجلة على الفرد والمجتمع والأمة جمعاء، ومنها صلاح الأمور، واستقامتها، فبه يزول الظلم، ويقوم العدل، وبدونه يظهر النفاق، وتفسد القيم، وتختل المجتمعات.

ومن آثار الإخلاص أنه من أسباب نصر الأمة وتمكينها، وهذا النصر قد وعد الله تعالى به، وجعل الإخلاص في العبادة شرطًا في تحققه، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥]، وقد ورد أيضًا في السنة النبوية ما يدل على ترتب النصر على الإخلاص، ومن ذلك قوله ﷺ: ((إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم))[2].

وخلاصة القول: إذا نظر الفرد إلى مرضاة الله تعالى أوَّلًا فلن يكون همه العمل لأجل فلان أو علان أو مدح أو ثناء، بل سيؤدي عبادته وأي عمل يوكل إليه بما يرضي مولاه سبحانه وتعالى، وبهذا يرضى الله عن العبد، وبهذا يرقى المجتمع وينهض ويتقدم، وتسعد الأمة ويسود فيها الخير.

۞ **الإحسان:** من الهدايات التي تدل عليها سورة الفاتحة أنَّ عبادة الله تعالى والاستعانة به لا بدَّ أن يكونا في مقام الإحسان، بل وكل الأعمال التي يقوم بها الإنسان، وهذا مأخوذ من العدول عن الغيبة إلى الخطاب في قول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

---

(١) أخرج ذلك البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الغار، ١٧٢/٤، رقم [٣٤٦٥]؛ ومسلم في صحيحه، كتاب: الرقائق، باب: قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال، ٢٠٩٩/٤، رقم [٢٧٤٣].

(٢) أخرجه النسائي في سننه الصغرى عن سعد بن أبي وقاص ﷺ، كتاب: الجهاد، باب: الاستنصار بالضعيف، ٤٥/٦، رقم [٣١٧٨]، والحديث صححه الألباني. ينظر: صحيح سنن النسائي، الألباني، ٣٩٩/٢.

والمحسنون مقامهم عالٍ عند الله تعالى، وقد أشاد القرآن بذكرهم في كثير من المواضع، من ذلك محبته تعالى للمحسنين، قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ومن ذلك معيته تعالى للمحسنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، ومنها الجزاء بالإحسان منه تعالى للمحسنين، قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

إنَّ استشعار العبد مراقبة الله تعالى له تدعوه إلى أن يحسن في كل شيء؛ فالإحسان أمره شامل ودائرته متسعة، والآيات الكريمة والأحاديث الشّريفة الواردة في الإحسان تبين أنّ دائرة هذا الإحسان تتّسع لتشمل النّفس والأسرة والأقارب ثمّ المجتمع والإنسانيّة عامّة؛ فالإحسان إلى النّفس يتضمّن إخلاص العبادة وكمال الطّاعة، قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [الإسراء: ٧]، ثم تتسع الدائرة فتشمل الوالدين، والأقارب، والجيران، بل تضم المجتمع الّذي يعيش فيه الإنسان اهتمامًا بجانب الضّعيف في المجتمع كاليتامى والمساكين وأبناء السّبيل ومن على شاكلتهم، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]، بل تتسع الدائرة لتشمل العلاقات الإنسانيّة، كالإحسان إلى المخالفين في العقيدة بالصّفح عنهم، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]، ويمكن أن تضاف إلى ذلك دائرة أكثر شمولًا من العلاقة السّابقة، ألا وهي دائرة الحياة بكلّ ما فيها من نبات أو حيوان أو جماد، وإلى ذلك يشير قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقوله ﷺ: ((إنَّ الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم

شفرته، فليرح ذبيحته))[1][2].

ومن الإحسان المأمور به الإحسان في العمل؛ فالإسلام يدعو إلى إتقان العمل، ويعدّ ذلك أمانة ومسؤولية، وأخبر الرسول ﷺ أنَّ الله يحب فاعل ذلك، فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: ((إنَّ الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه))[3]، ومما يعين على إتقان العمل استشعار مراقبة الله تعالى ومحاسبته، وتذكر الوقوف بين يديه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وللإحسان آثاره الطيبة في واقع الفرد والمجتمع، من ذلك أنَّ الإحسان في عبادة الله تعالى يحول بين العبد وبين المعصية، قال ابن القيم رحمه الله: «فإنَّ الإحسان إذا باشر القلب منعه عن المعاصي، فإنَّ مَن عبد الله كأنه يراه، لم يكن كذلك إلا لاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصير كأنه يشاهده، وذلك سيحول بينه وبين إرادة المعصية، فضلًا عن مواقعتها»[4].

ومن آثار الإحسان في واقع الأمة تماسك بنيان المجتمعات وحمايتها من الخراب والتّهلكة ووقايتها من الآفات الاجتماعيّة الناجمة عن الخلل الاقتصادي، كما أنَّ الإحسان هو المقياس الذي يقاس به نجاح الإنسان في علاقته بالحياة، والإحسان هو وسيلة المجتمعات للرقي والتقدم، وإذا كان العدل وسيلة لحفظ النوع البشري فإنَّ الإحسان هو وسيلة تقدُّمه ورقيه لأنه يؤدي إلى توثيق الروابط وتوفير التعاون.

ومن آثار الإحسان في واقع الأمة أنَّ المحسنين أحبّاء للنّاس، يلتفّون حولهم، ويدافعون عنهم إذا أحدق بهم الخطر، بل إنه يقضي على العداوات بين النّاس ويبدّلها

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن شداد بن أوس رضي الله عنه، كتاب: الصيد والذبائح، باب: الأمر بإحسان الذبح والقتل، ١٥٤٨/٣، رقم [١٩٥٥].

(٢) ينظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، مجموعة مؤلفين بإشراف د. صالح بن حميد، ٧٣/٢.

(٣) أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط عن عائشة رضي الله عنها، ٢٧٥/١، رقم [٨٩٧]؛ والبيهقي في شعب الإيمان، باب: الأمانات وما يجب من أدائها إلى أهلها، ٢٣٣/٧، رقم [٤٩٣٠]، والحديث حسنه الألباني. ينظر: صحيح الجامع الصغير، الألباني، ٣٨٣/١؛ وينظر: السلسلة الصحيحة، الألباني، ١٠٦/٣.

(٤) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن القيم، ص٧١.

صداقة حميمة ومودّة رحيمة، وتنطفئ بذلك نار الفتن، وتنتهي أسباب الصّراعات، قال الله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت: ٣٤].

ومن آثار الإحسان الإيجابية في واقع الأمة النصرُ والتمكين لها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

ومنها أيضًا أنَّ الإحسان من أهم وسائل نهضة الأمة الإسلامية؛ لأنه يقتضي من المسلم إتقان العمل المنوط به إتقان من يعلم علم اليقين أنّ الله عزّ وجلّ ناظر إليه مطّلع على عمله، وبهذا الإتقان تنهض الأمم وترقى المجتمعات[1].

ثانيًا: الإيمان باليوم الآخر:

من الأمور المهمة التي أشارت إليها سورة الفاتحة تقديم أمور الدين والآخرة على أمور الدنيا، والاهتمام بالدين والآخرة أكثر من الاهتمام بالدنيا؛ فإنَّ قوله تعالى في الآية التي تتحدث عن الآخرة: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وإردافها بقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ يبين أنَّ أهم القضايا التي ينبغي أن تكون مقدَّمة عند الإنسان جانب الدين والعبادة والآخرة، كما أنَّ في ذكر ملك الله تعالى ليوم الدين تنبيهًا على الاستعداد ليوم القيامة، بفعل الطاعات وترك المعاصي والذنوب؛ لأنَّ استشعار العبد أنَّ ملك الملوك سبحانه وتعالى الذي لا تخفى عليه خافية سيجازيه على أعماله في ذلك اليوم يوجه همه إلى الاستعداد للعرض على الله تعالى وحساب يوم الدين.

إنَّ الإيمان بيوم الدين وملكية الله تعالى له يورث الخشية من الله تعالى، وهذه الخشية تولّد حياء من الله تعالى، وإقبالًا عليه، ومن ثَمَّ الكف عن كل فعل يغضب الله تعالى.

ومن الآثار المترتبة على الإيمان بملكية الله تعالى ليوم الدين المحافظة على حقوق الآخرين كما يحافظ المرء على حقوقه، وبذلك تتطهر المجتمعات من مظاهر العدوان على الناس وعلى ممتلكاتهم وحقوقهم المختلفة.

---

(١) ينظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، مجموعة مؤلفين بإشراف د. صالح بن حميد، ٢/٧٠، ٩٠، ٩١.

ومن الآثار أيضًا أنَّ المجتمع الإسلامي يخلو من عبادة الأشخاص، والخوف مما سوى الله تعالى؛ لأنَّ الجميع سواء في الوقوف أمام الله تعالى يوم الدين[1].

ومن الآثار أنَّ الفرد المسلم يزداد اطمئنانًا وثباتًا لأنَّه على يقين بزوال هذه الدنيا مهما اشتدت فيها الظروف؛ فلا يتأثر بما يسمى بالأمراض النفسية والمشكلات المعقدة التي زاد ظهورها في عصرنا، وزاد ما ينتج عنها من قلق واكتئاب، مما قد يؤدي بصاحبه إلى الانتحار.

ومن الآثار أنه يدفع الإنسان إلى الصدق في أقواله وأفعاله وتعامله؛ فيؤدي الأعمال الموكلة إليه كما ينبغي، ولا يتعامل بالغش والخداع والخيانة والكذب، بل يستشعر مراقبة الله تعالى له في كل أعماله، ويحرص على ألا يضيع سعادته الحقيقية مقابل عرض من الدنيا زائل حقير، ويسعى لأن تكون هذه الحياة الدنيا مزرعة للآخرة.

وعمومًا فإنه كلما زاد اليقين باليوم الآخر عند الأفراد زاد الاستعداد له بزيادة الطاعات وأعمال البر والخيرات، وبقلة الظلم والجرائم والخصومات وسائر أعمال الشر؛ وبذلك تصلح المجتمعات، وتنهض الأمة.

ثالثًا: الدين والحياة:

إنَّ الدين الإسلامي شرعه الله تعالى نظامًا شاملًا للحياة، يصلهم بربهم وخالقهم سبحانه وتعالى، وينظم صلتهم بخلقه، وينظم علاقة المرء مع نفسه ومع غيره؛ ولا شك في ذلك فإنه الصراط المستقيم والنهج القويم الموصل إلى رضا الله تعالى وجنات النعيم.

ورسالة شريعة الإسلام رسالة عامة لكل الأزمنة والأجيال، وليست موقوتة بزمن مخصوص أو عصر معين، فهي القانون العالمي الوحيد الذي يصلح لحكم الحياة الإنسانية وإصلاحها، ويسع الناس كلهم على اختلاف الزمان والمكان.

وقد اعتنت هذه الشريعة الغراء بإصلاح روح الإنسان وعقله وفكره وقوله وعمله، واعتنت بالفرد والأسرة والمجتمع، ولم تقسم الإنسان شطرين – كما يريده أدعياء فصل

(١) ينظر: رياض القرآن، د. سمير استيتيه، ٤١/١.

الدين عن الحياة -: شطر روحي يوجهه الدين، وشطر آخر مادي لا سلطان للدين عليه، بل إنها تصل الدنيا بالآخرة، وترسم طريق السعادة الأبدية، وذلك بالاهتمام بروح الإنسان وجسده، ودينه ودنياه[1].

ومن آثار شمول دين الإسلام على واقع الأمة أنه استوعب جوانب الحياة الإنسانية كلها؛ فقد وضعت الشريعة الإسلامية نظامًا اجتماعيًا وسياسيًّا واقتصاديًّا، وشرعت نظام الدولة الإسلامية وحددت معالمها، ورسمت العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وعلاقة الأمة الإسلامية بغيرها في حالتي السلم والحرب، إلى غير ذلك من الجوانب[2]، وبهذا تكون الأمة موصولة بالله تعالى مصدر الهدى في كل جوانبها فلا تضل ولا تشقى، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان الاهتداء بالقرآن - الذي هو الأصل الأول من أصول هذا الدين الشامل العظيم - وأثره على واقع الأمة، عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنَّ هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهدًا برب العالمين جل وعلا، ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب ... وهذه الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم؛ لشمولها **لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة**»[3].

ثم أفاض رَحِمَهُ اللَّهُ في ذكر النماذج والأمثلة على ذلك، وقد ذكر ضمن كلامه هدي القرآن في شمول دين الإسلام، وأنه يدعو للتقدم حيث يقول: «ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: هديه إلى أنَّ التقدم لا ينافي التمسك بالدين، فما خيَّله أعداء الدين لضعاف العقول ممن ينتمي إلى الإسلام من أنَّ التقدم لا يمكن إلا بالانسلاخ من دين الإسلام

(١) ينظر: خصائص الشريعة الإسلامية، د. عمر الأشقر، ص٤٩، ٥٣.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ص٥٣.

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي، ١٧/٣.

باطلٌ لا أساس له، والقرآن الكريم يدعو إلى التقدم في جميع الميادين التي لها أهمية في دنيا أو دين، ولكن ذلك التقدم في حدود الدين، والتحلي بآدابه الكريمة، وتعاليمه السماوية»[1].

إنَّ الخير كلَّ الخير للأمة الإسلامية في التمسك بدين ربها، فهو الدين الملائم لفطرة الإنسان وحياته مهما تغيرت الظروف والأماكن والأزمان، ففيه الثوابت القطعية التي لا تقبل المساومة بحال، وفيه المرونة مع المتغيرات بحسب الظروف التي تحيط بها، وتلك الثوابت مع المتغيرات دليلٌ على سعة الشريعة وسماحتها واستمراريتها، وبدونها يقع الحرج والمشقة؛ فالله تعالى جعل في دين الإسلام ثوابت تضمن الاستمرارية، ومتغيرات تكفل له الصلاحية والملاءمة لكل الظروف والأزمان والأماكن[2].

وقد شكّل الرعيل الأول – رسول الله ﷺ وصحابته الكرام – أعظم نموذج للسعادة والعز والتمكين بتمثل الإسلام منهجًا متكاملًا في جميع جوانب حياتهم؛ فقد كان رسول الله ﷺ هو الإمام في المحراب، والخطيب على المنبر، وقائد الدولة، ومدير المعارك، والمستشار الاقتصادي والاجتماعي، وسار على هذا المنهج خلفاؤه الراشدون من بعده، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

رابعًا: الاتباع والاقتداء:

تؤكد سورة الفاتحة على اتباع الصراط المستقيم، الذي هو الدين القويم، والشريعة الخالدة، وعلى الاقتداء بالمثل الأعلى للمتبعين لهذا الصراط المستقيم.

وهذان الأصلان لهما الأثر الكبير على واقع الأمة سعادة وعزة وتمكينًا، وذلك أنَّ الإيمان الصحيح يقتضي اتباع الشرع الحنيف، والتأسي بالنبي الكريم ﷺ وصحابته الأخيار رضي الله عنهم الذين ساروا على نهجه القويم، وعدم سلوك السبل الأخرى المعوجة التي تؤدي إلى غضب الله تعالى، والضلال والانحراف عن الجادَّة، لا سيما اليهود والنصارى،

---

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، ٣٧/٣.

(٢) ينظر: الثوابت والمتغيرات في الشريعة الإسلامية، (ضمن أبحاث مؤتمر مكة المكرمة الثالث عشر – المجتمع المسلم، الثوابت والمتغيرات)، د. محمد طاهر حكيم، ١٢٩/٢.

وقد شرط الله العزَّ والتمكين بذلك الإيمان فقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

والأمة اليوم اتجهت في مجملها إلى التأثر والتأسي بالحضارة الغربية على نطاق واسع مع تفاوت بين أفرادها في ذلك، والشرع لا يمانع من الاستفادة من الآخر لكن ليس في المبادئ والقيم والتشريع فمصدرها الدين الحنيف والشرع القويم باتباع ذلك؛ وقد استوردت الأمة في فترة عزها ونهضتها بعض التنظيمات الإدارية والحضارية التي لا تتعلق بالمبادئ والقيم، ولكنها في ذلك الحين لم تشعر بالصغار والانكسار وهي تأخذ ما هي محتاجة إليه من حضارة أعدائها، بل كانت تحس بالاستعلاء والعزة بالإيمان، ومن جهة أخرى فإنَّ الأمة لم تأخذ إلا ما كانت في حاجة إليه؛ فلم تأخذ كل ما كان عند أعدائها من التنظيمات والأشكال المادية من الحضارة، أضف إلى ذلك أنها لم تأخذ المبادئ والنظم السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية؛ لأنها متصلة بالتشريع الذي تتلقاه من المصدر الرباني[1].

وحال السلف الصالح الذين أنعم الله عليهم هو البعد عن التقليد الأعمى في حالهم وسلوكهم للأمم غير المسلمة لا سيما اليهود والنصارى، الداخلون في الذين حذر الله من طريقهم في سورة الفاتحة دخولًا أوليًّا؛ لأنَّ في ديننا من القيم والتعاليم والأخلاق ما يغنينا عنهم، وما يسعدنا ويجعلنا المثل الأعلى إن اتبعناه حق الاتباع، وفيها ما يجعل للأمة كيانًا محترمًا خاصًّا بها، يحافظ على هويتها ودينها.

إنَّ أسلافنا الصالحين الذين أنعم الله عليهم لم يقدموا التنازلات، ولم يظهروا بمظهر المنهزم المتخاذل، لأنهم اعتزوا بإيمانهم واتباعهم الصحيح لدين الإسلام، ورضي الله عن عمر الفارق فمن أقواله: «إنا كنا أذلَّ قوم فأعزنا الله بالإسلام؛ فمهما نطلب العزة بغير

(١) ينظر: واقعنا المعاصر، محمد قطب، ص٣٢٤.

ما أعزنا الله به أذلنا الله»[1]، وهذا هو سبيل عزة الأمة اليوم، ولن تصلح إلا بما صلح به أولئك.

خامسًا: الوسطية والاعتدال:

الصراط المستقيم هو المنهج الوسط الذي سار عليه الأخيار من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهذا المنهج الوسط المعتدل هو الذي يقوم على اتباع نهج النبي ﷺ، والسلف الصالح لهذه الأمة، وهو المنقذ الوحيد من الانحراف الذي جرَّ على الأمة المصائب والمشاكل، وقد بدأ القرآن الكريم في رسم هذا المنهج من بدايته في أم الكتاب؛ حيث إنها من أولها تقرر هذه الحقيقة وتؤكدها، وأبرز آية فيها ناطقة بذلك هي قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، والاستقامة يفهم منها الوسطية، وقد جاءت الآيات المتعددة في القرآن الكريم تدعو إلى الاستقامة بأساليب متعددة وألفاظ متقاربة، وسورة الفاتحة وضعت القاعدة والمنطلق، ورسمت المنهج وحددت معالمه، ثم جاءت الآيات بعد ذلك مقررة له وداعية إليه[2].

وفي سورة البقرة قال تعالى: ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقال بعدها مباشرة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وذكر غير واحد من المفسرين أنَّ الكاف في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ للربط بين جعلهم أمة وسطًا، وهدايتهم للصراط المستقيم[3].

والآية السابقة في سورة البقرة تؤكد أنَّ الوسطية دليل الخيرية لهذه الأمة، فالوسط فيها معناه الخيار والأجود كما ذكره ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره[4]، وفي تفسير قوله تعالى:

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب: الإيمان، ١/١٣٠، رقم [٢٠٧]، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، والأثر صححه كذلك الألباني. ينظر: السلسلة الصحيحة، الألباني، ١/١١٨.

(٢) ينظر: تدبر سورة الفاتحة، د. ناصر العمر، ص١٦، ١٧.

(٣) ينظر: جامع البيان، الطبري، ٣/١٤١؛ وأنوار التنزيل، البيضاوي، ١/١١٠؛ والتحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢/١٥.

(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/٤٥٤؛ وينظر كذلك: معاني القرآن، الزجاج، ١/٢١٩؛ والتفسير البسيط، الواحدي، ٣/٣٧١؛ والتحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢/١٤.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمعنى: أنَّهم خير الأمم وأنفع النَّاس للنَّاس ... إلى أن قال ... كما في الآية الأخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، أي: خيارًا»[(١)].

إنَّ الالتزام بالوسطية له آثاره الحميدة على واقع الأمة، ومن ذلك أنها تحقق الأمن الفكري والسلوكي؛ فتسلم الأمة بذلك من الإفراط والتفريط، والغلو والجفاء، الذي تنتج عنه الأفكار الضالة والمنحرفة، والتي تجرّ على الأمة المصائب والفتن.

ومن آثار الوسطية اليسر ورفع الحرج في واقع الأمة، فالشريعة الإسلامية حنيفية سمحة سهلة، وقد تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة وآثار الصحابة وإجماع الأمة على أن التيسير ورفع الحرج أصل من أصول الشريعة الإسلامية، وقد بيّن ذلك الرسول ﷺ قولًا وفعلًا، ففي الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: ((أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني))[(٢)].

ففعل النبي ﷺ يمثل الوسطية، وفيه التخفيف والتيسير، ويشير الحديث كذلك إلى تخفيف الشدة والمشاق التي كانت في الأمم السالفة، فخففها الله تعالى عن هذه الأمة[(٣)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/٩٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: الترغيب في النكاح، ٧/٢، رقم [٥٠٦٣]؛ ومسلم في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ووجد مؤنه، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم، ٢/١٠٢٠، رقم [١٤٠١].

(٣) ينظر: مفهوم السماحة واليسر في الكتاب والسنة وأدلتها، د. ناصر الميمان، (ضمن أبحاث ندوة أثر القرآن في تحقيق الوسطية ودفع الغلو)، ١/٧٨، ٨٨.

وينسحب الكلام السابق في الأخذ بمبدأ الوسطية على مجال الدعوة، والجهاد، وكثير من المجالات الأخرى، وخلاصة القول: الأخذ بمبدأ الوسطية هو شرف الأمة ومصدر خيرها وعزتها، وعليه بناء مصالح الدنيا والآخرة، كما كان واقع السلف الصالح من هذه الأمة الشهيدة على الناس؛ فقد كانوا أكثر الناس فهمًا وتطبيقًا لمبدأ الوسطية فصلح واقعهم وصاروا أئمة للناس.

سادسًا: الوحدة والاجتماع:

من الهدايات التي أشارت إليها سورة الفاتحة أهمية الوحدة والاجتماع وقيمتهما، والعمل على تقويتهما؛ وذلك للتعبير عن العبادة والاستعانة بلفظ الجمع لا الإفراد حيث قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وكذلك طلب الهداية بلفظ الجمع: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ فالدين الإسلامي ليس دينًا فرديًّا، بل هو دين جماعي، وكثير من مظاهر الجماعية واضح فيه، كصلاة الجماعة، فالمساجد مظهرٌ من مظاهر الجماعية، والحج أكبر مظهر جماعي، والزكاة والصدقات من أكبر مظاهر التكافل الاجتماعي، إلى غير ذلك مما فيه روح الأخوة والاتحاد والاجتماع، والذي تميزت به شريعة الإسلام(١).

وفي قول القارئ لهذه السورة المباركة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بنون الجمع حثٌّ على توجيه الدعوة إلى إخوته في الإنسانية ليشاركوه في هذا الخير الإلهي الكبير، وليدخلوا تحت راية الأمة الإسلامية الواحدة العابدة لربها جلَّ وعلا، وهذا ما كان من حال الأسوة الأعظم سيدنا محمد ﷺ؛ إذ كان يدعو الناس إلى مشاركته في عبادة الله وحده حتى كثر سواد العابدين، وصاروا أمة واحدة تجمعهم عبادة الله وحده(٢).

والمسلم الذي أعلن بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أنه يعبد ربه وحده ويستعين به وحده، والذي سأل ربه داعيًا أن يهديه الصراط المستقيم، الذي يوصله إلى مرضاة الله

(١) ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د. فاضل السامرائي، ص٤٤.

(٢) ينظر: معجزات السبع المثاني فاتحة الكتاب، ورفعة مكانتها في الصلاة، هاشم المدني، ص٤٠.

وجنات النعيم، لا بدَّ أن يشعر بأنه فرد يتابع مسيرته في الحياة الدنيا على صراط الأمة الربانية الواحدة، في موكبها المتواصل منذ عهد آدم عليه السلام[1].

إنَّ الوحدة الإسلامية تعدُّ مقوِّمًا أصيلًا من مقومات النهوض بالأمة؛ وذلك لأنَّ الاتحاد أساس كلّ خير، وعماد كلِّ نجاح ونصر، وما حظيت أمة بما تأمله وترتضيه إلا بجمع شملها، وتوحيد صفوفها، وتضامنها وتكاتفها في كلّ ما يجلب لها الخير، ويساعدها على التقدم والرقي، وبالاتحاد تقوى الشوكة، وتتم النعمة، ويكثر التواصل، وتعظم المحبة، وتنال المآرب، وقد حثَّ الإسلام على الاتحاد، ورغَّب فيه، وأمر به؛ وذلك لما يترتب عليه من نتائج في صالح الأمة الإسلامية والإنسانية جمعاء[2].

وللقرآن الكريم أسلوب فريد في التعبير عن الأخوة التي أرساها في نفوس أتباعه، والتي هي أساس من أسس اتحاد الأمة، وذلك أنه يعبر بالنفس عن الآخرين؛ لينبه على أنَّ الأمة المتواصلة بالدين يجب أن يكون شعار الأخوة فيها قويًّا ومؤثرًا، وأنَّ المحافظة على نفوس الآخرين ودمائهم وأعراضهم هي محافظة على نفسه، ومن تعبيرات القرآن الكريم بالنفس عن الآخرين أنه جعل قتل الرجل لغيره قتلًا لنفسه، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]، وجعل ظنَّ السوء بالغير ظنًّا بنفسه، قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، وجعل السلام على غيره سلامًا على نفسه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١]، وجعل لمز الرجل لغيره لمزًا لنفسه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [الحجرات: ١١].

ومن تدبر هذا الأسلوب القرآني علم أنه لا قوام لهذه الأمة إلا بمثل هذا الشعور وهذا الإحساس، وهو شعور كل فرد من أفرادها بأن نفسه نفس الآخرين، ودمه دمُ الآخرين، وظن السوء بهم ظنّ بنفسه، والسلام عليهم سلامٌ على نفسه، وعيبهم عيبٌ

(١) ينظر: معارج التفكر ودقائق التدبر، الميداني، ١/٣٠٣.

(٢) ينظر: أثر الحضارة الغربية على المجتمعات الإسلامية، د. جاد محمد عبد العزيز، ص٣٢٣، ٣٢٤.

لنفسه؛ لا فرق في المحافظة على الروح التي تجول في بدنه والدم الذي يجري في عروقه، وبين الأرواح والأبدان التي يحيا بها إخوانه[1].

وهذه المعاني العظيمة لها الأثر الكبير في واقع الأمة أفرادًا وأسرًا ومجتمعات؛ حيث يستشعرون أنهم جزء لا يتجزأ من الأمة، فيعمل الجميع وكأنهم جسد واحد، يهُمُّ الواحدَ منهم ما أهَمَّ إخوانه، ويؤلمه ما يؤلمهم؛ امتثالًا لقول المصطفى ﷺ: ((ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى))[2].

ومن آثار استشعار روح الأخوة الإسلامية تماسكُ المجتمعات الإسلامية، واتحادها تحت راية إسلامية واحدة، كما ربى على ذلك رسول الله ﷺ أصحابه، وساروا عليه من بعده، ودانت لهم الدنيا وهم أمة واحدة، ولما ضعف الإيمان في الأمة وضعف اتحادهم وتآخيهم تسلط عليهم الأعداء، وتمزقوا فرقًا وجماعات، ولم يعودوا متماسكين كالبنيان الذي عناه الرسول ﷺ في قوله: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا))، وشبك ﷺ بين أصابعه[3].

سابعًا: الولاء والبراء:

أشارت سورة الفاتحة إلى إعطاء الولاء الكامل لله ولرسوله وللمؤمنين، والتبرؤ من سبيل المغضوب عليهم والضالين، ومن كل نهج غير النهج المستقيم الذي سار عليه رسول ﷺ وأصحابه الكرام ﷺ والتابعون لهم بإحسان، وهذا المعنى المشار إليه جاء صريحًا في آيات أخرى من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ

(١) ينظر: أثر القرآن في تقوية الإحساس بالأخوة، د. أحمد شرشال، (مقال نشر في مجلة البيان، العدد ١٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، كتاب: الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم، ١٠/٨، رقم [٦٠١١]؛ ومسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تراحم المسلمين وتعاطفهم وتعاضدهم، ١٩٩٩/٤، رقم [٢٥٨٦].

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي موسى الأشعري ﷺ، كتاب: المظالم والغصب، باب: نصر المظلوم، ١٢٩/٣، رقم [٢٤٤٦]؛ ومسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ١٩٩٩/٤، رقم [٢٥٨٥].

يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٥ - ٥٧].

ومن آثار ذلك على واقع الأمة تحقيق الإيمان الصحيح، وتأييد الله سبحانه وتعالى، وفي الآخرة الفوز بجنات النعيم، ومصداق هذا قول ربنا تبارك وتعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

إنَّ سبيل الأمة الإسلامية إلى الخلاص من الهوان والتبعية، والشعور بالهزيمة النفسية، والمسارعة في العدو تخوفًا منه أو تقربًا إليه، هو الإسلام الحق، والإيمان الصادق الذي يقوم على محبة الله تعالى ورسوله والمؤمنين، وبغض أعداء الله تعالى وأعداء الملة والدين.

وطبيعة التناقض في هذه الحياة تستدعي حتمًا أن يقابل المؤمنون المناصرون للحق والخير الباطلَ والشر بالتنكر والبغضاء، وأن يقابلوا حملة الشر في الأرض والداعين إليه والمؤيدين له بالمقاومة والعداء، لا أن يتخذوهم أولياء ويصانعوهم بالمودة لأنَّ هذا ثغرة كبيرة يستغلها أعداء الدين للنيل من المسلمين[1].

وقد وعد الله تعالى بالنصر والتمكين والعزة لعباده وجنده المؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨]، وهذه الدرجة الرفيعة قد نالها أسلافنا الصالحون الذين ساروا على منهج الله تعالى، ولم يخضعوا لأعدائهم.

(١) ينظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها، الميداني، ٢/٢٨٠.

الخـــاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والشكر له سبحانه على إعانته وتوفيقه لي بإتمام هذا البحث، وأسأله سبحانه الإخلاص والقبول، وبعد:

ففي نهاية هذا البحث ظهرت لي بعض النتائج، وأبرزها:

۞ سورة الفاتحة حوت مقاصد القرآن إجمالًا، وفُرض تكرارها في كل صلاة، ولا شك أن سورة بهذه الأهمية تستأهل أن تُبذل حولها الجهود والدراسات تأملًا وتدبرًا واستنباطًا، وجمعًا لما كتبه فيها علماء الأمة من معانٍ وهدايات.

۞ العناية الكبيرة لعلماء الأمة بهذه السورة؛ وذلك لكثرة المؤلفات المفردة لهذه السورة، والتي تم الوقوف عليها أثناء البحث، وكذلك كثرة الهدايات التي استنبطها العلماء من السورة، والتي تعدّ بالمئات كما ظهر من خلال البحث.

۞ تحقيق العبودية الخالصة لله سبحانه وتعالى هو المقصد الرئيس لهذه السورة العظيمة، وتمثّل الأمة لهذا المقصد هو أساس عزّها ومجدها ورفعتها في الدنيا والآخرة.

۞ تنوعت الهدايات المأخوذة من آيات السورة بين هدايات إيمانية، وتعبدية، ودعوية، وأخلاقية، وتربوية، إلى غير ذلك من الجوانب.

۞ أظهر البحث أن كل كلمة من كلمات السورة يمكن أن تستنبط منها الهدايات، وأنَّ السورة بمجملها يمكن أن تؤخذ منها هدايات كلية تضم هذه الهدايات الجزئية.

۞ الصراط المستقيم يمثل الدين الإسلامي الذي شرعه الله تعالى نظامًا شاملًا للحياة، ولن تصلح هذه الأمة إلا باتباعه وأخذه منهجًا شاملًا بكل جوانبه، لا أن يُفصل عن الحياة كما يدعو إليه أعداء الدين وبعض المفتونين بهم.

۞ الوسطية التي أشارت لها سورة الفاتحة تحقق في واقع الأمة الأمن الفكري والسلوكي؛ فتسلم الأمة بذلك من الإفراط والتفريط، والغلو والجفاء، الذي تنتج عنه الأفكار الضالة والمنحرفة، والتي تجرّ على الأمة المصائب والفتن.

۞ هذه السورة جاءت على أروع ما يكون من الأساليب التي يظهر معها إعجاز القرآن الكريم وبلاغته وفصاحته، فبالرغم من وجازتها إلا أنها جمعت أصول معاني القرآن الكريم، وفيها من الأساليب ما يسحر الألباب، كالالتفات البديع في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فسبحان من أودع كلامه من الأسرار ما يشهد بأنه تنزيل من حكيم حميد.

والحمد لله رب العالمين أوّلًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- إبراز المعاني من حرز الأماني، تأليف: شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة، دار الكتب العلمية – بيروت.

٣- الإتقان في علوم القرآن، تأليف: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.

٤- أثر الحضارة الغربية على المجتمعات الإسلامية، تأليف: د. جاد محمد عبد العزيز، دار السلام – القاهرة، ط١، ١٤٣٢هـ – ٢٠١٠م.

٥- أثر القرآن في تقوية الإحساس بالأخوة، تأليف: د. أحمد شرشال، مقال نشر في مجلة البيان، العدد (١٣٣)، ١٤١٩هـ.

٦- أحكام القرآن، تأليف: أبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصَّاص، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٠٥هـ.

٧- أحكام القرآن، تأليف: القاضي محمد بن عبد الله ابن العربي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط٣، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

٨- أحكام من القرآن، تأليف: أبي عبد الله محمد بن صالح ابن محمد العثيمين، مدار الوطن – المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٣٤هـ.

٩- الأخلاق الإسلامية وأسسها، تأليف: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم – دمشق، الدار الشامية – بيروت، ط٥، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

١٠- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، تأليف: أبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

١١- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تأليف: القاضي محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي - بيروت، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

١٢- الأساس في التفسير، تأليف: سعيد حوى، دار السلام - القاهرة، ط٦، ١٤٢٤هـ.

١٣- أسد الغابة في معرفة الصحابة، تأليف: أبي الحسن علي بن أبي الكرم الجزري، عز الدين ابن الأثير، دار الفكر - بيروت، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

١٤- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، تأليف: د. حسن طبل، دار الفكر العربي - القاهرة، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

١٥- أسلوب التفصيل بعد الإبهام وأغراضه في القرآن الكريم، تأليف: هاني خضر، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين - جامعة النجاح الوطنية - فلسطين، ٢٠١٢م.

١٦- أسلوب المقابلة في القرآن الكريم، تأليف: د. كمال عبد العزيز إبراهيم، الدار الثقافية للنشر - القاهرة.

١٧- الإصابة في تمييز الصحابة، تأليف: أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: د. عادل أحمد عبد الموجود، وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

١٨- أصول الدعوة، تأليف: د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط٩، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

١٩- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تأليف: محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، دار الفكر - بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٢٠- الأعلام، تأليف: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين - بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢م.

٢١- الإكليل في استنباط التنزيل، تأليف: جلال الدين السيوطي، تحقيق: سيف الدين عبد القادر الكاتب، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٢٢- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تأليف: أبي سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

٢٣- أيسر التفاسير، تأليف: أبي بكر جابر بن موسى الجزائري، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ط٥، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٢٤- إيضاح البيان عن معنى أم القرآن، تأليف: سليمان بن عبد القوي الطوفي الحنبلي، تحقيق: د. علي حسين البواب، مكتبة الثقافة الدينية - مصر، ١٤١٩هـ - ٢٠٠٠م.

٢٥- الإيمان، تأليف: أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مَنْدَه العبدي، تحقيق: د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ.

٢٦- باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن، تأليف: أبي القاسم محمود بن أبي الحسن الغزنوي، تحقيق: سعاد بنت صالح بن سعيد بابقي، جامعة أم القرى - مكة المكرمة.

٢٧- بحر العلوم، تأليف: أبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (ت٣٧٥هـ)، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل عبد الموجود ود. زكريا عبد المجيد النوتي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

٢٨- البحر المحيط في التفسير، تأليف: أبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٢٩- البحر المديد، تأليف: أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس، دار الكتب العلمية - بيروت،ط٢ ، ٢٠٠٢م - ١٤٢٣هـ.

٣٠- بدائع الفوائد، تأليف: شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية، دار الكتاب العربي - بيروت.

٣١- البدر الطالع بمحاسن مَن بعد القرن السابع، تأليف: القاضي محمد بن علي الشوكاني، دار الكتاب الإسلامي - القاهرة.

٣٢- البديع في ضوء أساليب القرآن، تأليف: د. عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي - القاهرة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٣٣- البرهان في نظام القرآن، تأليف: د. محمد عناية الله أسد سبحاني، قدم له: د. محمد أديب الصالح، والعلامة أبو الحسن الندوي، ود. مصطفى مسلم، دار الكتب، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٣٤- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق، محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي - القاهرة، ١٤١٢هـ.

٣٥- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تأليف: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر - بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٣٦- البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، تأليف: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم - دمشق، الدار الشامية - بيروت، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٣٧- تأملات في سورة الفاتحة، تأليف: د. حسن باجودة، رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة.

٣٨- تأويلات أهل السنة، تأليف: أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٣٩- التجديد في تفسير القرآن، تأليف: د. أحمد الشرقاوي، ضمن أبحاث المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، العدد (٣)، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م.

٤٠- التحرير والتنوير، تأليف: محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤م.

٤١- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، تأليف: أبي العُلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٤٢- التحقيقات الواضحة في تفسير سورة الفاتحة وأوائل سورة البقرة وآية الكرسي، تأليف: محمد الحسيني الظواهري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، ط١، ١٣٦٥هـ - ١٩٣٨م.

٤٣- تدارس القرآن الكريم أحكامه وضوابطه، تأليف: د. ناصر بن محمد الصائغ، ضمن أبحاث مجلة معهد الإمام الشاطبي، العدد (٢٣)، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م.

٤٤- تدبر سورة الفاتحة، تأليف: د. ناصر العمر، مركز تدبر للدراسات والاستشارات، ط١، ١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦م.

٤٥- تذكرة الحفاظ، تأليف: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، صُحِّح عن النسخة القديمة المحفوظة في مكتبة الحرم المكي، دار الكتب العلمية - بيروت.

٤٦- تراجم المؤلفين التونسيين، تأليف: محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٤٧- الترغيب والترهيب في السياق القرآني، تأليف: د. كفايت الله همداني، ضمن أبحاث مجلة القسم العربي بجامعة بنجاب - باكستان، العدد (٢٢)، ٢٠١٥م.

٤٨- التسهيل لعلوم التنزيل، تأليف: أبي القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، تحقيق: عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.

٤٩- التعبير القرآني، تأليف: د. فاضل صالح السامرائي، دار عمار، ط٤، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٥٠- تفسير ابن عرفة، تأليف: أبي عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي، تحقيق: د. حسن المناعي، مركز البحوث بالكلية الزيتونية - تونس، ط١، ١٩٨٦م.

٥١- تفسير الإمام الغزالي، جمع: د. محمد الربحاني، دار السلام - القاهرة، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

٥٢- التفسير البسيط، تأليف: أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، حقق في (١٥) رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود، عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود، ط١، ١٤٣٠هـ.

٥٣- التفسير الحديث، تأليف: محمد عزت دروزة، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، ١٣٨٣هـ.

٥٤- تفسير الراغب الأصفهاني، تأليف: أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: د. محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب - جامعة طنطا، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٥٥- تفسير السمعاني، تأليف: أبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن - الرياض، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٥٦- تفسير الشعراوي، تأليف: محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم - مصر، ١٩٩٧م.

٥٧- تفسير الفاتحة، تأليف: أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الدمشقي الحنبلي، تحقيق: سامي بن محمد بن جاد الله، دار المحدث للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٧هـ.

٥٨- تفسير القرآن العظيم، تأليف: أبي الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٥٩- تفسير القرآن الكريم (الفاتحة - البقرة)، تأليف: أبي عبد الله محمد بن صالح ابن محمد العثيمين، دار ابن الجوزي - المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٣هـ.

٦٠- التفسير القرآني للقرآن، تأليف: عبد الكريم يونس الخطيب، دار الفكر العربي - القاهرة.

٦١- تفسير المراغي، تأليف: أحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر، ط١، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.

٦٢- تفسير المنار، تأليف: محمد رشيد بن علي رضا، دار المنار - القاهرة، ط٢، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م.

٦٣- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، تأليف: مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية - مصر، ١٩٩٣هـ - ١٩٩٣م.

٦٤- التفسير الوسيط، تأليف: د. محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر - القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.

٦٥- تفسير مقاتل بن سليمان، تأليف: أبي الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث - بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ.

٦٦- تناسق الدرر في تناسب السور، تأليف: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٦٧- تنزيل الآيات على الواقع عند ابن القيم، تأليف: يحيى زمزمي، بحث منشور ضمن أبحاث مجلة البحوث والدراسات القرآنية الصادرة عن مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، العدد (٤)، السنة الثانية، ١٤٢٨هـ.

٦٨- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين دراسة وتطبيق، د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم - الإمارات، ط١، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م.

٦٩- تهذيب التفسير وتجريد التأويل مما ألحق به من الأباطيل ورديء الأقاويل، تأليف: عبد القادر شيبة الحمد، مكتبة المعارف - الرياض، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٧٠- تهذيب التهذيب، تأليف: الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، مجلس دائرة المعارف النظامية - حيدرآباد - الهند، ١٣٢٦هـ.

٧١- تهذيب اللغة، تأليف: أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٧٢- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تأليف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٧٣- التيسير في أحاديث التفسير، تأليف: محمد المكي الناصري، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٧٤- التيسير في القراءات السبع، تأليف: أبي عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر الداني، دار الكتاب العربي - بيروت، ط٢، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٧٥- الثوابت والمتغيرات في الشريعة الإسلامية، تأليف: د. محمد طاهر حكيم، بحث منشور ضمن أبحاث مؤتمر مكة المكرمة الثالث عشر - المجتمع المسلم، الثوابت والمتغيرات، مكة المكرمة، ٤-١٤٣٣/١٢/٥هـ، ٢٠-٢٠١١/١٠/٢١م.

٧٦- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تأليف: أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٧٧- الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، تأليف: جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط٢، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٧٨- الجامع لأحكام القرآن، تأليف: أبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب - الرياض، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٧٩- جمال القراء وكمال الإقراء، تأليف: أبي الحسن علم الدين عَليّ بن محمد السَّخاويّ، تحقيق: د. مروان العطيَّة، د. محسن خرابة، دار المأمون للتراث - دمشق - بيروت، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٨٠- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، تأليف: أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي، المشهور بابن القيم، دار المعرفة - المغرب، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٨١- جواهر الأفكار ومعادن الأسرار المستخرجة من كلام العزيز الجبار، تأليف: عبد القادر بن أحمد بدران، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٠م.

٨٢- حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي، تأليف: محمد بن مصلح الدين مصطفى القوجي الحنفي، تحقيق: محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٨٣- الحجة في القراءات السبع، تأليف: أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه، تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق - بيروت، ط٤، ١٤٠١هـ.

٨٤- الحجة للقراء السبعة، تأليف: أبي علي: الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ، تحقيق: بدر الدين قهوجي - بشير جويجابي، دار المأمون للتراث - دمشق - بيروت، ط٢، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٨٥- حمد الله ذاته الكريمة في آيات كتابه الحكيمة، تأليف: د. عماد بن زهير حافظ، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة (٦٣)، العدد (١١٢)، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

٨٦- خصائص الشريعة الإسلامية، تأليف: د. عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح - الكويت، ط١، ١٩٨٢م.

٨٧- الخصائص، تأليف: أبي الفتح عثمان بن جني الموصلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤.

٨٨- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تأليف: أبي العباس أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم - دمشق.

٨٩- دراسات في هدايات سورة الفاتحة في ضوء وحدتها الموضوعية، تأليف: د. طه عابدين طه حمد، دار المتنبي - الدمام، ط١، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.

٩٠- درج الدرر في تفسير الآي والسور، تأليف: أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تحقيق: وليد بن أحمد الحسين، مجلة الحكمة - بريطانيا، ط١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٩١- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تأليف: الحافظ أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٩٢- دلائل الإعجاز، تأليف: أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، ط٣، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٩٣- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تأليف: برهان الدين إبراهيم ابن علي بن محمد ابن فرحون، تحقيق: د. محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر - القاهرة.

٩٤- روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي)، تأليف: أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الدمشقي الحنبلي، جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، دار العاصمة - المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٩٥- روح البيان، تأليف: إسماعيل حقي بن مصطفى الحنفي الخلوتي، دار الفكر - بيروت.

٩٦- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تأليف: أبي الفضل محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٩٧- رياض القرآن (تفسير في النظم القرآني ونهجه النفسي والتربوي)، تأليف: د. سمير شريف استيتيه، عالم الكتب الحديث - الأردن، ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٩٨- زاد المعاد في هدي خير العباد، تأليف: أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي المشهور بابن القيم، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، مكتبة المنار الإسلامية - الكويت، ط٢٧، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٩٩- زهرة التفاسير، تأليف: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، دار الفكر العربي - القاهرة.

١٠٠- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، تأليف: شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني، دار الكتب العلمية - بيروت.

١٠١- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، تأليف: أبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف - الرياض، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

١٠٢- سنن ابن ماجة، تأليف: أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية (فيصل عيسى البابي الحلبي) - مصر.

١٠٣- سنن أبي داود، تأليف: أبي داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.

١٠٤- سنن الترمذي، تأليف: أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

١٠٥- السنن الكبرى، تأليف: أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط٣، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٠٦- سنن النسائي (الصغرى) بشرح السيوطي وحاشية السندي، تأليف: أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، ط٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٠٧- سير أعلام النبلاء، تأليف: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط٢، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

١٠٨- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تأليف: عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد الحنبلي، تحقيق: محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير - دمشق - بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٠٩- شرح السنة، تأليف: الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، المكتب الإسلامي - دمشق - بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١١٠- شرح ديوان الحماسة، تأليف: أبي زكريا يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي، دار القلم - بيروت.

١١١- شعب الإيمان، تأليف: أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

١١٢- الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، تأليف: إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١١٣- صحيح الأدب المفرد، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، دار الصدّيق - ط٤، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

١١٤- صحيح البخاري، تأليف: أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: د.محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة - بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

١١٥- صحيح الجامع الصغير وزيادته، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت، ط٣، ١٤٠٨هـ.

١١٦- صحيح سنن ابن ماجة، تأليف: أبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف - الرياض، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

١١٧- صحيح سنن أبي داود، تأليف: أبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف - الرياض، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

١١٨- صحيح سنن الترمذي، تأليف: أبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف – الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

١١٩- صحيح سنن النسائي، تأليف: أبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف – الرياض، ط١، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

١٢٠- صحيح مسلم بشرح النووي، تأليف: أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.

١٢١- صحيح مسلم، تأليف: أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

١٢٢- الطب النبوي، تأليف: شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية، دار الهلال – بيروت.

١٢٣- طبقات الشافعية، تأليف: أبي بكر بن أحمد بن محمد بن عمر، المعروف بابن قاضي شهبة، تحقيق: د. الحافظ عبد العليم خان، دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد – الهند، ط١، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.

١٢٤- طبقات المفسرين، تأليف: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة – القاهرة، ط١، ١٣٩٦هـ – ١٩٧٦م.

١٢٥- طبقات المفسرين، تأليف: شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداوودي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

١٢٦- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تأليف: يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلويّ، المكتبة العصرية – بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ.

١٢٧- طريق الهجرتين وباب السعادتين، تأليف: شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية، دار السلفية – القاهرة، ط٢، ١٣٩٤هـ.

١٢٨- علم مقاصد السور، تأليف: د. محمد الربيعة، كلية الشريعة – جامعة القصيم.

١٢٩- علماء ومفكرون عرفتهم، تأليف: محمد المجذوب، دار الشواف – الرياض، ط٤، ١٩٩٢م.

١٣٠- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تأليف: أبي العباس أحمد بن يوسف، المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٧هـ -١٩٩٦م.

١٣١- غرائب التفسير وعجائب التأويل، تأليف: محمود بن حمزة الكَرْمانِي، دار القبلة للثقافة الإسلامية – جدة، مؤسسة علوم القرآن – بيروت.

١٣٢- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تأليف: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، ، تحقيق : الشيخ زكريا عميرات، .دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.

١٣٣- الغرة الواضحة في تفسير سورة الفاتحة، تأليف: محمد بن سليمان الكافيجي، تحقيق: د. مرزوق علي إبراهيم، مجلة البحوث والدراسات القرآنية الصادرة عن مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، العدد (١٦)، السنة (١٠).

١٣٤- غريب القرآن، تأليف: أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.

١٣٥- فتح الباري شرح صحيح البخاري، تأليف: الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩هـ.

١٣٦- فتح البيان في مقاصد القرآن، تأليف: أبي الطيب محمد صديق حسن خان، المطبعة العصرية – بيروت، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

١٣٧- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تأليف: القاضي محمد بن علي الشوكاني، دار ابن كثير – دمشق، دار الكلم الطيب – بيروت، ط١، ١٤١٤هـ.

١٣٨- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم - الإمارات، ط١، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

١٣٩- الفروق اللغوية، تأليف: أبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع - القاهرة.

١٤٠- الفوائد اللائحة من معاني الفاتحة، تأليف: بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة، اعتنى به: حايف النبهان، دار الظاهرية - الكويت، ط١، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

١٤١- فوائد في مشكل القرآن، تأليف: عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، تحقيق: د. سيد رضوان علي، دار الشروق - جدة، ط٢، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

١٤٢- الفوائد، تأليف: شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية - بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

١٤٣- في ظلال القرآن، تأليف: سيد قطب إبراهيم، دار الشروق - بيروت - القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ.

١٤٤- قطف الأزهار في كشف الأسرار، تأليف: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: د. أحمد بن محمد الحمادي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

١٤٥- الكتاب، تأليف: أبي البشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي - القاهرة، ط٣، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٨م.

١٤٦- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف: أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي - بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

١٤٧- كشف المعاني في المتشابه من المثاني، تأليف: بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة، دار الوفاء - المنصورة، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

١٤٨- الكشف والبيان، تأليف: أبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، تحقيق: أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

١٤٩- الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، تأليف: أبي البقاء أيوب ابن موسى الكفوي، تحقيق: د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت.

١٥٠- لباب التأويل في معاني التنزيل، تأليف: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم، المعروف بالخازن، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

١٥١- اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب، تأليف: د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم، دار المسلم للنشر والتوزيع - الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٥٢- لسان العرب، تأليف: جمال الدين محمد بن مكرم بن علي ابن منظور، دار صادر - بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

١٥٣- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، تأليف: د. فاضل السامرائي، دار عمار - الأردن، ط٣، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

١٥٤- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تأليف: أبي الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية - بيروت، ١٤٢٠هـ.

١٥٥- مجالس القرآن، تأليف: د. فريد الأنصاري، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة، ط٢، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

١٥٦- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تأليف: نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي المصري، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي - القاهرة، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

١٥٧- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة النبوية، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٥٨- محاسن التأويل، تأليف: محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

١٥٩- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تأليف: القاضي أبي محمد عبد الحق ابن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

١٦٠- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تأليف: شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي - بيروت، ط٣، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

١٦١- المدخل لدراسة القرآن الكريم، تأليف: محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة، مكتبه السنة - القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

١٦٢- مذكرة أصول الفقه، تأليف: محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ط٥، ٢٠٠١م.

١٦٣- مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، تأليف: أبي الحسن عبيد الله بن محمد المباركفوري، الجامعة السلفية - الهند، ط٣، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

١٦٤- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، تأليف: أبي الحسن الملا علي القاري، دار الفكر - بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

١٦٥- المستدرك على الصحيحين، تأليف: أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

١٦٦- المسند، تأليف: الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

١٦٧- مسؤولية علماء الأمة في مواجهة التحديات المعاصرة في ضوء القرآن الكريم، تأليف: د. يحيى زمزمي، ضمن أبحاث مؤتمر تداعيات انحسار المد الإسلامي - كلية الشريعة بجامعة جرش الأهلية بالأردن، ١٢ - ١٩ شوال ١٤٢٩هـ.

١٦٨- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، تأليف: إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي، مكتبة المعارف - الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

١٦٩- مظاهر الوسطية في الإسلام، تأليف: د. سليمان العايد، ضمن أبحاث ندوة أثر القرآن في تحقيق الوسطية ودفع الغلو، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٢٥هـ.

١٧٠- معارج التفكر ودقائق التدبر، تأليف: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم - دمشق، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

١٧١- معالم التنزيل، تأليف: أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة - الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

١٧٢- معاني القرآن الكريم، تأليف: أبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري النحاس، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى - مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٩هـ.

١٧٣- معاني القرآن وإعرابه، تأليف: أبي إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج، عالم الكتب - بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٧٤- معاني القرآن، تأليف: سعيد بن مسعدة المجاشعي (الأخفش الأوسط)، تحقيق: د. هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي - القاهرة، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

١٧٥- معترك الأقران في إعجاز القرآن، تأليف: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٧٦- معجزات السبع المثاني فاتحة الكتاب، ورفعة مكانتها في الصلاة، تأليف: هاشم المدني، دار دندن - بيروت، ط٤، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

١٧٧- المعجم الأوسط، تأليف: أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين — القاهرة، ١٤١٥هـ.

١٧٨- معجم اللغة العربية المعاصرة، تأليف: د. أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، دار عالم الكتب، ط١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

١٧٩- معجم المؤلفين، تأليف: عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

١٨٠- مفاتيح الغيب، تأليف: فخر الدين محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

١٨١- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، تأليف: أبي عبد الله محمد ابن أبي بكر بن أيوب الزرعي المشهور بابن القيم، دار الكتب العلمية - بيروت.

١٨٢- المفردات في غريب القرآن، تأليف: أبي القاسم الحسين بن محمد، المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

١٨٣- مفهوم السماحة واليسر في الكتاب والسنة وأدلتها، تأليف: د. ناصر الميمان، ضمن أبحاث ندوة أثر القرآن في تحقيق الوسطية ودفع الغلو، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٢٥هـ.

١٨٤- مفهوم الغلو في الكتاب والسنة، تأليف: د. صالح السدلان، ضمن أبحاث ندوة أثر القرآن في تحقيق الوسطية ودفع الغلو، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٢٥هـ.

١٨٥- المقابلة بين الأضداد في القرآن الكريم، تأليف: د. عبد الرحمن الأهدل، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى - كلية الدعوة وأصول الدين، نوقشت عام ١٤٣٧هـ.

١٨٦- مقاييس اللغة، تأليف: أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١٨٧- المقتطف من عيون التفاسير، تأليف: مصطفى الحصن المنصوري، تحقيق: محمد علي الصابوني، دار القلم - بيروت، الدار الشامية - بيروت، ط٢، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

١٨٨- المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، تأليف: أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، الجفان والجابي - قبرص، ط١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٨٩- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، تأليف: أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، تحقيق: عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية - بيروت.

١٩٠- من أساليب القرآن، تأليف: د. إبراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٩١- من بلاغة القرآن، تأليف: د. أحمد بدوي، دار نهضة مصر - القاهرة، ٢٠٠٥م.

١٩٢- من هدايات سورة الفاتحة، تأليف: د. عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، ط١، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

١٩٣- مؤسسات تعليم القرآن الكريم وأثرها في نشر الوسطية، د. أحمد بن موسى السهلي، ضمن أبحاث ندوة أثر القرآن في تحقيق الوسطية ودفع الغلو، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٢٥هـ.

١٩٤- النشر في القراءات العشر، تأليف: شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد ابن الجزري تحقيق: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى - تصوير دار الكتاب العلمية.

١٩٥- نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، تأليف: مجموعة مؤلفين بإشراف د. صالح بن حميد، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

١٩٦- نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، تأليف: عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية - الهند، ط١، ٢٠٠٨م.

١٩٧- النظرات الماتعة في سورة الفاتحة، تأليف: د. مرزوق بن هياس الزهراني، دار الصفدي - دمشق، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

١٩٨- نظرات في فاتحة الكتاب الحكيم، تأليف: د. محمد عبد الله دراز، مجلة المجلة الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد (٧)، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.

١٩٩- نظم الدرر في تناسب الآي والسور، تأليف: إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي - القاهرة.

٢٠٠- النكت والعيون (تفسير الماوردي)، تأليف: أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية – بيروت.

٢٠١- نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد، تأليف: أبي العباس البسيلي التونسي، تحقيق: محمد الطبراني، منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – المملكة المغربية، ط١، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.

٢٠٢- النهاية في غريب الحديث والأثر، تأليف: أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

٢٠٣- نواهد الأبكار وشوارد الأفكار (حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي)، تأليف: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، جامعة أم القرى – المملكة العربية السعودية، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٥ م.

٢٠٤- الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية، تأليف: د. طه عابدين، د. ياسين قاري، د. فخر الدين الزبير، مكتبة المتنبي – الدمام، ط١، ١٤٣٧هـ.

٢٠٥- هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة، تأليف: الحافظ أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، تحقيق علي بن حسن الحلبي، دار ابن القيم – الدمام، دار ابن عفان – القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ –٢٠٠١م.

٢٠٦- الهداية إلى بلوغ النهاية، تأليف: أبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي – جامعة الشارقة، بإشراف د. الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الشارقة، ط١، ١٤٢٩هـ –٢٠٠٨م.

المحتويات

الباب الأول : مقدمات تفسيرية لدراسة هدايات السورة ٩

الفصل الأول:اسم السورة، وفضلها، وأحوال نزولها. ٩

المبحث الأول: اسم السورة ١٠

المبحث الثاني: فضائل السورة ١٦

المبحث الثالث: أحوال نزول السورة ٢٠

الفصل الثاني: مقاصد السورة ومعانيها العامة ٢٣

تمهيد ٢٤

المبحث الأول: مقاصد السورة العامة ٢٦

المبحث الثاني: معاني مفردات السورة ٣٣

المبحث الثالث: المعنى الإجمالي للسورة ٤٢

الباب الثاني: دراسات تطبيقية في هدايات السورة ٤٩

الفصل الأول: الهدايات الجزئية والكلية في السورة ٤٩

المبحث الأول: الهدايات الخاصة بآيات السورة ٥٠

المبحث الثاني: الهدايات الكلية في السورة ١٧٩

الفصل الثاني: مناسبات السورة وخصائصها وأساليبها في عرض هداياتها. ٢٠٥

المبحث الأول: المناسبات المتعلقة بهدايات السورة ٢٠٦

المبحث الثاني: خصائص هدايات السورة ٢٠٩

المبحث الثالث: أساليب السورة في عرض هداياتها ٢١٦

الفصل الثالث: واقع الأمة في ضوء هدايات السورة، وأثر ذلك عليها. ٢٣٣

المبحث الأول: واقع الأمة من هدايات السورة ٢٣٦

المبحث الثاني: سبل تحقيق هدايات السورة في واقع الأمة ٢٥٠

المبحث الثالث: أثر تطبيق هدايات السورة على واقع الأمة ٢٦٠

الخـــاتمة ٢٨٢

فهرس المصادر والمراجع ٢٨٤

المحتويات ٣٠٧



hidayatqurania

مكة المكرمة – جامعة أم القرى
سنترال : 9662527000+ تحويلة (5255)
info@hidayatqurania.org
www.hidayatqurania.org